

حدائق ذات بهجة

تأليف
عائض بن عبد الله القرني

دار ابن حزم


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حدائق ذات بهجة


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤



تقديـــم

أحمدك يا من حمدَ نفسه قبل أَن يحمده الحامدون، وأَرجوك الصفح عنَّا يا من يرجو عفوه المذنبون، وأَسألك الأمن يا من يلوذ به الخائفون، شكراً لك يا رب على المنن العظام، والعطايا الجسام، اللهم صلِّ وسلم على محمد بن عبدالله عبدك ورسولك نبي البيان، وحامل الوحي، وأمين الرسالة، وصفوة البشر، وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإِحسان إِلى يوم الدِّين. أما بعد:

فهذا كتاب : «**حدائق ذات بهجة**» وضعته شباكاً يتلقف خواطر الذهن، وشوارد الخاطر، فكلما عنَّ لي فكرة بادرت بتسطيرها، وربما أعجبتني الخاطرة وأنا أمشي فأقف وأكتب بدايتها، وأحياناً يطوف بي طائف المسألة وأنا أستقبل النوم، فأفزع إلى القلم قبل شرود هذا الطائف، وهذا الكتاب، لا يجمعه فنٌّ، ولا يوحد بين أطرافه علم، فهو يستقبل كل نافع صالح مفيد، وعسى ربي أن ينفعني بما كتبت، وينتفع قارؤه بما سطرت، وحسبي الله، عليه توكلت وإليه أنيب.

وكتب

عائض بن عبدالله القرني

الدقيقة من عمرك

وجدت أَن الدقيقة من الزمن يمكن أَن يُفعَلَ فيها خيرٌ كثيرٌ، إما قراءة آيات، كل آية فيها عشرات الحروف، كل حرف بعشر حسنات، فتُصبح مئات الحسنات، ولو حسبت مائة: **(سبحان الله وبحمدهِ)** لجاءت في دقيقة واحدة. ومن قال: **(سبحان الله وبحمده)** مائة مرة غُفِرَت ذنوبه، وإن كانت مثل زبَد البحر.

وأَمررتُ عيني على ما يُقارِبُ أَربع صفحات من كتاب في دقيقة واحدة، وقرأتُ الفاتحة سبع مرات سرداً وسراً في دقيقة واحدة، وبعضهم حسب حسنات قراءة الفاتحة فإذا هي أَكثر من ألف وأَربعمائة حسنة، وتقرأ سورة الإخلاص عشرين مرة سرداً وسراً في دقيقة واحدة، ومن شك فليجرب.

قصدي إخبارك بقيمة الدقيقة الواحدة من عمرك، وأَنّها تمثل حدثاً هائلاً في الذكر والتلاوة والدُّعاء والتدبُّر والمطالعة والكتابة.

دقيقة واحدة فقط يمكن أَن تزيد في عمرك، في عطاءك، في فكرك، في فهمك، في حفظك، في حسناتك.

دقيقة واحدة تكتب في صحيفة أَعمالك إذا عرفتَ كيف تستثمرها وتحافظ عليها، فانظر كم من دقيقة؛ بل من ساعة؛ بل من يوم؛ بل من شهر؛ بل من سنة ذهب منّا هدراً، وضاع منّا لغواً وعبثاً، وطار

هباءً منثوراً؟! وليتَ من ضيّعها ينجو رأساً لا له ولا عليه؛ بل تجد خلاف ذلك من ذنوب وخطايا وسيئات، والله المستعان.

أقول: في الدقيقة تستطيع أَن تقول: لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، عشرين مرة، وأَجرها كعتق ثماني رقاب في سبيل الله من ولد إِسماعيل.

وكما سبق فإِنَّ قراءة: (قل هو الله أحد) في الدقيقة عشرين مرة تُعادل كل القرآن سبع مرات، وذلك لأَن قل هو الله أَحد تعادل ثلث القرآن. فكم بربك من فائدة ذهبت؟! ومن حسنة أُهدِرَت؟! ومن لحظةٍ سُلِبَت في القيل والقال والغيبة والنميمة، وتتبُّع أَخبار الناس والغفلة عن الرحيل واللهو في كل باطل، والتسويف مع كل لاهٍ؟!

• أَما في عالم التأليف، فإِنّك تستطيع أَن تكتب في الدقيقة: أَربعة أَسطر من الذاكرة، ومن النقل السريع خمسة، أَي ما يقارب ثلث الصفحة، أَي أَنكَ لو كتبت كل يوم خمسة أَسطر لكتبت في الشهر عشر صفحات وفي السنة مائة وعشرين صفحة، وفي عشر سنوات أَلف ومائتين صفحة، بقدر كتاب زاد المعاد لابن القيم، وأَقل قليلاً من تفسير ابن كثير، ولو قرأَتَ كل يوم في دقيقة واحدة عشرين مرة: (قل هو الله أَحد) لقرأت في الشهر ستمائة مرة (قل هو الله أحد) وفي السنة سبعة آلاف ومئتي مرة، وهي تعادل في الأَجر قراءة القرآن أَلفين وأَربعمائة مرة.

وقد جربت حفظ بيت شعر فكررته عشرين مرة في دقيقة واحدة

حتى حفظته، فلو حفظت كل يوم بيت حكمة من الشعر لحفظت في عشر سنوات ثلاثة آلاف وستمائة بيت شعر، تكون على طرف لسانك أُنساً في مجلسك، وحكمة في منطقك، وتهذيباً للغتك.

وتستطيع أَن تصلي على النبي ﷺ خمسين مرة في الدقيقة الواحدة بصيغة: ﷺ، فيصلي عليك الله مقابلها خمسمائة مرة، لأَن الصلاة الواحدة بعشر أَمثالها.

ويستطيع من صلى ركعتين خفيفتين يقتصر فيهما على الواجبات فقط كقراءة الفاتحة، وثلاثة تسبيحات في الركوع والسجود. **أَقول:** يستطيع أَن يصليهما فيما يقارب الدقيقة، فمن صلى كل يوم ركعتين ضحى نافلة صلى في السنة أَكثر من سبعمائة ركعة، وكل ركعة فيها سجدتان، أَي: يسجد في السنة في صلاة الضحىٰ أَكثر من أَلفٍ وأَربعمائة سجدة.

وفي الحديث الصحيح: «**إنّك لن تسجد لله سجدة إلاَّ رفعك بها درجة، وحطّ عنك بها خطيئة**».

في الدقيقة الواحدة تستطيع أَن ترضي الرب، وتمحو الذنب، وأَن تكتب لك عند الله بها أَجراً، وتمحو بها وزراً، وتجعلها لك عنده ذخراً، وتستطيع في الدقيقة مع الدقيقة أَن تؤلِّف، وأَن تكتب، وأَن تحفظ، وأَن تنمِّي موهبتك وأَن تجوِّد ذاكرتك، وأَن تزيد من علمك، وأَن تحافظ على وردك وأَن تعمِّق ثقافتك، وتوسِّع معارفك، وتنوِّع مواهبك، لكن الأمر يحتاج يا أَخي إلى همّة، أَعوذ بالله من موت الهمم، وبرود الغزائم وخسّة الطبع.

الهمـــة

الهمّة غليان مستمر، وهيجان صاحب، ومثابرة عارمة، إنّها قفز إلى القمة، وطيران إلى الأَعلى.

الهمة قلب جيّاش، ونفس توّاقة، وأَمل بعيد، من رزق الهمة ارتحلت به وهو مقيم، وسافرت به وهو حال.

تعلّم أَن تتسابق، ولياليك تتعانق!

فالبدار البدار، فقد أَفناك الليل والنهار.

الطريق الذي طوله ميل، يُقطع بخطوة، وسبقت السلحفاة الذئب، لأَنها واصلت على بطء مشيتها، وهو ركن إلى سرعة مشيه، فوقف يلمح ظبياً.

وإنّما أَثر الحبل في الحجر لأَنه دوام، وإنما تخدد الجبل من الماء لأَنه استمر، ومن ثبت نبت.

فيا عاقلاً فهِمَ الخطاب، لا تراوِح مكانك، الطّير قد غدا من وكناته، يطلب رزقه، والضبُّ قد انسل من جحره يبحث عن قوته، وأَنت ماذا تنتظر؟!

قُم إلى ميدان العمل، اطرد الفراغ، سابق عجلة الزمن، زاحم الجادين.

وسِر مُسرعِاً فالموت خلفك مسرعٌ وهيهـات مـا منـه مـلاذ ومهـربُ

من السنن نمو الشجرة، وتفتق الزهرة، وجريان المجرة، فأَقبح بإِنسان سميع بصير، قعدت به نفسه الأَمّارة، فلا هو في عمل الدُّنيا ولا في عمل الآخرة، وثقل نعاسه، فصار ليله كنهاره.

الناس في أَشكالهم وصورهم ولحومهم ودمائهم سواء، وإِنّما اختلفوا في الهمم، فأَصبح الواحد منهم يُعد بأُلوف من الناس.

خُيِّر ﷺ بين الدُّنيا والآخرة، فاختار الآخرة، ونادى: بل الرفيق الأَعلى. وأَرشدنا إِلى طلب الفردوس الأَعلى، وسأَله أَبو بكر الصدِّيق: هل يدعى أَحد من أَبواب الجنة الثمانية؟ قال: نعم، وأَرجو أَن تكون منهم، وما ذلك إِلاَّ لعلو همته، لأَنه كان من المصلين الصائمين الذاكرين المنفقين.

وكان عمر لا ينام من الليل إلا قليلاً، ويقول: لو نمت في النهار ضاعت رعيتي، ولو نمت في الليل ضاعت نفسي.

واشترىٰ عثمان نفسه من الله مرات كثيرة.

وعُرِضَت الدُّنيا لعلي فرفضها، واكتفى بخبز الشعير، وقميص بالي.

وحج مسروق فما نام إلاَّ ساجداً.

وكان سعيد بن المسيب يأَتي المسجد قبل الآذان، وما فاتته تكبيرة الإِحرام ستين سنة.

ومن العلماء من وزَّع ليله أَثلاثاً: ثلثاً لنومه، وثلثاً لتهجده، وثلثاً لمذاكرة العلم، وأَلَّفَ ابن عقيل الحنبلي في أَوقات فراغه كتاب: الفنون في سبعمائة مجلد، وقرأَ المزني رسالة الشافعي خمسمائة مرة.

ومنهم من كرر صحيح البخاري عشرات المرات.

وكان النووي لا ينام إلاَّ ضرورة، وعطاء بن أَبي رباح طلب العلم في المسجد الحرام، ونومه فيه ثلاثين سنة.

وسافر جابر بن عبدالله رضي الله عنهما من المدينة إلى عريش مصر شهراً كاملاً في طلب حديث واحد.

فلله در الهمم ما أَعظمها وما أَجلها.

أَقلـوا عليهـم لا أَبـاً لأبيكمـوا   من اللوم أَو سدوا المكان الذي سدُّوا

قيل للجعلان: لماذا امتهنت هذه المهنة الحقيرة؟ قال: لسقوط همتي.

وقيل لزبال: لماذا تعمل هذا العمل؟ قال: لأَنني أُريد أَن أَعيش مع الهمَل.

وقال الحكماء: الناس بهممهم لا بأَموالهم.

الأَسد لا يأكل الجيف، فأَذعنت له البهائم، والخنزير يأَكل القاذورات والنتن فحُرِّمَ لحمه.

وكلب الصيد المعلم أُبيح صيده، وحرِّم صيد الجاهل.

قالوا لحاتم: لماذا أَتلفت مالك؟ قال: طلباً للذكر الحسن.

وقيل لعنترة: كيف غلبت الرجال؟ قال: بصبر ساعة.

إذا طلعَ الفجر بان الربح من الخسران، من قام فتهجد أَصبح نشيطاً طيب النفس عامر القلب، موفور الأَجر، ومن نامَ الليل كله أَصبحَ خبيث النفس كسلان مبخوس الثواب، ظاهر الحسرة، فما أَكثر نوم الكسالىٰ، وما عاد عليهم بصحة في الأَبدان، ولا بخير في الأَديان.

صلِّ أَو سبِّح أَو طالع أَو تفكّر أَو افعل خيراً، فقد أَصبحت شمس العمر على رؤوس سعف النخل، وليس في القبر فرصة للعمل، لا مسجد للصلاة، ولا مكتبة للقراءة ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

سرِّح الطرف في القبور كم صرع فيها من شجاع.

في بطون القبور أَسرار وأَخبار، ولسان الحال ينادي: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

إنّ الله لا يغيِّر ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم

من داخل النفس يأتي التغيير، من رضي فله الرضا، ومن سخِطَ فله السخط، من تفاءل بالخير وجده، ومن استفتح بالشر لقيه.

السعادة من النفس لأَنها مشاعر وعواطف حملتها هذه النفس، فأَبصرت الجانب المشرق في الحياة، والشقاء من النفس لأَنها نظرت

إلى الجانب المظلم من الحياة، حب الناس من النفس إذا تفكرت في صفات النُبل فيهم، والوفاء والطيبة، وبغض الناس من النفس إذا لمحت مكرهم وغدرهم، وقلة وفاءهم وجحودهم.

السرور من النفس إذا أَفعمت بالأَمل والتفاؤل وحسن الظن وكريم الرجاء وانتظار الفرج والرضا بالقضاء والحزن من النفس إذا ملئت باليأس والقنوط والإحباط والفشل وسوء الظن وتوقع الشر وانتظار المكروه.

من غيّر مابنفسه من سوء فتاب وأَناب وأَقبل فُتِحَ له الباب: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ومن نكصَ على عقبيه وأَعرض عن الله ورفض الهدى، جاءه الزيغ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥].

من شَعَرَ بِدُنو العافية من سقمه، والشفاء من مرضه، جاءته رحمة الله ورعايته، ومن تشاءم وانتظر المكروه، هجم عليه البلاء.

زار ﷺ أَعرابياً به حمى، فقال له مواسياً: «**لا بأَسَ طهور إن شاء الله**». فلم يقبل هذا الأعرابي هذا الفأل الحسن؛ بل قال: بل حمى تفور على شيخ كبير تورده القبور، قال: نعم إذن. رواه البخاري. فما دام أَراد لنفسه هذا فهذا نصيبه.

سجن شاعران، متفائل ومتشائم، فأَطلاَّ من نافذة السجن، فأَمّا المتفائل فنظرَ نظرة في النجوم فضحِكَ، وأَما المتشائم فنظرَ في طين الطريق فبكى:

وذو العقل يشقىٰ في النعيم بعقله وأَخو الجهالة في الشقاوة ينعمِ

أَنفقَ الأَعراب على عهده ﷺ نفقات للجهاد، فمنهم من جعلها قربات عند الله، ومنهم يتخذها مَغرماً، فأُولئك وجدوا ثوابهم، وهؤلاء حصّلوا عقابهم، والدراهم هي هي، إنما تغيّرت لأَجل ما بأَنفسهم من نيات.

إن من أَعظم ما قيلَ في الأَمثال: حياتك من صنع أَفكارك، فما الحياة إلاّ حكمة على هذا الشيء حبًّا أَو بغضاً.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أَن عين السخط تبدي المساويا

علِمَ الله ما في قلوب الصحابة من الإِيمان، فأَنزلَ السكينة عليهم، وعلم ما في قلوب المنافقين فزادهم رجساً إِلى رجسهم.

أُولئك جعلوا قلوبهم منارات تتلقّى نور السماء، وهؤلاء جعلوها مزابل تطرح عليها جثث الخنا.

إنّ الضال لا يهتدي حتى يبدأ بخطوة من نفسه، ويقبل على الهدىٰ، ويتطلع إِلى النور. «**من أَتاني يمشي أَتيته هرولة**». وإِن المهتدي لا يضل حتى يبدأ هو في نية الانحراف، واعتقاد السوء. ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

إِنَّ صاحب النعمة تدوم عليه نعمته ما لم يغيِّرها بكفـــران، ويبدِّلها بجحود: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ وإِنَّ النقمة باقية على صاحبها حتى يتوب من إِعراضه، ويعود عن

غيّه ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [الصافات: ١٤٨] وهذه سنة ماضية. ولن تجد لسنة الله تبديلاً. صاحب الحكم من نفسه، يحكم بالحق ويعدل في القضية، فيدوم عزه، ويبقى سؤدده. ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾. ويتغير صاحب الحكم فينسى الله، ويظلم عباده، ويجور في حكمه فينهدم كيانه، وتهتز أَركانه ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النمل: ٥٢].

فلن يتغيّر شيء في ذاتك حتى تغيره أَنت في نفسك.

محمــــــد ﷺ

خاتم الرسل، وذروة الصلاح، وصلَ السماء بالأَرض، والدُّنيا بالآخرة، بسيط في عظمته، سهلٌ في هيبته، لا تراه إلاَّ وتحبه، ولا تخالطه إلاَّ وترتاح له، حجته القرآن، وقبلته الكعبة، ودينه الحنيفية، ومنهجه الوسط، ودعوته التوحيد، أَتى ليضع الآصار والأَغلال، وبُعِثَ ليُحطم الأوثان والأَصنام، وأُرسِلَ للعالمين رحمة، وللكافرين حسرة، صاح في أُذن الدُّنيا، فتهاوت على صوته أَعمدة البغي، وانهارت بكلماته أَبنية الظلم، عاش الفقر فتحلّى بالصبر، وتذرّع بالتحمل، فبيّن بسيرته ضآلة الدُّنيا وحقارتها، وعاش الغنى فشكر المنعم، وواسىٰ الخلق، وعَلَّمَ البرية فصول الجود، وملاحم البذل، سالم فكان أَلطفَ من النسيم، وأَرقّ من الحرير، وأَندىٰ من الطل، فطافت بكعبة جلاله القلوب، وسعَت في ميدان فضله الأَرواح.

حارَبَ فكانت حروبه لاستئصال جذور الفساد، وسحق قلاع

الضلال، وإزهاق الباطل، ودفن الإلحاد في حفرة النسيان.

محمد اسم محبب إلىٰ قلبي، دعوتُ الله أَن لا أَكون مُدَّعياً في حبه، أُحبه وأُحب من يحبه، ويذكره ويتابعه، أُحب أَلفاظه، وجمله وحديثه، وأُحب مسجده ومصلاه ومحرابه، أُحب سواكه وثيابه وعصاه، أُحب سيفه ومنبره وجفنته، أُحب أَهله وقرابته، وأَصحابه، أُحب رضاه وغضبه، ونومه ويقظته، وحلِّه وسفره، لا يستحق حبي من البشر إلاَّ هو، ولا يملؤ قلبي من الناس سواه، ولا يبرد مشاعري من الخليقة غيره، ليس لأَحد من البرية عليّ منَّة أَعظم من منته، ولا في عنقي لأَحد يد أَعظم من يده البيضاء، به هداني ربي، ومنه علَّمني مولاي، وبه كان اقتدائي، وإِليه انتهىٰ إِعجابي، أُصلي فأَجتهد أَن توافق صلاتي صلاته، وهيهات، لأَنه يقول: «**صلُّوا كما رأيتموني أُصلي**». أَحج فأَحرص أن أَتابع صفة حجة، لأَنه يقول: «**خذوا عني مناسككم**».

أَعيش وسيرته أَمام عيني، وفي خلدي، لأَنَّ الله يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

تاج المدائح

١ ـ أَنصتْ لميميّة جاءتك من أَمَمِ ... مُدادها من معاني نونِ والقلمِ

٢ ـ سالت قريحةُ صبٍّ في محبتكم ... فيضاً تدفقَ مثلَ الهاطلِ العَمِمِ

٣ ـ كالسَّيلِ كالليلِ كالفجرِ اللّحوحِ غدًا ... يَطوي الرَّوابي ولا يلوي على الأَكَمِ

٤ ـ أَجشَّ كالرعدِ في ليلِ السعود ولا ... يشابه الرعدَ في بَطشٍ وفي غَشَمِ

٥ ـ كَدمعِ عيني إِذا ما عشتُ ذِكْركُمُ ... أَو خَفْقِ قلبٍ بنارِ الشوقِ مُضْطَرِمِ

٦ ـ يُزري بنابغةِ النعمانِ رونقُها ... ومنْ زهيرٌ؟ وماذا قال في هَرِمِ

٧ ـ دعْ سيفَ ذي يزنٍ صفحاً ومادحَه ... وتبَّعاً وبني شدادَ في إِرمِ

٨ ـ ولا تعرّج على كسرى ودولتِه ... وكلِّ أَصْيَدَ أَو ذي هالةٍ وكَمِي

٩ ـ وانسخْ مدائِحَ أَربابِ المديحِ كَمَا ... كانت شريعتُه نَسخاً لدينهمِ

١٠ ـ رَصِّع بها هامةَ التأريخِ رائعةً ... كالتّاجِ في مِفرقٍ بالمجدِ مرتسمِ

١١ ـ فالهجرُ والوصلُ والدُّنيا وما حملتْ ... وحبُّ مجنونِ ليلىٰ ضِلّةٌ لِعَمِي

١٢ ـ دع المغاني وأَطلالَ الحبيبِ ولا ... تلمحْ بعينكَ برقاً لاحَ في أَضَمِ

١٣ ـ وأنس الخمائلَ والأفنانَ مائلةً ... وخيمةً وشويهاتٍ بذي سَلَمِ

١٤ ـ هُنا ضياءٌ هنا رِيٌ هُنَا أَملٌ ... هُنَا رواءٌ هُنا الرضوانُ فاستلمِ

١٥ ـ لو زُينتْ لامرءِ القيسِ إنزوى خجلاً ... ولو رآها لبيدُ الشِّعرِ لم يقمِ

١٦ ـ ميميةٌ لو فتى بوصيرَ أَبصرَها ... لعوذّوه بربِ الحلِّ والحرمِ

١٧ ـ سلْ شعرَ شوقي أَيروي مثلَ قافيتي ... أَو أَحمدَ بنَ حسينٍ في بَني حَكمِ

١٨ ـ ما زار سوقَ عكاظٍ مثل طلعتِها ... هامت قلوبٌ بها من روعةِ النّغمِ

١٩ ـ أُثني على من؟ أتدري من أُبجّلُه؟ أمـا علِمـتَ بِمَـن أهـديتُـه كَلِمـي
٢٠ ـ في أشجعِ الناسِ قلباً غيرَ مُنْتَقِمٍ وأصـدقِ الخلـقِ طُـرًّا غيـرَ متّهَـمِ
٢١ ـ أبهىٰ من البدرِ في ليلِ التّمامِ وقلْ أسخىٰ من البحرِ بلْ أرسىٰ من العلمِ
٢٢ ـ أصفى من الشمسِ في نطقٍ وموعظةٍ أمضى من السيفِ في حُكمٍ وفي حِكَمِ
٢٣ ـ أغـرُّ تشـرقُ مـن عينيـهِ ملحمـةٌ مـن الضيـاءِ لتجلـو الظُّلـم والظُّلَـمِ
٢٤ ـ في همةٍ عصفتْ كالدهرِ واتقّدتْ كـم مزّقـت مـن أبي جهـلٍ ومـن صَنَمِ
٢٥ ـ أتـى اليتيـمُ أبـو الأيتامِ فـي قَـدرٍ أنهـى لأمتِـهِ مـا كـان مـن يُتَـمِ
٢٦ ـ محررُ العقلِ بانِي المجدِ باعثُنا مـن رقـدةٍ فـي دِثَـارِ الشـركِ واللَّمَـمِ
٢٧ ـ بنـورِ هـديـكِ كحّلنـا محـاجِـرَنـا لمـا كتبنَـا حـروفـاً صغتهـا بـدمِ
٢٨ ـ مَن نحنُ قَبلك إلاّ نقطةٌ غَرِقتْ فـي اليّمِ بـل دمعـةٌ خرسـاءُ فـي القِدَمِ
٢٩ ـ أكَـادُ أقتلِـعُ الآهـاتِ مـن حُـرَقِـي إذا ذكـرتُـك أو أرتـاعُ مـن نَـدمـي
٣٠ ـ لمّا مدحتُكَ خِلتُ النجمَ يَحمِلُني وخـاطـري بـالسَّنَـا كـالجيشِ محتـدمِ
٣١ ـ شجعـتُ قلبـي أن يشـدو بقـافيـةٍ فيـك القـريـضُ كـوجـهِ الصبـحِ مبتسـمِ
٣٢ ـ صَهْ شكسبيرُ من التهريجِ أسعدَنا عـن كـلِّ إلْيَـاذةٍ مـا جـاءَ فـي الحِكَـمِ
٣٣ ـ الفرسُ والرومُ واليونانُ إن ذُكِروا فعنـد ذكـراه أسمـالٌ علـى قَـزَمِ
٣٤ ـ هـم نَمقّـوا لـوحـةً للـرِّقِّ هـائمـةً وأنـتَ لـوحُـكَ محفـوظٌ مـن التُّهَـمِ
٣٥ ـ أهـدْيتَنـا منبـرَ الـدُّنيـا وغـارَ حِـرَا وليلـةَ القـدرِ والإسـراءَ للقِمَـمِ
٣٦ ـ والحوضُ والكوثرُ الرّقراقُ جئتَ به أنـتَ المُـزَمّـلُ فـي ثـوبِ الهُـدى فَقُـمِ
٣٧ ـ الكـون يسـألُ والأفـلاكُ ذاهلـةٌ والجـنُّ والإنـسُ بيـن الـلاءِ والنِّعـمِ
٣٨ ـ والـدهـرُ محتلـقٌ والجـوُّ مبتهـجٌ والبـدرُ ينشـقُّ والأيـامُ فـي حُلُـمِ
٣٩ ـ سربُ الشياطينِ لما جئتنا احترقتْ ونـارُ فـارسَ تخبـو منـكَ* فـي نَـدَمِ

٤٠ ـ وصُفّدَ الظلمُ والأوثانُ قد سَقَطَتْ ... ومـاءُ سـاوَة لَمّـا جئـتَ كَـالحُمَـمِ

٤١ ـ قحطانُ عدنانُ حازوا مِنكَ عِزَّتهمْ ... بـــكَ التشـــرّفُ للتـــأريـــخِ لا بِهِـــمِ

٤٢ ـ عقودُ نصركِ في بدرٍ وفي أحدٍ ... وعـــدلُنـــا فيـــكِ لا فـــي هيئـــةِ الأمـــمِ

٤٣ ـ شـادوا بعلمـك حمـراءً وقـرطبـةً ... لنهركَ العذبِ هبَّ الجيلُ وهو ظَمي

٤٤ ـ ومن عمامتكَ البيضاءِ قد لبستْ ... دمشـــقُ تـــاجَ سنـــاهـــا غيـــرَ مُنْثَلـــمِ

٤٥ ـ رداءُ بغـدادَ مـن بـرديـك تَنسُجـهُ ... أَيـــدي رشيـــدٍ ومـــأمـــونٍ ومعتصـــمِ

٤٦ ـ وسـدرةُ المنتهـى أولتـكَ بَهجَتَهـا ... علـــى بســـاطٍ مـــن التبجيـــلِ محتـــرمِ

٤٧ ـ دارستَ جبريلَ آياتِ الكتابِ فلم ... يَنْـــسَ المعلّـــمُ أَو يَسهُـــو ولـــم يَهِـــمِ

٤٨ ـ اقـرأ ودفتـرُكَ الأيـامُ خُـطَّ بـه ... وثيقـةُ العهـدِ يـا مـنَ بـرَّ فـي القَسَـمِ

٤٩ ـ قَـرَّبـتَ للعـالـمِ العلـويِّ أَنْفُسَنَـا ... مَسَّكْتَنَـــا مَتـــنَ حَبـــلٍ غَيـــرَ مُنصـــرِمِ

٥٠ ـ نُصرتَ بالرّعبِ شهراً قبلَ موْقعةٍ ... كـأن خَصْمَـكَ قبـلَ الحـربِ في صَمَـمِ

٥١ ـ إذا رأَوا طفـلاً فـي الجـوِّ أَذهلهـم ... ظنـــوكَ بيـــن بنـــودِ الجيـــشِ والحشـــمِ

٥٢ ـ بـك اسْتَفَقْنَـا علـى صبـحٍ يـؤرّقـهُ ... بـــلالُ بـــالنغمـــةِ الحـــرا علـــى الأَطَـــمِ

٥٣ ـ إن كان أَحببتُ بعد الله مثلك في ... بـدوٍ وحضـرٍ ومـن عـربٍ ومـن عجـمِ

٥٤ ـ فلا اشتفى ناظري من منظرٍ حَسَنٍ ... ولا تفـــوَّهَ بـــالقـــولِ الســـديـــدِ فَمِـــي

رسالة الرسول ﷺ

كان العالم قبل مبعثه ﷺ جيفة في حضن صنم، وجثة هامدة تحت أَقدام وثنٍ، جباه معفرة لللات والعزى، وأُنوف راغمة لمناة الثلاثة الأُخرى، عري في الأَخلاق، ونكوص في الهمم، وانتحار في المبادئ، عقل مدفون تحت ركام الجهل؛ بصيرة مطموسة بغبش التقليد والتبعية، فأَراد الله بهذا العالم خيراً، منةً منه وفضلاً، وكرماً منه، فبعث محمد عليه الصلاة والسلام فهو النبأ العظيم، والنبي الخاتم، والحدث الجلل، والقصة الكبرى، بعث عليه الصلاة والسلام ليرد كل شيء إِلى أَصله، وكل أَمر إِلى حقيقته، وكل نبأ إِلى مستقره، فملأ القلب إِيماناً، والعقل حكمة، والنفس يقيناً، والكون عدلاً، والدُّنيا رحمة، والأَيام سلاماً، والليالي أَمناً.

أَصدق الناس لهجة، وأَبرهم قلباً، وأَشرحهم صدراً، وأَعظمهم حلماً، وأَسدهم رأَياً، وأَقواهم بصيرة، وأَحسنهم هدياً، وأَجملهم طريقة، وأَتقاهم نفساً، وأَنقاهم سريرة، وأَبينهم خطاباً، وأَثبتهم جناناً، وأَسلمهم جانباً، وأَرضاهم سجية، وأَقومهم قيلاً، وأَعدلهم حكماً، وأَوصلهم رحماً، وأَطهرهم عرضاً، وأَكرمهم يداً، وأَظهرهم حجة، وأَمضاهم عزيمة، وأَنبلهم سجية، وأَعرقهم نسباً، وأَفضلهم حَسَباً، وأَوسطهم طريقة، وأَوضحهم مذهباً، وأَجلهم قدراً، وأَعزهم فخراً.

كان الكون قبل رسالته هائماً في حلم الكرىٰ، سادراً في خرافات

الورى، العقول جامحة في هواها، والنفوس طائشة في مبتغاها، شطحات في الفكر، وكساح في المعرفة، وتشويه في الأَخلاق والسلوك، وتخلف بهيمي في الإرادات، وعوج ظاهر في المدارك، وسفه عابث في القيم، أُمة قبل مبعثه مبعثرة، تصب فضول الخمر على رأس الصنم، وتذبح البنات بالحجج الواهيات، العقل هائم، ووازع البصيرة نائم، والقلب خنس عليه الشيطان، والجسم في جنابة، لا وضوء ولا غسل ولا طهر ولا صلاة، ولا تسبيح، ولا تدبر ولا تفكر، ولا محاسبة، لا خشوع ولا دموع، لا توبة ولا إنابة، لا صلة ولا رحمة، لا علم ولا فهم، لا حج ولا جهاد، لا زكاة ولا قربة.

ضلال مبين، وغي ثخين، وعتو جارف.

فلو جمعت بلاغة سحبان، وكتابة ابن العميد، وذكاء إياس، وبيان ابن عباس، وشعر المتنبيء، في وصف ذاك الحال لقصر المقال، ولم يستوف تلك الخصال.

ومع هذا الجدب في المعرفة، والأَخلاق، والقيم، كان هناك فقر مدقع في المعيشة، فالجوع يلازم البطون ملازمة الغريم الشحيح، والعدم سكن البيوت سكون الفكرة في الضمير، يأكلون الميتة، ويتعرقون الجلود، ويمصون العظم، ويلوكون الشجر.

ومع هذا الجدب كله، والفقر كله، اندثار في الأَجسام، فالرؤوس شعث، والوجوه مغبرة، والأَظفار ناتئة، والثياب وسخة، والشعور نافشة، والروائح كريهة، مع عبوس في المحيا، وكلوح في

الوجه، وسوء في المعاملة، وفظاظة في الخلق، ويبس في الأدب، وضمور في السجايا، حتى طل هذا الفجر الزاهي، وسطع هذا النور الباهي، محمد ﷺ، فكأن الكون جرى في جسمه تيار فنفضه من أوله إلى آخره، ومن مشاش رأسه إلى أخمص قدميه، نفضه نفضاً قويًّا، فنثر كل ذرة من الانحراف فيه، وأَخرج كل قطرة آثمة منه، ودبت الحياة في جسم العالم الميت برسالته ﷺ، دبيب البرء في الجرح، والمـــاء فـــي العود، والندى في الورد، واستفاق العقل، وأَشرقت الروح، وانجاب الظلام وانقشع، وتم فرح الأَجيال في ليلة ميلاد النبوة، وفي عرس الرسالة الأَكبر، وفي مهرجان الهدى العظيم المبارك، فلله الحمد أَولاً وآخراً.

الأصحـــــــاب

أَصحاب رسولنا ﷺ مصطفون لصحبته كاصطفائه للرسالة، رضي الله عنهم، وزكّاهم وأَشاد بذكرهم، من أَحبهم فما أَحب إِلاَّ الخير، وما نفع إِلاَّ نفسه، ومن ذمهم فقد وصم نفسه وبخس حظه وأَضاع نصيبه.

قومٌ شهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل، وأَقبلوا وقت الإِدبار، وعرفوا أَوقات الإِنكار.

قومٌ خلصت منهم النيّات، وصلحت منهم الأَعمال، ومات فيهم الهوىٰ، وصار مراد الله عندهم هو الشغل الشاغل، ومتابعة المعصوم

هو الشأن الأهم، خرجوا من الأَموال فما شفى غليل تعلقهم بالملة، فخرجوا من الديار فبقي في القلوب لوعة، فخرجوا من أَنفسهم:

يستعـذبـون منـايـاهـم كـأنهـم لا يخرجون من الدنيا إذا قتلوا

وقفوا مع الدليل، وساروا على الجادة، وأَخذوا بالحجة، وتعبدوا بالأثر، هجروا التنطُّعَ لأنَّ المعلم بين أَظهرهم، وتركوا التعمق لأَن الوحي يهبط عليهم صباح مساء، واطرحوا التكلف، لأنهم ذاقوا الحنيفية السمحاء، فروا من القيل والقال؛ لأن لديهم مهمة إصلاح العالم، وهربوا من اللهو لأنهم حملوا أمانة إنقاذ الإنسان، قدموا رؤوسهم للسيوف يوم قدم الأدعياء أكف الاستجداء عند تساقط الدراهم، وسفحوا دموع الخشية يوم أسال غيرهم خمور الليالي الحمراء على شفتيه، لا يفتح أحدهم جفنه في الثلث الأخير من الليل إلا وابتهالة الاستغفار ملؤ حنجرته، ولا يرفع جبهته من السجود لربه إلا وتاج العزة على هامته، عبدوا الله فذلَّت لهم جبابرة العالم، وسعوا للآخرة فهرولت الدنيا خلفهم لاهثة تريدهم، واتصلوا بالسماء فاشرأبت الأرض احتفاءً بهم، قصصهم أحسن القصص؛ لأنهم نجوم في ليل الدنيا الداجي الدامس، فهل أحد يكره النجوم؟!.

* * * *

اهــل الحديــث

نجوم سماء العلم، كواكب قبة الفهم، تيجان المدارس، بدور المجالس.

هم الذين قطعوا من أَجل الحديث القفار، وركبوا البحار، لبسوا الليل واستفاؤا بالنهار.

كم من حكمة كتبوها، كم من دمعة سكبوها، كم من عرق في الطلب أَذروه، كم من مداد في الدفاتر أَجروه، أَما ساهروا النجوم في الرواية، وكم كدوا الأَذهان في الدراية، أَما أتعبوا القلوب في الرعاية، أَما حثوا النفوس على العناية.

نام الناس على الرياش وناموا على الثرى، وغط الأوباش في النوم وهم ركبوا السرى، واشترى المفلسون الرقاد وهم عافوا الكرى.

ثيابهم من الأسفار ممزقة، جلودهم من حرارة الهواجر محرَّقة، عمائمهم من خصاصة الفقر ملفقة، خفافهم من المشي مخرقة.

أكلوا أوراق الشجر من الجوع، وأدمنوا السهر، وطلقوا الهجوع، وبللوا القراطيس بالمداد والدموع، ركبوا من البحر الثبج، والتحفوا من الليل اللجج، وقنعوا من كل نديم بالسرج.

آه ما أَحسن «حدّثنا» في المسامع، وما أجمل «أخبرنا» في المجامع.

سقوني وقالوا لا تغن ولو سقوا جبال سليمى ما سقيت لغنت

اشتغل الناس بجمع الدرهم والدينار، وبناء الدور وحفر الآبار، وعمارة البساتين وغرس الأشجار، واشتغلوا هم بجمع الآثار، ونقل الأخبار، ومصاحبة أَنفاس المختار.

سهر الناس مع أصوات العيدان، ونغمة القيان، وأَشعار فلان وعلان، وسهروا هم مع سفيان وحماد، ومجاهد وابن الهاد، ساعة مع المتن وساعة مع الإسناد.

إيهٍ أحاديث نعمان وساكنه إن الحديثَ عن الأَحباب أسمار

إيوان أحدهم ظهر البعير، ومجلس أُنسهم وجه الهجير، وطعامهم خبز الشعير، هجروا الخمير والحرير والسرير.

صبروا على أحر من الجمر، وصبَّغوا ثيابهم بالحبر، وصاحبوا الجوع والظمأ والفَقْر.

جزاهم الله عن الأمة خير الجزاء، وعن السُّنةِ أكرم العطاء، وعن الملة دار البقاء.

رحم الله تلك العظام، وأسكنها دار السلام، وأحلها أحسن المقام، بجوار ذي الجلال والإكرام.

وهنيئاً لتلك الوجوه النضرة، وجعلها بالنعيم مسفرة، ضاحكة مستبشرة.

وحشرنا الله معهم في زمرة الأبرار، وصحبة الأخيار، أولئك لهم عقبى الدار.

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا ۝٥﴾

الصبـــــر

الصبر قلعة حصينة لا يقتحمها جيش ولا يدخلها عدو، و**الصبر** جُبّة حصينة لا ينفذها سهم ولا يلجها نبل.

الصبر مجاهدة الإحباط، ومراغمة الفشل، ومنازلـــة الخطوب، **الصبر** قبض على الجمر، وستر للجرح، وكتمان للمصيبة، وتنسم للهواء، **الصبر** زاد لا ينفد، ومعين لا ينضب، وصاحب لا يمل.

لا يعالج خور الطبيعة إلا **بالصبر**، ولا يضمد جرح النفس إلا **بالصبر**، إن **الصبر** مسلاة للهموم، ومسرّة للمغموم، وروح للمنهك، وعزاء للمصاب.

إذا كان معك **الصبر** فلا عليك من عِدَدِ العدو وعتاده، ولا مِنْ ناره وزناده، وتلق الخطوب الكوالح وأَنت ضاحك، وصارع النكبات الدهم وأَنت باسم:

تنكر لي خصمي ولم يدْر أنني أَعــزُّ وأحـداث الـزمـان تهـونُ
فبات يريني الخصم كيف عتوه وبـتُّ أريـه الصبـرَ كيـف يكـونُ

من أضجَّت قلبه الأزمات فدواؤه **الصبر**، ومن أَدمت عينيه النكبات فضمادها **الصبر**. تأتي الكربات ظلمات بعضها فوق بعض عاصفة ناسفة قاصفة فيأتي **الصبر** فيكشحها. يتألف الحساد والشّامتون

على المصاب المنكوب فيطوف عليهم طائف من **الصبر** فإذا هو يلقف ما يأفكون.

يومَ لا قريب يواسي، ولا صديق يعزّى، ولا صاحب يتفجّع، ينوب **الصبر** عن الجميع، ويتكلم بلسان الكل، ويؤدِّي واجب الصحبة والقرابة.

والصبر الجميل لا شكوىٰ فيه فلا يخدش وجه محاسنه اعتراض ولا يلثم تاجه تسخط.

والصبرالجميـــل سكـــون للقضـــاء، واطمئنان للعاقبة، وانتظار للفرج، واحتساب للأجر.

وقد يقعُ الصبرُ ولكن لا يكون جميلاً، فلا يكتم صاحبه شكوىٰ ولا يسر حديثاً، ولا يدع معاتَبة.

الصبر غير الجميل تحمل مع أنين، وتجلد مع تكلّف، وتصبّر بلا تجمّل.

ولكن **الصبر** الجميل هو حمل المصيبة بصمت، وتلقِّي الفاجعة بسكون، وتقبُّل الصدمة برضا.

لا يجد الشامت دليلاً على المصاب يُدانُ به، ولا يرىٰ الحاسد أَثراً للنكبة على المنكوب، فيرقص طَرَباً.

ومما يعين على الصّبر الجميل: اعتقاد فساد الحيلة في دفع القدَر، وصحة العاقبة لمن احتسب وصبرَ، والنظر فيما بقي من الخلف

في النفس والولد والدين والمال، ومشاهدة خيام أَهل البلاء، ومطالعة أدوية المصابين، ففي كل وادٍ بنو سعد وما خلت جيبة من مصيبة، ومع كل فرح ترح، وعند الحبرة عبرة ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ ﴾

ومن شاء أَن يطالع دفتر الخليقة منذ النشأة ليرىٰ النكبات تترىٰ، والمصائب تتساقط، ما بين مقتول ومخذول، ومعزول ومتبول، وما بين صائح ونائح، وطائح وغريق، وحريق وسحيق، دول زالت، ملوك ذلت، قصور هوت، جيوش أبيدت، قرون سلفت، حدائق ذبلت، دور خلت، مهج ذهبت، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨].

قال وزير شهير خطير كبير، عُزِل، ثم صُودِرَ، ثم حوسِبَ، ثُم سُجن، ثم قتل، فلمَّا خرجوا به إلى ساحة الإِعدام، تبسّم ثم أَنشد:

فمـن كـان عنـي سـائلاً بشمـاتـةٍ ... ومن كان عنِّي شامت غير سائلِ

فقد أظهرت مني الخطوب ابن حرة ... صبوراً على أَهوال تلك الزلازلِ

الصبر من الإِيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فمن لا رأسَ له لا جسدَ له، ومن لا صبر له لا إيمان له.

هذا شاعر يفجع بأبناءه السبعة يموتون مرة واحدة فيطعن سبع طعنات نجلاء ولكنّه يراجع الصبر ويثوب إلى الرشد، ويترنّم:

وتجلــدي للشَّــامتيــن أريهــمُ ... أنّـي لـريـبِ الـدهـرِ لا أتضعضعُ

فهو الصمود والإصرار، والإبــاء والتحــدِّي للشامتيــن، وإظهــار

التجمل والسرور بالمقدور، والرضا بالقضاء، والتسليم للعزيز الحكيم.

الطاعة لابد لها من **صبر** لتكون تماماً على الذي أَحسن، **فبالصبر** يحسن أداؤها ويعظم إخلاصها، ويتجلَّى أصدقها، وبعدم **الصبر** تكون جسماً بلا روح، وصورة بلا مضمون، وأَلفاظاً بلا معانٍ.

المعصيةُ لا تُقَاوَمُ إلا **بالصبر** لئلا تضعف النفس، ويخور القلب، وتقع الواقعة.

❁ **فبالصبر** لا تجد المعصية إلى القلب سبيلاً، ولا تقيم على خسّة الطبع دليلاً، بل تعود المعصية من حيث أَتت، فينهزم شيطانُها المريد، ويخسأ إبليسها العنيد، وبعدم **الصبر** تقع النفس في وضر الخطيئة، وتتدنّس الـــروح بأوحـــال الذنـــب، لأَن النفس هزمت في مصاف المحاربة، وأسرت في فيلق المطالبة.

المصيبة لا تواجه إلا **بصبر** لتخفّ الوطأة، وتسهل الرزيّة، إذا عُدِمَ **الصبر** صارت المصيبة مصيبتين، والنكبة نكبتين، وإذا عدم **الصبر** زلزلت النفس زلزالها، وصاح نذير الهلع مالها؟!

وإذا حصل **الصبر** حلَّ الأجر، ونبل الذكر، وانشرح الصدر، ويوم يحضر **الصبر** مع المصيبة، تصبح الخسائر أَرباحاً، والمغارم مغانماً، والأَتراح أَفراحاً.

من أراد الحياة بلا صبر، فقد أرادها على غير طبيعتها، ورءاها على غير صورتها، فهو مستظل بالخيال صاحب أوابد وأَمثال، فرَّ من اليقظة إلى المنام، ومن الحقائق إلى الأَحلام.

من عنده صبر فليدع الناس جانباً فقد حان نصرُه، لأَن النصر مع **الصبر** وقَرُبَ فرجه لأَن الفرجَ مع الكربِ، ودنا يسره لأَنّ مع العسر يسراً.

ورد **الصبر** في القرآن على أضرب: أتى بصيغة الأَمر والمدح له، ومدح الصابرين، وذكر أجرهم عند ربهم، والإِشادة بحسن فعلهم، وذكر سلام الملائكة عليهم، وصلوات الله ورحمته لهم، وعرض أوصافهم، فهم أَهل حظ عظيم، ومهتدون، وفعلهم من عزم الأمور، فهنيئاً لهم.

الصابر يعيش بصبره في نعيم، والجازع يعيش بجزعه في جحيم، سجن الصَّابر جُنَّة، وبليتُه عطيَّة، ومحنته منحة، وفقره غنىً، ومرضُه عافية.

* صبر آدم على مفارقة الوطن الأول من الجنة، وصبر نوح على فقد الولد، وصبر إبراهيم مقام ذبح الابن، وصبر يعقوب على فراق يوسف، وصبر موسىٰ على أَذىٰ الطاغية، وصبر داود على مرارة الندم، وصبر سليمان على فتنة الدنيا، وصبر عيسى على أَلم الفقر، وأَما رسولنا ﷺ فصبر عليها كلها، وعاشها كلها، وذاقها كلها، ففاز بالمقامات كلها، صبر على فراق الوطن، ومراتع الفتوة، وملاعب الصبا، وربوع الشباب، فترك الأَهل والعشيرة، والدار والمال، وصبر على فقد الولد، فسالت أَرواح أبناءه بين يدية، وقعقعت أنفسهم أمام ناظريه.

وصبر على ألم الأذى فأوذي في المنهج والوطن، والسمعة والخُلُق والرسالة والزوجة.

وصبر على شماتة العدو، وتنكر الصديق، وعقوق القريب، ونيل الحاسد، وتشفي الحاقد، وتألب الخصوم، وتكالُبِ الأحزاب، وتكاثر المناوئين، وصولة الباطل، وقلة الناصر، وصبر على شظف العيش، وجفاف الفقر، ومضض الحاجة، وقلة ذات اليد، وجدب النفقة، وعوز المعيشة، وحرارة الجوع، ومرارة الفاقه.

وصبر على غلبة الخصم، وقتل القريب، وأسر الحبيب، وتشريد الأَصحاب، والتنكيل بالاتباع والجراح في البدن، وفزع التهديد والوعيد، وقعقعة الغارات، وأَهوال الغزوات.

وصبر على بطر الأغنياء، وزهو الكبراء، وشراسة الأدعياء، وجلافة الأعراب، وصلف الجهلة، وسوء أدب الجفاة.

وصبر على خيانات اليهود، ومراوغة المنافقين، ومجابهة المشركين، وبطء استجابة المدعوّين.

ثم صبر على فرح الفتح، وسرور الانتصار، وجلبة إقبال الدنيا، وإذعان الملوك، واستسلام الجبابرة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

صبر وهو يرى الكنوز تفرّغ في أوعية الناس فلم يأخذ منها درهماً واحداً.

وصبر وهو يشاهد القناطير المقنطرة من الذهب والفضة يتقاسمها الناس ولم يحمل منها قطميراً.

صبر وهو يحوز قطعان الإبل والبقر والغنم كالآكام، ثم يوزعها على مسلمة الفتح، ولم يظفر بجمل أو بقرة أو شاة وصبر على سكنى بيت الطين، وعلى أكل الشعير، وعلى افتراش الحصير، وعلى ركوب الحمار، وعلى لباس الصوف.

الأَب مات ولم يره، والأُم توفيت ولم تتم رضاعه، والجد فارق الدنيا ولم يحطه برعاية، والعم ذهب وقت النضال، وخديجة ودّعت يوم الحزن، والابن سالت روحه يوم تمام الحب، وعائشة تُرمىٰ ساعة كمال الأنس، وحمزة يُقتل زمن المصاولة.

أَنِسَ بالمدينة فنغَّصَ عليه المنافقون أُنسَه، استبشر بالنصر في بدر فأَسرعته غصة الألم في أُحد، أَزهر وجهه كالقمر ليلة البدر فشجّ بالسِّهام، وتلألأت أَسنانه كالبرد فكسرت ثنيتُه في المعركة، سبقت ناقته الإبل فسبقها أَعرابي على قعود، ليبقى أَجره في الآخرة موفوراً، وسعيُه عند ربِّه مشكوراً، وليلقىٰ وليَّه ومعبوده مسروراً، ليجتمع له الثواب كله، أَوَّله وآخِرُه، قديمه وحديثه، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

واستحق ذلك لأَنه صبر فله الزلفى، وتمام الرفعة، والوسيلة، والفضيلة، والمنازل الجليلة، لأَنه صبر.

وله المقام المحمود، والحوض المورود، واللواء المعقود، لأَنّه صبر.

وله الشفاعة، والخطاب، والقرب، والحضوة، لأنه صبر.

كذبوه، شتموه، سبوه، آذوه، فنزل ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧].

حاربوه، نازلوه، شردوه، طاردوه، قاتلوه، فنزل ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

هجروه، وأعرضوا عنه، وصدُّوا عن سبيله، ووقفوا في طريقه، فنزل: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: ٥].

طال عليه المدىٰ، ترقّب النصر، كثر العدو، تزاحمت النكبات، فنزل: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾. ردَّ عليه قومه أقذع رد، وأفظع جواب، وأبشع خطاب، وأقبح مواجهة، فنزل: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

فصبر ﷺ صبراً جميلاً في كل مقامات العبودية، صبر في رضاه وغضبه، وسلمه وحربه، وغناه وفقره، فصار إمام الصابرين، وقدوة الشّاكرين.

اللهم ثبّتنا على سنته، ووفقنا لسيرته، وانصر بنا دعوته.

العلماء والفقر

غالب علماء الأُمة وأُدباؤها عاشوا حياة الفقر، وقليل منهم من اغتنى، وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته: أَن القائمين بأُمور الدِّين من القضاء، والفُتيا، والتدريس، والإمامة، والخطابة، والأَذان لا تعظم

ثروتهم في الغالب.

وقد ذكرَ الشافعي: أَن منْ طلب العلم بِذُلِّ النفس، وضيّقِ العيش، وخدمة العلماء أَفلح.

وذكر مالك أَنه لا يبلغ أَحد هذا العلم حتى يضر به الفقر، ويؤثره على كل شيء.

وأَشار أَبو حنيفة إِلى حذف العلائق بأَخذ اليسير عند الحاجة.

وقال الآجُرِّي: من طلبَ العلم بالفاقة ورث الفَهم.

وقال النضر بن شميل: لا يجد الرجل لذّة العلم حتى يجوع وينسى جوعه.

وقال ابن حزم للباجي وهو يحاوره: اعذرني، فإِنَّ طلبي للعلم كان على منائر الذهب والفضة، أَراد أَن الغنى أَضيع لطلب العلم من الفقر.

ولمّا طَلَبَ الباجيُّ العلمَ أَجَّر نفسَه حارس درب في بغداد.

وقال أَحمد: **الصبر** على الفقر مرتبة لا ينالها إِلا الأَكابر. والفقر أَشرف من الغنى، فإِن **الصبر** عليه مرارة، وانزعاجه منه أَعظم حالاً من الشكر، ولا أَعدل بفضل الفقر شيئاً.

وكان أَحمد يحب التخفف من الدُّنيا لأَجل الحساب، وذكر البيهقي أَن الشافعي قال: قد أَنست بالفقر حتى لا أَستوحش منه.

وذكر الخطيب عنه أَنه قال: لا يصلح طلب العلم إِلا لمفلس.

وكان أَبو هريرة رضي الله عنه يلزم الرسول ﷺ على شبع بطنه، وربما صرع بين الحجرة والمنبر من الجوع.

وقال أَحدهم:

الجوع يدفع بالرغيف اليابس فعلام أَكثر حسرتي ووساوسي

وقال الشافعي:

أَمطــري لــؤلــؤاً سمــاء ســرنــديــب وفيــضِ آبــار تكــرور تبــرا
أَنــا إِن عشــت لســت أُعــدم قــوتــاً وإِذا مــتُّ لســت أُعــدم قبــرا

وقال آخر:

قلت للفقر: أَين أنت مقيم؟! قـال لـي: فـي عمـائـم الفقهـاء
إِن بينــي وبينهــم لإِخــاء وعــزيــز علــيّ قطــع الإِخــاء

وقال آخر:

إِن الفقيــه هــو الفقيــر وإِنمــا راء الفقيــر تجمعــت أَطــرافهــا

وفي حلية الأولياء أن سفيان الثوري جاع جوعاً شديداً، مكثَ ثلاثة أَيام لم يَأكل شيئاً، فمرَّ بدار فيها عرس فدعته نفسه إِلى أَن يدخل، فعصمه الله، ومضى إِلى منزل ابنته فأَتته بقرص، فأَكله وشرب ماءً فتجشى ثم قال:

سيكفيك عمّا أغلق الباب دونه وضـن بـه الأَقـوام ملـح وحـردق

وفي سِيَر أَعلام النبلاء: أَن الخليل بن أَحمد أَقام في خص له بالبصرة لا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال، وكان

يقول: إنِّي لأُغلق عليّ بابي فما يجاوزه همِّي.

وكان له راتب على سليمان بن حبيب الأزدي فكتب يستدعيه فردّ عليه الخليل بجواب يقول فيه:

أَبلغ سليمان أنِّي عنه في سعة   وفي غنىً غير أَنِّي لستُ ذا مال

فقطع عنه راتبه فقال:

إنَّ الـذي شـقّ فمـي ضـامـن   للـــزرق حتـــى يتـــوفـــانـــي
حـــرمتنـــي خيـــراً قليـــلاً فمـــا   زادك فـــي مـــالـــك حـــرمـــانـــي

فردّ راتبه مضاعفاً، وهذه أَنفه وشمم، وسمو في الهمم لا يقدر عليها إِلاَّ الخليل، العَلَم الجليل.

وفي تاريخ بغداد: أَن شريك بن عبدالله النخعي قال: كنت بالكوفة أَضرب اللبن، وأَشتري دفاتر وطروساً فاكتب فيها العلم والحديث، ثم طلبت الفقه فبلغت فيه ما ترى.

وفي ترتيب المدارك: أَنَّ مالك بن أَنس نقض سقف بيته فباع خشبه في طلب العلم، ثم مالت عليه الدُّنيا بعد.

وفي مناقب أَبي حنيفة للخوارزمي: أَن أَبا يوسف القاضي قال: كنت أَطلب الحديث والفقه، وأَنا مقل رث الحال عند أَبي حنيفة، فلما قصرت بي النفقة قصرت عن كثير من الطلب، فعلم أَبو حنيفة فأَنفق عليَّ حتى بلغت حاجتي من العلم.

وقد ترقى بأَبي يوسف الحال حتى نال غاية الآمال، وصار مفتي

الدولة في عهد الرشيد، برأي سديد، وخلق مجيد، في عيش رغيد.

وفي وفيات الأعيان: أَن النضر بن شميل ترك البصرة لمّا أَصابه الفقر والحاجة، فشيعه ثلاثة آلاف رجل، فقال لهم: يعز عليَّ فراقكم، ولو وجدت كل يوم قليلاً من القوت ما فارقتكم!!

وهذا يدلك على سخف الدُّنيا وحقارتها ونذالتها، فمثل هذا الشهم الفذ العبقري لا يجد منها وجبة فول، ثم تراها تساق إِلى الأراذل الأنذال، فيحوشونها قناطير مقنطرة.

وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي: أَن النضر بن شميل دخل على المأمون بثياب ممزقة، فقال: ما هذا؟ قال: يا أَمير المؤمنين، أَتبرد بها في حر مرو، فقال له: لا، ولكنك رجل متقشف.

وفي كتاب الانتقاء لابن عبدالبر: أَن الشافعي قال: لم يكن لي مال، وكنت أَطلب العلم في الحداثة، وكنت أَذهب إِلى الديوان، استوهب الأَوراق لأكتب عليها، وفي «مناقب الشافعي» أَنّه قال: كنت أَلتقط الخزف وأَكتاف الجمال فاكتب فيها الحديث، حتى ملأت جرة كبيرة كانت لأُمي.

هذه هي البداية المحرقة لهذا الإمام، لتصعد به همته ونفسه الوثابة وذاكرته الخلابة ليكون إنسان عين الدُّنيا في عهده وواسطة العقد في عصره.

وفي جامع بيان العلم وفضله: أَن أُم الشافعي رهنت رداءها بستة عشر ديناراً ليذهب بالدنانير إِلى اليمن. فجزاها الله من أُم بارة،

وهنيئاً له من ابن مبارك، جلب لأُمته مجداً حافلاً من الريادة، وساق للأَجيال ميراثاً كثيراً طيباً مباركاً فيه مِن العلم والصلاح، وخلف للعالم إبداعاً علمياً راقياً، وإنتاجاً صادقاً سامقاً، وابتكاراً في الفهم تتجمل به المحافل، وتزهو به المجالس:

أَنت الذي بجح الزمان بذكره   وتــزينــت بحــديثــك الأَســرار

وفي «مروج الذهب»: أَن الواقدي قال: افتقرت في طلب العلم حتى بعت برذوني، فسمع بذلك يحيى بن خالد البرمكي فأَمر لي بخمسمائة دينار، فجاءني رجل من ذرية أَبي بكر الصدِّيق فدفعتها إِليه، ولم أَشتر برذوناً، ولم أَقضِ غرضاً، فسمع البرمكي فسأَلني فأَخبرته، فسأَل البكري فقال: نعم. أَخذتها من الواقدي، فجاء يحيى بن سعيد الأَنصاري فسأَلني فأَعطيته، فأَعطى يحىٰ بن خالد الواقديَّ أَلفَ دينار، والبكريَّ أَلفَ دينار، والأنصاريَّ أَلفَ دينار.

قلت: لله دَرُّ هذه السجايا العظيمة، والأَخلاق الكريمة، والنفوس الراضية، والقلوب الكبيرة، وشكر الله ليحيى بن خالد البرمكي جوده وتفضله:

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها   فكـانـت قـذى عينيـه حتى تحلت
هنيئـاً لـه هـذا الثنـاء فـإِنـه   أَعز من الشعرى إذا ما استقلت

وفي كتاب «الأَنساب للسمعاني»: أَن أَبا دلف الأَمير زار قبيصة بن عقبة المحدث، ومعه الخدم والغلمان لكتابة الحديث، فطرق عليه الباب، وصاح الخادم: الأَمير بالباب، فخرج قبيصة، وفي طرف إِزاره كسر من الخبز وقال لهم: رجل قد رضي عن الدنيا بهذا

ماذا يصنع بأَبي دلف، والله لا أُحدِّثه. اهـ. فيالها من عزة نفس، وعفة روح، إِنَّه تنزيه للعلم عن التبذل، وصون للعرض عن الدنيا، وحفظ للجاه من الإِسفاف.

يقولون لي فيك انقباض وإِنّما رأوا رجلاً عن موقف الذل أَحجما
إِذا قيل هذا مورد قلت قد أَرى ولكنَّ نفسَ الحرِ تحتمل الظما

وفي «مناقب الإمام أَحمد» لابن الجوزي: أَن عفَّانَ بن مسلم المحدِّث رفض أَن يجيب في محنة القول بخلق القرآن، فقالوا له: يحبس عطاؤك، وكان في كل شهر أَلف درهم، فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢].

وكان في داره نحو أَربعين نفساً، فدقّ عليه رجل الباب وأَعطاه كيساً فيه أَلف درهم، وقال: هذا لك كل شهر وثبتك الله كما ثبت الدين.

فسبحان من أَغناهم وقت الأزمات، لما أَكرموا العلم وصانوه وأَجلوه ورفعوه:

ولا أسر بما غيري السعيد به ولو حملت إِليّ الدهر ملأنَا

وفي «تهذيب التهذيب»: أَن يحيى بن معين ـ إمام الأَئمة في الجرح والتعديل ـ ورث من أَبيه أَلف أَلف درهم وخمسين أَلف درهم، فأَنفقها كلها في طلب الحديث، حتى لم يبق له نعل يلبسه.

فهل بعد هذا السخاء على العلم وبذل المال في التحصيل سخاء أَو بذل، وهل هذه النفوس الكبار إِلاَّ منارات هدى، استقبلت وحي

السماء مع إطلال فجر الهدى فأَخذت ترسل نورها في العالمين سجاياً حميدة، وأَخلاقاً فريدة، ومثلاً عليًّا:

هم القوم إن قالوا أَطابوا وإن دعوا أَجابوا وإن أَعطوا أطابوا وأَجزلوا

ولا يستطيع الفاعلون كفعلهم وإن حاولوا في النائبات وأَجملوا

وفي «طبقات المعتزلة» للقاضي عبدالجبار: أَن جعفر بن مبشر الثقفي العالم الورع رد خمسمائة دينار، أَعطاه إيّاها تاجر من التجار، لأَنه أَعجب بوعظه، وقال: لا آخذ على دعائي إلى الله وموعظتي ثمناً، وكان في فقر شديد ا. هـ إنه سمو النفس، وإصرارها على المرتبة العليا، وعدم تنازلها عن الريادة العلميــة، والقــدوة الدعوية، والنصب المثالي:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بآباءهم أَو مجدهم قعدوا

وفي« تذكرة الحفاظ» أَن الأَمير طاهر بن عبدالله الخزاعي بعث إلى الحافظ المحدِّث القدوة شيخ البخاري محمد بن رافع النيسابوري بخمسة آلاف درهم، فجاء بها الخادم، والشيخ يأكل الخبز مع الفجل، فوضع الكيس بين يديه، فقال له محمد بن رافع: خذ خذ لا أَحتاج إليها، فإن الشمس قد بلغت راس الحيطان، إنّما تغرب بعد ساعة، فقد جاوزت الثمانين إلى متى أَعيش؟! فرد المال ولم يقبله، وابنه يصيح: يا أَبتاه ليس لنا خبز هذه الليلة. ا. هـ.

رحم الله تلك العظام، وأَفرغ عليها شآبيب الرضوان، وسَحَّ عليها سحائب المغفرة، أَي قلوب كانت، أَي ضمائر سمت، أَي همم علت:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

أَقلـــوا عليهـــم لا أَبا لأَبيكـــم من اللوم أَو سدوا المكان الذي سدوا

لقد ظهرت عليهم بركات الحديث، وسطعت على محياهم أنوار الهداية، وفاح من نفوسهم عبير الإيمان.

وفي «معجم الأُدباء»: أَن يهودياً جاء أبا عثمان المازني النحوي بمائة دينار ليقرأ عليه الكتاب لسيبويه فامتنع وكان في غاية الحاجة والفقر، فقيل له: لم رددته؟ قال: لأَن في الكتاب أَكثر من ثلاثمائة آية من كتاب الله عز وجل، ولست أَمكن هذا اليهودي منها، غيرةً على كتاب الله وحمية له. اهـ. أَثابك الله أَيها الجهبذ الأَمين، وشرَّف الله قدرك كما شرفت قدر كتابه، وأَكرم نزلك لما أَكرمت كلامه: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٢].

لولا لطائف صنع الله ما نبتت تلك المكارم في عظم ولا عصب

ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

لقد دعا الخليفة الواثقُ المازنيَّ ليصحح له بيت شعر فأَعطاه أَلف دينار، فقال: رددنا لله مائة فعوضنا أَلفاً. أهـ. هكذا طاب ذكرهم، وهكذا انتشر الثناء عليهم وهكذا حسن المديح فيهم.

وقـد أَطـال ثنـائي طـول لابسـه إِن الثنـاء علـى التنبـال تنبـال

من أراد أَن يكتب تاريخه كتبه بنفسه، بدموعه، بدمه، بجهده، بسهره، وتعبه، بآلامه ومعاناته، وكل امرىءٍ خصيم نفسه، ومن أَحسن فنلفسه ومن أَساء فعليها.

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما قاته وفضول العيش إشغال

قراءة في المحنة

لن يصيبنا إلاَّ ما كتب الله لنا، ولله الخيار فيما قضى، وإن مع العُسْر يُسرا، واصبر وما صبرك إلاَّ بالله، أَمَّن يُجيب المضطر إذا دعاه، حسبنا الله ونعم الوكيل.

هذه الكليات الشرعية السالفة، معتقد للمؤمنين بربِّهم، إذا أَصابتهم المصائب، وداهمتهم الشدائد، فهم يعلمون أَنَّ ما حصل قد كُتِبَ من قبل، فليس هناك إلاَّ التسليم وأَن الخيرة لله، فليس معهم إلاَّ الثقة بحسن اختياره، وأَن اليسر سوف يعقب العسر، فهم على بوابة الانتظار، وأَن أَعظم علاج لهم في المحنة هو **الصبر**، فهم في عيادته يتداوون، وأَن الله يجيب الدّاعي، فأكفهم مرفوعة إليه، وأَنه يكفي عمَّن سواه، فهم يتوكلون عليه جل في علاه، علاج المصيبة حسن ظن لا يغلبه يأس، وثقة لا يغلبها قنوط، وصبر لا يهزمه جزع، وتفاؤل لا يعرض إليه إحباط، وتسليم لا يخامره اعتراض.

المصيبة تهون عند تذكر أَجرها، وتلمح عاقبتها، وانتظار زوالها، وتوقع الخلف منها، والتأسِّي بالمصابين، والعزاء بما بقي من دين، والسلوة لأنها من رب العالمين.

والمصيبة مطرقة تسحق فرعون النفس، وسيف يذبح نمرود الكبر، ونار تحرق حطب الشهوات، وليموت بلهبها أبو لهب العجب.

المحنة سبع، والسبع لا يأكل الميتة، وتاج لا يلبسه الخدم، وسيف لا يحمله الجبناء، ومنبر لا يصعده أهل العي والحصر.

أَحقّ الناس بالفوز من عانىٰ في السير، وأَجدرهم بالأمن من هانت عليه الشدائد، وأَحظاهم بالزلفىٰ من تجرّع الغصص، وأَسعدهم بالقبول من صبر على قرع الباب.

لكل شيء ثمن، وثمن الدر مشقة الغوص إلىٰ القعر، ولكل شيء قيمة، وقيمة النصر تلقِّي الجراحات، ومعركة الحياة؛ ولكل محبوب ضريبة، وضريبة النجاح دمع حار، ودم فائر، وجفن مسهَّد، وجسم مجهد، وقلب مفجوع.

المحنة عمرها أَقصر من النعمة، وأَجرها أَكبر من العافية، وتجربتها أَعظم من الحياة، ونفعها أَجل من السلامة، المحنة معها الاعتبار، والتذكُّر واليقظة، ومعها الرصيد والثناء والتاريخ.

القراءة القراءة

أَول كلمة في الوحي: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾ [العلق: ١]. وخير جليس في الأنام: (كتاب)، أَعظم لذّة تصفح عقول الرجال، من خدمته المحابر حملته المنابر، من صاحب الصحف حاز الشرف، ما نظر رجل في كتاب إلاَّ خرج بفائدة، الغنيمة الرابحة قطف الحكمة من الصحف، انسخ حروف العلم في أَلواح قلبك، واكتب سطور الإفادة

على صحيفة روحك، واكتحل بكلمات المعرفة لترىٰ ملكوت السموات والأَرض، يوم تخلو بالكتاب تطوى لك الأزمان، وتطل عليك الدُّهور، وتناجيك العِبَر، وتشجيك العظات، وتصقلك التجارب، وتدهشك العجائب، احلب در العلم من ثدي الأَسفار، فإن في الدفاتر مملكة الأَفكار، صاحب الكتب مع كتبه أَغنى من قارون الكنوز، وأَعز من نعمان الكتائب، وأَحسن حالاً من البرامكة، مصاحب القرطاس أَطيب عيشاً من نديم الكأس، ومدارس الآثار أَعظم من المنصت لنغمة الأوتار، مصاحبة الكتاب يصونك من تيه الملوك، ويحميك من صلف الجبابرة، ويحوطك من سطوة الظلمة، ويحفظك من لوم الحاسد، وتشفي الشامت، ورؤية الثقيل، ومنة البخيل، وكدر الغبي، ومئونة المغتاب، وطيش السفيه، أَكثر من فلي الكتب، ودوام تفتيش الصحف، وصابر مسامرة المصنفات، ما قيمة الزمن بلا مطالعة؟! ما فائدة العمر بلا قراءة؟! كيف يحلو العيش بلا كتاب؟! ذهبت الدول، ونسي الملوك، وتعطلت الأسواق، ودرست المنازل، وتهدَّمت القصور، وبادت الحدائق، وفنيت الأَموال، وهلك الرجال، ولكن خلدت الحكمة في الكتب، وبقيت المعرفة في الصحف، وقر العلم في المؤلفات، ودامت تركة المعرفة.

«إنَّ الأَنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنّما ورثوا العلم، فمن أَخذه أَخذ بحظ وافر»:

أعز مكان في الدنى سرج سابح ... وخير جليس في الأنام كتاب

وكذلك جعلناكم أمة وسطا

العدل مطلب عقلي وشرعي، لا غلو ولا جفاء، لا إفراط ولا تفريط، ومن أراد السعادة فعليه أَن يضبط عواطفه، واندفعاته، وليكن عادلاً في رضاه وغضبه وسروره وحزنه؛ لأَن الشطط والمبالغة في التعامل مع الأَحداث ظلمٌ للنفس، وما أَحسن الوسطيّة، فإنَّ الشرع نزلَ بالميزان، والحياة قامت على القسط، ومن أَتعب الناس من طاوع هواه، واستسلم لعواطفه وميولاته، حينها تتضخّم عنده الحوادِث، وتُظلِم لديه الزوايا، وتقومُ في قلبه معارك ضارية من الأَحقاد، والدخائل، والضغائن، لأَنه يعيشُ في أَوهام وخيالات، حتى إنّ بعضهم يتصوّر أَن الجميع ضده، وأَن الآخرين يحبكون مؤامرة لإبادته، وتملي عليه وساوسه أَن الدُّنيا له بالمرصاد، فلذلك يعيش في سحب سود من الخوف والهمّ والغم.

إن الإرجاف ممنوع شرعاً رخيص طبعاً، وما يمارسه إلاَّ أُناس مفلسون من القيم الحيَّة والمبادئ الربّانيَّة ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

أَجلِسْ قلبك على كرسيّه، فأَكثر ما يخاف لا يكون، ولك قبل وقوع ما تخاف وقوعه أَن تقدِّر أَسوأ الاحتمالات، ثم توطِّن نفسك على تقبُّل هذا الأسوأ، حينها تنجو من التكهنات الجائرة، التي تمزّق القلب قبل أَن يقع الحدث فيبقى كقول الأَوّل :

كـأَنَّ قطـاة علقـت بجنـاحهـا   علـى كبـدي مـن شـدة الخفقـانِ

فيا أيُّها العاقل النَّابِه: اعطِ كل شيء حجمه، ولا تضخم الأَحداث والمواقف والقضايا، بل اقتصد واعدل، ولا تَجُرْ، ولا تذهب مع الوهم الزائف، والسراب الخادع.

اسمع ميزان الحب والبغض في الحديث: «**أحبب حبيبك هوناً ما فعسىٰ أَن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما فعسىٰ أَن يكون حبيبك يوماً ما**» ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [الممتحنة: ٧].

إِنَّ كثيراً من التخويفات والأَراجيف لا حقيقة لها، وقديماً قالوا:

وقلـت لقلبـي إِن نـزا بـك نـزوة   من الهمِّ أَهدأ أَكثر الروع باطلهُ

الاهتمام بالنص

حق على كل من يحترم عقله من المنتسبين إِلى الشريعة، والمنتمين إِلىٰ الملة أَن يهتموا بالنص الشرعي من الكتاب والسنة أَكثر من اهتمامهم بالشروح والتعليقات والحواشي والردود، والتي زادها الناس على النص، فالنص وحده مباشر هو الذي يقذف الله به نور الإِيمان في القلب، وبركة الفهم في الذهن، وضياء الحكمة في البصيرة، والنص وحده هو المقصود بالتفهم والتدبُّر والدراسة.

وما أُشَبِّهُ الذين لووا أَعناق النصوص عن مقاصدها بكلامهم

وشروحهم إلاَّ كمن أَخرج درة نفيسة من عمق البحر ثم أَكثر من لمسها وتقليبها حتى أَذهبَ بريقها، وأَخفى لموعها.

إن أَصفىٰ شيء من النهر ما أُخذ من عند مصبه مباشرة، وكذلك النص أَنفع شيء فيه قراءته هو قرآناً وسنة مباشرة، والمران على تفهمه وتدبُّره ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ ﴾ [النساء: ٨٢]. وإن أَعذب شيء من الغيث ما كان منه قبل وصوله الأَرض، واختلاطه بالتراب، وكذلك النص الشرعي آية وحديثاً أَعذب شيء منه ما أَخذت البصيرة منه بلا واسطة من شارح ومعلق ومذيل، وإن ما تراه من أَكوام هائلة من الشروح إنّما طرأت في عصور الوهن، وشحوب القرائح، وجمود الأَذهان، وركود الخواطر، وفتور الهمم وسقوط العزائم، وإلاَّ فإن عصر الصحابة لم يكن إلاَّ عصر نص يفهم على سياق اللغة، ويؤخذ على ظاهر الخطاب، فهل كان عند الصحابة هذه التفاسير التي بلغت المئآت؟! وشروح الأَحاديث التي فاقت الحصر؟! مع مصنفات في الوسائل في أُصول فقه، وعلوم قرآن، ومصطلح حديث، ولو كانت هذه لدى الصحابة لصرفتهم عن متعة العيش مع النصوص المباركة من الآيات والأَحاديث، ولسلبت عليهم شطراً من أَذهانهم في الوقوف على كلام الناس، وتعليق الناس، وشرح الناس.

إن أَحسن ما في حياة الصحابة هذا التفرغ الجاد للوحي، وهذا الانكباب العجيب على النص، وهذا التلهف الحار على الخطاب الشرعي مباشرة، وإن من أَزكى أعمال الصحابة تنقيب بصائرهم في مناجم النصوص الشرعية من الكتاب والسنة دون عائق من تقليد، أو

حائل من كلام متكلف، أَو صارف من شبهة ذي هوى.

لقد قل كلام الصحابة فكثر علمهم، وغزر فهمهم، وعظمت معرفتهم، لأَنهم وقعوا على قلب الحقيقة، وأَمسكوا برأس الحبل، ولزموا وسط الجادة، علموا أنَّ القرآن بيِّن واضح جلي، مشرق معجز، فوقفوا خاشعين لبلاغته، وسجدت بصائرهم في محراب البيان لفصاحته، فاهتدوا بهداه، واستضاؤا بنوره، وعلموا أَن السُّنة كلام أَفصح من تكلم، وحديث أَبلغ من تحدَّث، فأَخذوا دلالتها دون زيادة ولا نقصان، فالقرآن فصيح مشرق معجز، حتى يأَتيك متحذلق متكلف ليملأ الصحف بشروحه وكلامه على القرآن، فيكاد يغطي بجلباب كلامه على نور القرآن، ليذهب بروعته وجماله وقوة أَثره، وما أَفصح المسلم ساكتاً في محراب التفقُّه في النص الشرعي يتصيد بقلبه مقاصد الخطاب، ويلقط بفهمه درر الإِعجاز، لكن قوماً همهم الكلام والشرح والتعليق والزيادة، حتى أَذهلهم هذا العناء عن روعة البيان الزاهي الخلاّب للنص الشرعي.

إن غالب النصوص الشرعية تقدِّم نفسها للناس في يُسر وسهولة وإِشراق، وإِنَّ جُل الكتاب والسنة خطاب مبين لا يحتاج إِلىٰ شرح من أَلكن أَصابه داءُ التبلد، فظنَّ الناسَ مثله، وعنده مرضُ التخلفِ الذهني فحَسِبَ الناسَ كحاله.

إنّ الآية معجزة مؤثرة معتبرة أَخّاذة نافذة، حتى يأتينا متكلم ماتدربَ على فهم الإِعجاز، ولا تمرن على معايشه الوحي ليخبرنا هو بمراد الآية دون أثارة من علم أَو نقل عن سلف صالح.

إنني أَقف مشدوهاً أَمام البنيان المرصوص من هذه التفاسير فأُطالع أَكثرها فلا تزيدني إلاَّ شروداً في الذهن، وانغلاقاً في الفهم، ثم أَعود إلى المصحف مباشرة فإذا المعنىٰ المقصود يلقى في الروع من أَول نظرة، وإذا الكلام يفسر نفسه في صفاء وسناء وجمال ووضوح بيان.

جــدد حياتــك

نوِّع ثقافتك، شكِّل مواهبك، غاير بين حالتك في المعيشة، لأَن الرتابة مملة، والاستمرار سأَم، ولذلك تنوعت العبادات من صلاة وصيام، وزكاة وحج، وتنوعت الصلاة من قيام وقعود وركوع وسجود.

الزمن يتجدد: ليل ونهار، وصيف وشتاء، حر وبرد، مطر وصحو.

المكان يتجدد: جبل وسهل، رابية وهضبة، غابة وصحراء، نهر وغدير.

الأَلوان تتجدد: أَبيض وأَسود، أحمر وأَصفر، أَخضر وأَزرق.

الحياة تتجدد: فرح وحزن، محنة ومنحة، ولادة وموت، غنى وفقر، سلم وحرب، رخاء وشدة.

كان المأمون ينتقل في بيته وهو يقرأ، وأَنشد قول أَبي العتاهية:

لا يصلح النفس ما دامت مدثرة إلاَّ التنقل من حال إلىٰ حال

اجعل وقتاً للتلاوة، ووقتاً للتفكُّر، وثالثاً للذكر، ورابعاً للمحاسبة، وخامساً للمطالعة، وسادساً للنزهة، وهكذا وزِّع العمر فيما ينفع.

النفس نفورة، والطبيعة متقلبة، والمزاج يتضجر، فحاول أَن تكون مسافراً خرّيتاً، وتاجراً صيرفياً، تأخذ من كل شيء أَحسنه، ومن كل فن أَجمله.

إِنّ كدّ النفس على طريقة واحدة، ونسج واحد، قتل لإِشراقها وأَشواقها، وإِن أَخذ الطبيعة بالصرامة المفرطة والجد الصارم انتحار لها.

ولكن ساعة وساعة، إِن هناك بدائل من أَعمال الخير، وأُصول الفضائل، وسنن الهدي، يمكن للعبد أَن ينتقل بين حقولها، ويراوح بين جداولها.

ما أَحسن الحديقة يوم تضم أَشكال الزهور، وأَنواع الفواكه، وسائر الأَذواق والطعوم، وكذلك حالات النفس وأَطوارها، لابد أَن يكون عندها من سعة الأفق، ورحابة المعرفة، ووسائل الحياة، وصنوف الهيئات المباحة ما يسعدها.

وإِن كبت النفس في مسارات ضيقة، ورتابة باهتة، ما أَنزل الله به من سلطان، يجعل النفس ذاوية منهكة محطمة: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

والأجدر بالعبد أَن يضرب في كل غنيمة من أَعمال الخير والبر بسهم:

يـومـاً يمـان إذا لاقيـت ذا يمـنٍ　　وإن لقيـت معـديـاً فعـدنـانـي

أَسباب الحياة السعيدة

١ ـ الهدى والإيمان، والاستقامة على أَمر الرحمن، ومخالفة الهوى والشيطان، ومجانبة الكفر والفسوق والعصيان.

٢ ـ العلم النافع فإنه يشرح الصدر، ويعظم الأَجر، ويرفع الذكر، ويحط الوزر، وهو من أَعظم الذخر، وبركته العمل به في التصديق والنهي والأَمر.

٣ ـ كثرة الاستغفار والتوبة من الذنوب، وإدمان قرع باب علام الغيوب، وسؤاله الفتح على القلوب، فإنّه التواب على من يتوب.

٤ ـ دوام ذكره على كل حال، في الحل والترحال، والثبات والانتقال، واللهج بياذا الجلال، مع موافقة القلب للسان عند نطق هذه الأَقوال.

٥ ـ الإحسان إلى العباد، ونفع الحاضر والباد، وتفقد الفقراء، وأَهل البؤس والإجهاد، وقضاء حوائجهم بالإمداد، وإدخال الفرح عليهم والأسعاد.

٦ ـ شجاعة القلب في الأزمات، وثباته في الملمات، وقوته عند الكربات، وعدم انزعاجه للواردات، ومجانبة قلقه في المصيبات.

٧ ـ تصفية القلب من الأحقاد، وتطهيره من الفساد، كالغل وحسد الحسّاد، وترك الانتقام من العباد، والحلم على أهل العناد.

٨ ـ اطِّراح فضول النظر والكلام، والخلطة والمنام، والتوسط في الأُمور على الدوام، ومجانبة الإِسراف والتبذير في كل أمر هام.

٩ ـ محاربة الفراغ، والقناعة من الدُّنيا بالبلاغ، وعدم الروغان مع من راغ، ومجافاة كل طاغ وباغ.

١٠ ـ العيش في حدود اليوم الحاضر، ونسيان أمس الدابر، وعدم الاشتغال بالغد لأَنّه في حكم المسافر، فأَمس ميت، واليوم مولود، وغداً للناظر.

١١ ـ النظر إلى من هو دونك في المواهب، من الصحة والعلم والمكاسب، وكيف أَنك فوقهم بفضل الواهب، وأَن عندك ما ليس عندهم من المطالب.

١٢ ـ نسيان ما مضى من الأكدار، والغفلة عما سبق من الأخطار، وتجاهل ما سبق في الزمان وصار، فلا تفكر فيه ما تعاقب الليل والنهار، فهو كالزجاجة التي أصابها الانكسار.

١٣ ـ وإن حصلت نكبة فقدر أَسوأ ما يكون، ثم وطن نفسك على احتمالها في سكون، واجعل التوكل على الله والركون، فإِنّه كفاك ما كان وسيكفيك ما يكون.

١٤ ـ ترك التوقع للأَزمة، ولا تكن فيما يخاف منه في غمّة، فمن صدق مع ربه كفاه ما أَهمه، وما تدري لعلَّ هذا اليوم لا تتمه.

١٥ ـ واعلم أَن الحياة قصيرة، فلا تقصرها بالأَفكار الخطيرة، والهموم

المثيرة، والأَحزان الكثيرة، فإِن الحياة حياة الفرح والسرور ولله الخيرة.

١٦ ـ وإِنْ أَصابك مكروه فقارن بين ما بقي وما فات، لتجد أَنّك في نعم وخيرات، وأَنّه بقيت لك مسرات، وأَن ما عندك يزيد على ما فقدته مرات.

١٧ ـ ولا تخف من كلام الحسّاد، ولو كان غاية في الخبث والفساد، فما يُحْسَدُ إِلاَّ من ساد، وليس عليك ضرر، إِنّما الضرر على أُولئك الأَوغاد، وسيكفيكهم الله إن الله بصير بالعباد.

١٨ ـ واجعل أَفكارك فيما يفيد، واجعل نصب عينيك كل أَمر حميد. وإِن حسنت أَفكارك فأَنت سعيد، لأَنك من صنعها كما يصنع الحديد.

١٩ ـ ولا تؤخِّر عمل اليوم إلى غد، فتتراكم عليك الأَعمال وتجهد، فلكل يوم عمل محدد، فكن مع كل يوم مولود أَمجد.

٢٠ ـ وابدأ بالأعمال بالأَهم، وجوده حتى يتم، وعليك بالكيف لا بالكم، واستخر الله قبل أن تهم، فإِنّ العناية ثَمَّ.

٢١ ـ وتخيّر من الأَعمال ما يناسبك، وصاحب من على التقوىٰ يصاحبك، فإِنّ صاحبك ساحبك، واعلم أَن هناك رقيباً يحاسبك.

٢٢ ـ وتحدّث بالنعم الباطنة والظاهرة، والمواهب الباهرة، فإِنّ التحدّث بها يطرد الهموم القاهرة، ويعيد السعادة النافرة.

٢٣ ـ وعامل الزوجة والولد والأَقارب برؤية المناقب، ونسيان

المثالب، فما من أَحد إلا فيه معائب، ولو تركت كل ذي عيب ما وجدت من تصاحب، يطيب جانب ويسوء جانب.

٢٤ ـ وعليك بكثرة الدُّعاء، والفأل وحسن الرجاء، ولا تيأس مهما عظم البلاء، واشتــدت الظلمـــاء، وكثر الأعداء، فإِنَّ الأَمر بيد رب الأَرض والسماء.

٢٥ ـ ولا تخف من الثقلين، ولو ملأوا الخافقين، فإنّهم لن يضرونك إلاَّ بإِذن رب العالمين، فنواصيهم في قبضته وهو ذو الكيد المتين.

٢٦ ـ وكل شيء بقضاء وقدر، فاصبر عند نزول المصاب أو فذر، فكل شيء في أُم الكتاب مسطر، وإذا وقع القضاء حار الفكر، وعمي البصر.

٢٧ ـ ورب مكروه عندك نعمة، نجاك الله به من نقمة، وأَحلك به صهوة القمة، فلا تكره ما قدّره الله وأَتمه.

٢٨ ـ وتأَسّىٰ بالمصابين، ففي العالم آلاف المنكوبين، والناس بالكوارث مطلوبين، ومن النعم مسلوبين، وبالأَقدار مغلوبين.

٢٩ ـ وكل هذا الخلق يشكو دهره، ويبكي عصره، ويندب أَمره، وقد أَنهى بالهم عمره، فاعلم أَن مع كل تمرة جمرة.

٣٠ ـ واعلم أَن اليسر مع العسر، ومع **الصبر** النصر، وأَن الغنى بعد الفقر، والعافية بعد الضر، والدهر حلو ومر.

٣١ ـ وعليك **بالصبر** الجميل، وتفويض الأَمر إِلى الجليل، والرضا بالقليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

٣٢ ـ واعلم أَن فضول العيش أَشغال، وكثرة المال أَغلال، وإقبال الدنيا هموم وأَثقال، وأَن خير النعيم راحة البال.

٣٣ ـ وكوز ماء ورغيف، على بساط نظيف، مع كتاب شريف، أَفضل من ملك صنعاء إلى القطيف، وأَهنأ من سكنى القصر المنيف، وأَين الملوك والدول يا لطيف.

٣٤ ـ ومن وقع في عرضك وفجر، وأَسمعك ما يوجب الضجر، فتجاهله ولا تجبه حتى يندحر، والكلب لا يملأ فمه إلاَّ الحجر.

٣٥ ـ وما رأيت مثل العزلة، يملك فيها العبد دينه وعقله، ويرتاح من كل سفيه وأَبله، فإن أَكثر الناس لا يساوي بقلة، فالزم بيتك فلن تجد مثله.

٣٦ ـ ولا يعجبك إقبال الناس إليك، فإنهم مع الدهر عليك، وما أَتوا إلاَّ لمرادهم فيك، وما مضى من التجارب يكفيك.

٣٧ ـ والبس الملابس البيض النقيّة، وعليك بالروائح الزكيّة، ومارس الرياضة البدنية، وقلل من شرب المنبهات الرديّة، وادمن الأوراد الشرعية.

٣٨ ـ وردد دعوة ذي النون، وأَكثر ذكر المنون، وهوِّن الأَمر يهون، ولا ترضىٰ في الدِّين الدنية، وارض من الدنيا بالدون، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون.

مع أبي بكر الصدِّيق

عتيقٌ في الجاهلية، صديقٌ في الإسلام، حاضرٌ في المغارم، غائبٌ في المغانم.

أَحبَّ صاحبَ الدّعوة، فقاسمه الخوفَ والعناءَ والمشقة، وشاطره الهمَّ والمعاناةَ واللوعة.

مناقبهُ خصائصُ تمنعُ الاشتراك، وخصائصهُ أَكاليلُ لا تقبلُ غيرهَ.

ضاقت الدُّنيا به، فدخل الغارَ مع صاحبه، والله يقول: ﴿فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦]خشيَ على صاحبهِ من العقرب فسدَّ الثقبَ بأَصبعه، لُدِغَ فما أَنَّ، فقال له صاحبه: تأَنَّ، خاف على المختارِ، في الغارِ، من الكفّارِ، فصاح من شدة العَنا، أَفديك أَنا، فنودي: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

هو مثل الخليلِ إبراهيم، وحّد الرحمن، وحطم الأوثان، وأَكرم الضيفان، فبأَي آلاء ربكما تكذبان.

سارت بذكرك في المواطن أَنفس وسمت لنوركِ في المنازل أَعينُ

أَبو بكر هو الأَول في الإِسلامِ والهجرةِ والجهادِ، إِلى الله سبقْ، وبشرعه نطقْ، وفي القول صدق، فلا تركبن في سيرته طبقاً عن طبق.

زوج ابنتهَ الإِمام، واشترى المؤذن، وبنى المسجد، فنال جائزة:

(ولسوف يرضى).

أَخليفـةَ الـرحمـن دهـرُك قـالهـا وسـواكَ يـا صـدِّيقهـا مـا نـالَهـا

مع الصدِّيق إداوة يسقي بها الصاحب، وسيفٌ ينافح به عنه، ولسانٌ يدعو إليه، وقلب يحبُّه، وعين تبكي لحديثه، وحفنة تطعم ضيوفه.

فبشّرت آمالي بشخص هو الورى ودار هي الدُّنيا ويوم هو الدَّهرُ

أَبو بكر قيل له: نُبىءَ صاحبُك، قال: صدَق.

قالوا: ونزل عليه جبريل، قال: صدق.

قالوا: وأخبرنا أنه أُسريَ به، قال: صدق.

قالوا: وذَكر أنه عُرِجَ به، قال: صدق.

فقيل له: أنتَ الصديقُ حياً وميتاً، لقبٌ يبقى لك مجرداً ومضافاً، نكرةً ومعرفةً، مفرداً وجمعاً.

أَبو بكر والشدو الجميل بك ابتكرْ وذكراك قد طافت على البدو والحضرْ
هُمامٌ كأَنَّ الشمسَ أَصغَت لفضلِه وحنّت له الجوزاء وشيّعه القمرْ
ولمّا رأَى المجدَ استعيرتْ ثيابهُ تردَّى رداءً واسع الجيبِ واتزرْ
تفرّد في العلياءِ عن كل فاضلٍ منـاقبـه زانـتْ ربيعـةَ أَو مضـرْ

آمنتُ بالله الذي جعل الصدِّيقَ في الإيمانِ آية للسائلين، إن حانت الصلاة فهو في الصف الأَول من القانتين، وإن تلا غلبه البكاء وابيضت عيناه من الحزن خشية لرب العالمين. وإذا ادلهمّ الخطب عرّض روحهَ للمنايا وقدّم رأسَه لسيوف المقاتلين.

لا يكفيه أَن يُدعى للجنةِ من باب، بل من الأَبواب الثمانيه، ولم يسعه أَن يعتنق الإسلام في مكة سراً بل علانيه، دخلَ مع الصاحب في الغار، وخرجَ معه للهجرة، وبات معه في بدر، ولزمه في حنين، وسافر معه إلى تبوك، وحج معه، وناب عنه في الإمامة، وقام مكانه في الخلافة.

لمّا مات الصاحبُ سال دمعهُ سريعاً ساخناً صادقاً، فلما ارتد بعضُهم عن الإسلام جفّ دمعهُ، وصَلُبَ عودُه، واشتد ساعدُه، ولعلع سيفهُ، وزمجر صوتُه، فردَّ من شرد، وأَقام من قعد، وأَدخل بالسيفِ في قلوب الناكثين ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فكان لسانُ الحالِ في الأَزمات يحييه: اثبت أَحد.

قال المارقونَ لا ندفع مالاً، فأَقسم: والله لو منعوني عقالاً، فسَلَّ سيفَ الحق، وأَلقى في رقاب المردة خطبة ارتجالاً.

ارتدّ مسيلمة الكذاب، فقال الصدِّيق يا ذباب، يأتيك الجواب، فأَلبس خالداً العِمَامَة، وقال: هيَّا إلى اليمامَه، فاهتز سيف الله المسلول، فصبَّح المرتدين وهم في ذهول، فحطم الجماجم، وأَذل الباطلَ وهو راغم:

خليفَ اللهِ جازىٰ الله سعيك في جرثومةِ الدينِ والأَخلاقِ والقيمِ

أَبو بكر ما أَسدَّه، هو رجل الشدَّة، وبطلُ يومِ الردّة، الأُسودُ تسود، والمثالبُ للثعالب:

لـك أَجـرُهـا ووِدادُ مـن أَهـداكهـا وسواكَ يرتعُ في الحضيضِ الخاملِ

أَبو بكرٍ ثلاثُ ليال، وثلاثة أيام، وثلاث ساعات.

ليلةُ الغار :

يا ليلة الغار هلا عدت ثانيةً سقى زمانك هطالٌ من الديم

وليلةُ بدرِ الأَبرار، وليلةُ الدار، أَبو بكرٍ يومَ أَعلن إسلامه، ويومَ ارتحل مع صاحبِه، مرةً خلفَه، ومرة أَمامَه، ويوم جهّز جيش أُسامَه، وأَبو بكر ساعةَ سمعَ سورة إقرأ، وساعةَ صدَّقَ المعصومَ في الإِسراء، وساعة مات الحبيب، وأَظلمت الغبرا.

ثلاثٌ فيكَ لو قسمت لشعبٍ لصارَ الفردُ منهمِ رأسَ قومِ
ثباتُك والسيوفُ مضرجاتٌ وبذلك والزمانُ زمانَ عدمِ
وصدقٌ فيكَ يشرقُ لو تبدَّى لقال البدرُ قد ضيَّعتَ رَسمي

أَبو بكرٍ أَعلن الحريّة لأَنه أَولَ من استقبلَ عبداً، وأَوّل من ودّع عبداً، استقبلَ بلالاً أَيامَ البلاء، يوم كانت قريشٌ ثائرةً على السود، هائمةً في السيادة، ضالعةً في الاستعباد.

وودّع أُسامةَ الأُسود يركبُ على الفرسِ بسواده.

والصدِّيقُ يطأ الثرى ببياضه ليقول للناس: لا أَلوانَ ولا أَنسابَ ولا أَلقاب عندنا، حملُ رسالة، وصحة يقين، وطهر ضمائر، وسموُّ همم، هو مع خليله وإمامه وحبيبه وأُسوته في الصلاةِ خلفه، في الحربِ أَمامه، في الطلبِ لديه، في المهماتِ عندَه.

أَبو بكرٍ قلبٌ نبيل، وجسمٌ نحيل، شابُ الإراده، شيخُ

التجارب، أَحيا قلبهَ بالإِيمانِ فلم يمت أَبداً، وأَمات نفسه عن الشهواتِ فلم تعش أَبداً.

هاجَ الناسُ يومَ ماتَ الرسولُ ﷺ فسكنَ أَبو بكر، تلعثموا فتكلم، أَراد أَن يخبرهم بالمصاب، فأَتى بالعجب العجاب، من كان يعبد محمداً فإِنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإِن الله حي لا يموت.

نحيفٌ أَسيفٌ شريف.

نحيفٌ لم يتخم من موائد اللاهين، وبعض الرعيةِ في أَسرابِ الجائعين.

وأَسيفٌ بكى من التنزيل، ودمعتْ عيناه، من خوف الجليل، ووجلَ ليومِ الرحيل.

وشريفٌ سمت روحُه عن الشهوات، وعظم قلبُه أَن تناله الشبهات، ونظفت يدُه عن هاءَ وهات، عنده صحة قطرةٍ سقاها معين التوحيد، ونضحها نسيم الهجره، وأَنضجتها شمسُ الجهاد، عقيدتُه توقد من شجرةٍ مباركةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ بل ربانيةٌ سنيةٌ سلفية، نورٌ على نور:

جـاءت بـه فـي ليلـةٍ مـأهـولـةٍ متبلـجَ البسمـاتِ كـالنجـم الأَغـر

شابَ رأَسهُ من تلك الأيام، يومَ رأَى إمامه وقدوتهَ يؤذىٰ في الطواف، ويوم شاهَد السيوفَ تلفُّ الغار، ويوم أَبصر الحبيب يودِّع الحياة.

صفقتهُ رابحةٌ، وكفته راجحة، وعطاياه غادية رائحة، أَنطقَ بحجته أَلسنة النبلاء، فشهدت أَن لا إِله إِلا الله. وأَسكتَ بدولتهِ أَفواه البغاة، يوم قالت: لا إِله.

أَرسله لواءَه الأَبيضَ على العنسى الأسود، فمحونا آية الليلِ وجعلنا آية النهار مبصرة.

وأَرسل طلحةَ على طليحة، فصغّر الاسم، ومحىَ الرسم، ولا يغلبُ اسم الله اسم.

جمع له المرتدون الخيول المرسلات، فسلَّط عليهم السيوف النازعات، منعوا زكاةَ المال، فأَخذ منهم زكاة الرجال، قطعوا الحبال فارين، فجرَّهم في العمائم مقيدين.

مات المعلم يوم الاثنين، ومات التلميذ يوم الاثنين لأَنه: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وتنتهي بهما في دار المقام، ويذهبَ الحزنُ كلُّه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

وتـوافقـت تلـك المنـاقـب مثلمـا شـاء الإِلـه وزادهـا مـولاهـا

قضـــاء وقـــدر

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ [الحديد: ٢٢]، جف القلم، رُفعت الصحف، قُضي الأَمر، كتبت المقادير، ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]. **«ما أَصابك لم يكن ليخطئك، وما أَخطأَكَ لم يكن ليُصيبك»**.

إنّ هذه العقيدة إذا رسخت في نفسك، وقرتْ في ضميرك، صارت البليّة عطيّة، والمحنة منحة، وكل الوقائع جوائز، وأَوسمة **«من يُرِدُ الله به خيراً يُصب منه»**.

فلا يُصيبك قلق من مرضٍ أَو موت ابن، أَو خسارة مالية، أَو احتراق بيت، فإِنّ الباري قد قدَّر، والقضاء قد حلّ، والاختيار هكذا، والخيرةُ لله، والأَجرُ حصل، والذنب كُفِّر.

هنيئاً لأَهلِ المصائب صبرهم ورضاهم عن الآخذ، المعطي، القابض، الباسط، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾.

ولن تهدأَ أَعصابكَ، وتسكن بلابل نفسك، وتذهب وساوس صدركَ حتى تؤمن بالقضاء والقدر.

جفّ القلم، بما أَنتَ لاقٍ، فلا تذهب نفسك حسرات، لا تظن أَنه كان بوسعك إِيقاف الجدار أَن ينهار، وحبسُ الماء أَن ينسكب، ومنع الريح أَن تهبّ، وحفظ الزجاج أَن ينكسر، هذا ليس بصحيح على

رغمي ورغمك، سوف يقع المقدور، وينفذ القضاء، ويحل المكتوب ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

استسلم للقدر قبل أن تطوّق بجيش السخط والتذمّر والعويل، اعترف بالقضاء قبل أن يدهمك سيل الندم، إذاً فليهدأ بالك إذا فعلت الأسباب، وبذلت الحيل، ثم وقع ما كنت تحذر، فهذا هو الذي كان ينبغي أن يقع، ولا تقل: «**لو أنِّي فعلت كذا وكذا لكان كذا، ولكن قل: قدّرَ الله وما شاء فعل**».

لا تبرع في الشيء حتى تحبه

معنىٰ هذا: أنكَ لن تحض بالتفوق في أمرٍ، والتفرُّد في خير حتى تحب كل داعٍ يدعوك له، وكل سبب يجذبك إليه، فتأتيه منشرح الصدر، عامرَ الفؤاد، مرتاح البال، منساباً في طريقك إليه، مندفعاً بحرارة الحبّ لتناوله.

إن معضلة أهل النفاق أنّهم يكرهون ما يأتون من خير، فيؤدّون الشعائر تأدية آلية، لا روح فيها: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]، وكذلك نفقتهم مردودة عليهم: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

إنّ الحب إكسيرٌ للأعمال، وروحٌ للحياة، فلا صلاحَ لعملٍ إلاَّ

بالحبِّ، .ودونكَ طلب العلم مثلاً لذلك، فعلىٰ من أَراد جودة الفهم، والنبوغ في التحصيل، والوصول إلىٰ الغاية في الإمامة، فما عليه إلاَّ ببذلٍ مع حبّ، واندفاعٍ مع رغبة، وحرصٍ مع شوق.

إنّ المكرهين في درسِ العلم لا يلبثون إلاَّ زمناً قصيراً، حتى يعلنون إفلاسهم ورسوبهم، لأَن جذوتهم تنطفئ سريعاً، ورغبتهم في العلم تذبل مبكراً.

هل سمعت بعالمٍ بارع كره درسه؟! هل رأَيتَ فقيهاً قارحاً ملَّ مذاكرته؟! وهل بلغك أَن ذكيًّا أَريباً هجرَ كتبه؟!

إذا أَردتَ حسن المصير في أَعمال الخيرِ والنبل، فاجعل الحب يستولي على اهتماماتك، ومحكم على عواطفك، فبحبك لهذا الشيء تتوهج وتبدع وتتألّق والله المستعان.

قبل أَن لا ينفع النَدَم

أَقولُ لكم عن تجربةٍ وذوقٍ ومعــرفة عانيتهــا، كــم خدعنا بالأَماني الكاذبة، والخيالات الفارغة، وغفلنا عن الحقائق، والشرع يخبرنا بالأَصلح، ويحذِّرنا من مصارع البغي، ومراتع الغفلة، ولكن العقل في حجابٍ كثيف يحتاج إلى مطارق قويّة تهزّه هزَّاً، وتقلقه حتى يرعوي.

كم رأَينا من شاب أَعرضَ عن المسجد، وعقَّ الوالد، ونسي

القدوم، ثم قبضت روحه بغتة، وسار لأَهله حسرة، كم زهت بيوت بأَهلها وأَموالها وحشمها، ثم وقعت بهم الواقعة، فصاروا أَثراً بعد عين.

أَلا يا من نصح نفسه لا تنفق العمر بكف التبذير، وتوزّع الأَوقات على المتسوّلين، فإِنّ ضياع الزمن ضالة لا تُردّ.

بالله لو جلستَ بعد الفجر، حتى تطلع الشمس، في المسجد كل يوم، هل تخسر من أَموالك درهماً؟! أَو تفقد من دنياك مغنماً؟! بل تكسب الأَجر والمثوبة والحسنىٰ.

بالله لو مكثت بعد كل صلاة ثلث ساعة مسبحاً، كم تكسب من الأُجور، وتخزن من الثواب، ويصعد لك من الكلم الطيّب؟!

رأَيت كثيراً من الناس يجلسون في المجامع العامة ومجالس السمر، والأَندية، لتقضية الوقت مع غيبة وفحش من القول، وضحك، ولهو، وكأَن الأَمرَ لا يعنيهم، أَو كأَنّ عندهم عهداً وثيقاً بالبقاء، فيالفجأة الرحيل عليهم، ويا لهول الموت على قلوبهم.

الصدق منجاة، والرائد لا يكذب أَهله، والحقائق أَقوىٰ من الخيال، وقد نصحت نفسي ونصحتك، وما بقي من أَعمارنا إلاَّ كما ذهب أَو أقل وهل اليوم إلاَّ مثل أَمس.

أَين الطعام اللذيذ الذي أَكلناه أَمس؟! لا نجد لذته، أَين الماء البارد الذي شربناه؟! لا نحس ببرودته، إن جُعْنَا ما كأَنّا شبعنا، وإِن ظمئنا كأَنّا ما روينا، وإِن حزنا كأَنّا ما سُررنا.

وقد قيل:

شقينـا بـالنـوى زمنـاً فلمـا ... تـلاقينـا كـأَنَّ مـا شقينـا
بكينـا عنـدمـا جنـت الليـالـي ... فمـا زالـت بنـا حتَّـى رضينـا

حوار علمي أدبي

مما يشنف الأذن تلك الحوارات العلمية التي تجاذبها الخلفاء مع العلماء في سائر المعارف، وأَنا أَسوق طائفة منها بإيجاز، ترويحاً للنفس وتنشيطاً لها، وهي في كتب التاريخ والأَدب والحديث.

* فمنها دخول ابن عباس على معاوية في مرضه، فلما رآه معاوية تجلّد وأَنشدَ:

وتجلـدي للشـامتيـن أَريهمـوا ... أَنِّي لـريـب الـدهـر لا أَتضعضـعُ

فردّ عليه ابن عباس:

وإِذا المنيـة أَنشبـت أَظفـارهـا ... أَلفيـت كـل تميمـة لا تنفـع

* وقال عبدالملك للشعبي: كمْ عطاءَك بالنصب ـ وهو لحن ـ؟ فردّ الشعبي: أَلفين. فقال عبدالملك: لحنت يا شعبي. فقال الشعبي: لحن أمير المؤمنين فكرهت أَن أُخالف.

* وذكر المأمون عند النضر بن شميل حديث: من تزوج امرأة لدينها وجمالها فهو سَداد من عوز، بنصب السين. فقال النضر: إِنما هو سِداد يا أَمير المؤمنين، وسداد بالكسر لما يُسدّ به، قال المأمون:

هل على ذلك شاهد من لغة العرب؟ قال النضر: نعم، قول العرجي:

أَضـاعـونـي وأي فتـىً أَضـاعـوا ليـومِ كـريهـة وسِـداد ثغـر

قال المأمون: قبّح الله من لا أدب له.

* ودخلَ أبو عبدالرحمن الأَذرمي المحدِّث على الواثق في فتنة القول بخلق القرآن، فقال: أَخبروني عن هذا الرأي، أعلمه الرسول ﷺ أَم لم يعلمه؟ قال ابن أبي دؤاد ـ وكان حاضراً ـ بل علمه. قال: فكان يسعه أَن لا يدعو الناس إِليه، وأَنتم لا يسعكم؟! فبهت الواثق ومن معه، وترك امتحان الناس بهذا القول.

* ودخلَ ابن السماك الواعظ على أَبي جعفر المنصور وقد آذاه ذباب يطير على أَنفه، فقال: يا ابن السماك، لماذا خلق الله الذباب؟ قال: ليذل به أُنوف الطغاة.

* ودخل أَحد الشعراء على وزير ذات ليلة، فأَراد اين يمسيه بالخير فغلط، فقال: صبحك الله بالخير، فضحك الوزير، فارتجل الشاعر:

صبحتـه عنـد المسـاء فقـال لـي مـاذا الصبـاح وظـن ذاك مـزاحـاً
فـأَجبتـه إِشـراق وجهـك غـرنـي حتـى تبينـت المسـاء صبـاحـاً

* وقال الرشيد للأصمعي: لم تأخرتَ علينا؟ قال: يا أَمير المؤمنين ما لاقتني أرض بعدك حتى أَتيتك، قال: كيف تقول: ما لاقتني؟ قال الأصمعي كما قال الشاعر:

كفـاك كـف مـا تـلاقـى درهمـاً جوداً وأُخرى تلقى بالسيف الدما

* وقال هشام بن عبدالملك للزهري: من الذي تولّى كبره في الإفك؟ قال الزهري: هو عبدالله بن أُبي بن سلول، قال هشام: كذبت. فقال الزهري: بل كذبت أنتَ. والله لو نادى منادٍ من السماء أَن الكذب حلال ما كذبت، ثم ساق الزهري الرواية بإسناده إلى عائشة على صحة ما قال.

* وقال سليمان بن عبدالملك لسالم بن عبدالله: أَلَكَ حاجة أَقضيها من حوائج الدنيا، قال: ما سألت حوائج الدنيا من الله، فكيف أَسألها منك؟

* وقال عبدالله بن علي عمُ المنصور للأوزاعي: ما رأيك في هذه الدماء التي سفكناها، فساق له حديث: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإِحدىٰ ثلاث**». قال: وما رأيك في الأَموال؟ قال: حلالها حساب وحرامها عقاب.

بـــدون قيـــاس

الخمول والدعة، والاستكانة للجهل، والرضا بالذل، والقعود عن مراتب النبل، كلها بنات لسقوط الهمة، ورذالة النفس، وخمود الخاطر، وهذه صلة نسب ويلحقها بالرضاعة: ضياع الوقت، وتشتت الهم، وتمزّق الوقت.

لقد طالعت سير أَهل الهمم فإِذا هم في حلبة سباق كالخيّالة.

هذا أَندلسي يكرر صحيح البخاري سبعمائة مرة، وهذا المزني يقرأ الرسالة للشافعي خمسمائة مرة، وابن إدريس يختم القرآن في زاوية بيته أربعة آلاف مرة، وابن حجر يؤلف فتح الباري فيعجز كثير من العلماء عن مجرد قراءته، وقسمت كتب ابن جرير الطبري على عدد أَيام عمره فصار لكل يوم كراسة من التأليف، وابن سينا يكتب كل يوم مذكرة، ولو كان في السفر، وابن عقيل الحنبلي يؤلف في أَوقات الراحة كتاب الفنون في سبعمائة مجلّد، وابن الجوزي يؤلف أكثر من ألف مصنف، وابن الأنباري يحفظ مائة وعشرين أَلف بيت في شواهد اللغة، أَفسحر هذا أَم أَنتم لا تبصرون؟!

ولا تستبعد هذا، ولا تستنكره؛ لأَنك تقيس على نفسك. فيا بعد ما بين المشرقين، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

سافر أَحمد آلاف الفراسخ في طلب الحديث، وعمل في حصاد الزرع لطلب النفقة، وحمل المحبرة وهو في السبعين، وجلد من أَجل السُّنة، حتى بقيت في ظهره آيات للسائلين، وكان الشافعي يسهر الليل حتى الفجر في حديث واحد، ومسألة واحدة، فيأتي بالعجب العجاب، ليله إِما تلاوة، أَو صلاة، أَو مذاكرة: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

بيّض البخاري صحيحه في ستَّ عشرة سنة، يصلِّي مع كل حديث ركعتين، ويستخير الله، فصار صحيحه مضرب الأَمثال، ومحط الرحال، ومقصد الرجال، ومنتهىٰ الآمال.

هكـــذا هكـــذا وإلاَّ فـــلا لا   إسحـق الهـول والـردىٰ والجبـالا

العــوض من الله

لا يسلبك الله شيئاً إلاَّ عوضك خيراً منه، إذا صبرت واحتسبت «**من أخذت حبيبتيه فصبرَ عوَّضته منهما الجنة**» يعني عينيه «**من سلبت صفيه من أَهل الدنيا ثم احتسب عوضته من الجنَّـة**» من فقدَ ابنه وصبر بُنيَ له بيت الحمد في الخلْد، وقسْ على هذا المنوال، فإن هذا مجرد مثال.

فلا تأسف على مصيبة، فإنّ الذي قدّرها عنده جنة وثواب وعوض وأَجر عظيم.

إنّ أَولياء الله المصابين المبتلين ينوّه بهم في الفردوس ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٤].

وحقٌ علينا أَن ننظر في عوض المصيبة، وفي ثوابها، وفي خلفها الخير: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧]. هنيئاً للمصابين، بشرىٰ للمنكوبين.

إنَّ عمر الدُّنيا قصير، وكنزها حقير، والآخرة خيرٌ وأَبقىٰ، فمن أُصيب هنا كوفيء هناك، ومن تعب هنا ارتاح هناك، أَما المتعلقون بالدُّنيا، العاشقون لها، الراكنون إليها، فأَشدّ ما على قلوبهم فوت حظوظهم منها، وتنغيص راحتهم فيها، لأَنهم يريدونها وحدها، فلذلك تعظم عليهم المصائب، وتكبر عندهم النكبات، لأَنهم ينظرون تحت

أَقدامهم فلا يرون إلاَّ الدُّنيا الفانية الزهيدة الرخيصة.

أَيُّها المصابون ما فات شيء وأَنتم الرابحون، فقد بعث لكم برسالة بين أَسطرها لطف وعطف، وثواب وحسن اختيار، إنّ على المصاب الذي ضرب عليه سرادق المصيبة، أَن ينظر ليرىٰ أَن النتيجة: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣]. وما عند الله خيرٌ وأَبقىٰ، وأَهنأ وأَمرأ وأَجلّ وأَعلىٰ.

وليسعك بيتك

العزلة الشرعيَّة السنيَّة: بعدك عن الشر وأَهله، والفارغين واللاَّهين والفوضويين، فيجتمع عليك شملك، ويهدأ بالك، ويرتاح خاطرك، ويجود ذهنك، بدور الحكم ويسرح طرفك في بستان المعارف.

إنّ العزلة عن كل ما يشغل عن الخير والطاعة دواء عزيز جرَّبه أَطباء القلوب، فنجح أَيّما نجاح، وأَنا أَدلُّكَ عليه، في العزلة عن الشر، واللغو وعن الدهماء تلقيح للفكر، وإقامة لناموس الخشية، واحتفال بمولد الإنابة والتذكر، وإنّما كان الاجتماع المحمود، والاختلاط الممدوح في الصلوات، والجمع، ومجالس العلم، والتعاون على الخير، أَما مجالس البطالة، والعطالة، فحذارِ حذارِ، اهرب بجلدك، إبكِ على خطيئتك، وأمسك عليكَ لسانك، وليسعك بيتك، الاختلاط الهمجي حرب شعواء على النفس، وتهديد خطير

لدنيا الأمن والاستقرار في نفسك؛ لأَنك تجالس أَساطين الشائعات، وأَبطال الأَراجيف، وأَساتذة التبشير بالفتن والكوارث والمحن، حتى تموت كل يوم سبع مرات قبل أَن يصلك الموت ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧].

وإذا مـــا خـــلا الجبـــان بـــأرض   طلـــب الطعـــن وحـــده والنـــزالا

إذاً فرجائي الوحيد إقبالك على شأنك، والانزواء في غرفتك إلاَّ من قول خير أَو فعل خير، حينها تجد قلبك عاد إِليك، فسلِّم وقتك من الضياع، وعمرك من الإهدار، ولسانك من الغيبة، وقلبك من القلق، وأُذنك من الخنا، ونفسك من سوء الظن، ومن جرَّب عرف، ومن أَركب نفسه مطايا الأوهام، واسترسل مع العوام، فقل عليه السلام.

دعوة الإمام المجدد الشيخ
محمد بن عبدالوهاب

إنّ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تجديد لأَصالة الدِّين، وروح الملة، ومعدن الشريعة، إنّها رجوعٌ بالناس إلى رأس النهر، وأَصل النبع، وأَول المسيرة، وهي إلغاء لطقوس الكهنة، ومصطلحات مشايخ الطرق، عبدة الجاه، سدنة الناموس بين البرية.

دعوة لم يقم بها العسكر تحت رصاص البنادق، وزحف الدبابات، فهي لا تؤمن بالاختلاس والنهب، هي دعوة لم تتبنَّ

حمايتها الأَحزاب الخاسرة التي ترفع شعارات تؤمن بها في الأَوراق، وتكفر بها في الميدان، ليست دعوة سياسية صرفة، مقصدها الوصول إلى كرسي الحاكم، وابتزاز عصا السلطان، وتصدر الجموع.

دعوة أَصلها ثابت من الدليل الشرعي، والاقتداء بالمعصوم ﷺ، والدعوة علىٰ بصيرة، وفرعها في السماء من العطاء المبارك، والنفع العام، والأَثر المحمود.

إن هذه الدعوة لم تدلف تحت هتافات الغوغاء، والشعارات الجوفاء، ولم تقم بأَغلبية الأَصوات، ونتائج صناديق الاقتراع، لم تفعل ذلك لأَن هذه الدعوة توقد من شجرة الوحي المبارك، لا شرقية ولا غربية؛ بل سُنِّية سلفيّة ربّانية.

دعوة بدأَت من المسجد، وانطلقت من المحراب، وهبّت من المآذن علنية، تعلن مبادئها من على المنبر، وتشرح مواثيقها في العامة، ليست سرية لها رموز لا يفكها إلا خاصة الخاصة، وليست غامضة لا يفهم مقاصدها إلا أَساطينها؛ بل دعوة بينة بيان الحق، ساطعة سطوع الحقيقة، ظاهرة ظهور الفجر.

إِنّها بإِيجاز تدعو لأَن تكون كلمة الله هي العليا، وأَن يكون الدِّين كله لله، وتعبد الناس لخالقهم ورازقهم، لا ترى التقليد، ولكنها لا تجرح الأَئمة، ولا تقر الجور، ولكنها لا تخرج على الحاكم المسلم، وترفع شعار الجهاد، ولكن لإِعلاء كلمة الله.

وهي دعوة سهلة، ميسرة، ومن ينظر في كتب في كتب الإِمام

المجدد، وأَبناءه، وأَحفاده، وأئمة الدعوة، يلمس يسر الشريعة، وسماحة الملة، وسهولة الدِّين، وكذلك عمرت هذه الدعوة، وأَينعت، وطاب قطافها، واستوت على سوقها.

عمل بالكتاب والسنة على فهم الصحابة، وتقديم للدليل مع احترام أَهل العلم، وتحاكم للنص مع عدم مصادرة جهود الخيرين، وبناء دولة مع تقديم الآخرة، وإصلاح القلب مع الاهتمام بالجسم، لم تحش أَذهان أتباعها بزبد الخطابة المجردة، والعواطف المجنحة، ووجهات النظر، واستحسانات الفلاسفة، ورغوة علماء الكلام، وجدل المناطقة، ووله الشعراء.

ولم تضع وقت طلاّبها في مطاردة قصاصات مقالات الصحفيين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أَماني وإن هم إلا يظنون.

ولا في تتبع أُطروحات المفكرين الذين يتّبعون الظن وإن هم إلا يخرصون، ولا في حفظ حروز المتصوفة، الفارغين من النقل، الهائمين في الخيال.

هذه الدعوة ربانية أُولى وآخرة، دنيا ودولة، جسد وروح، رواية ودراية، خبر وإنشاء، قولٌ وعمل، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً.

إنها لم تأتِ بطرح صوفي يقدِّس عمامة الشيخ، ويتمسح بثوب الغوث والقطب، ويقبل تراب أَقدام الأَوتاد والأَبدال.

لم تَفِدْ بمشروع خارجي يكفِّر بالكبيرة، ويعلن التمرد لمجرد مخالفة، ويستبيح دم المسلم بالمعصية ويدعوه إلى الثورة عند الخطأ،

ولم تبزغ بوجه رافضي يتبرأ من الصحابة، ويحمل الضغينة على الأبرار، ويأفك في المنهج، ويفتري على الله ورسوله، يضل في المعقول، ويجهل المنقول، ويرفض الثوابت.

وصلت للناس كما يصل الماء العذب الرقراق إلى الشفاه، وكما يطل نور الفجر على الآفاق، ومثلما يهبط الغيث من السماء، فأَحيا به الأَرض بعد موتها، وإذا الناس بها يستبشرون.

لقد قامت قبلها ومعها وبعدها دعوات، وحركات، وشعارات، ولكنها لم تكن مثلها، ولم تفعل فعلها، ولم تؤثِّرْ أثرها، فهذه الدعوات: إمّا دعوة دموية مصادمة انتهت بقطع الرؤوس، وبحيرات الدم، وأعقبت الخوف، والتشريد، والتنكيل من الجلد، والحبس، والإعدام، أو دعوة سلبت الإنسان حقه في الحياة، فحرمت عليه الطيبات، ومنعته من المناهج، وحشرته في زاوية، يهمهم ويتمتم، على أَوراد بدعية، وأَعمال شركية، يطوف بالقبر كالحمار بالرحى، ويتمرغ عند الضريح كالثور في المسناه، بهم تطمس إشراقات الملة، وبهم تنطفيء أَنوار الشريعة.

أَو دعوة بنيت على مذهب اللملمة، تقبل السلفي، والرافضي، والخارجي، والاشتراكي، والعلماني، بحجة رص الصف، وجمع الكلمة.

أَما دعوة الشيخ المجدد الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله فهي دعوة واضحة المعالم، ثابتة الخطى، متميزة الطرح، بيّنة

الخصائص.

قامت على التوحيد أَصل الأُصول، ودعوة الأنبياء، ومهمة الرسل، وأَول الواجبات، وأَعظم الفرائض، فدعت إِليه قولاً وعملاً، ونصرها الله بسيف الشرع، وكتائب الجهاد، وأَحفاد الفاتحين، فشرَّقت، وغرَّبت، وآتت أكلها ضعفين بإِذن ربِّها، كان من حسناتها وهي حسنات كلها الاهتمام بحلق الذكر، ودروس المسجد، وبث الوعي، ونشر العلم، وهي سنة سنّها رسول الهدى ﷺ ثم أُميتت من قرون سلفت، فجاءت هذه الدعوة لبعثها من جديد، وإِحيائها.

وليت المساجد يعود لها ذاك الزخم المضيء النيّر في أيام دعوة المجدد، ليعي الناس أَمر دينهم، لأَن الدراسة المنهجية النظامية وحدها لا تفي بمهمة المسجد، مع ضآلة ما قرر للدِّين من حصص، وما قطر لمادة التوحيد من محاضرات، مع هزال المدرس، ونعاس الطالب، وملل الرتابة وكثرة الصوارف.

إِن المكان المبارك لنشر عقيدة السلف، وميراث الرسول ﷺ وتركته هو المسجد ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]، ويوم أَصبحت عقيدة السلف تعلم بالكمبيوتر، وصار علم الشرع يؤخذ من القنوات الفضائية، صار الطرح بارداً، والذهن كالاً، والجيل عاطلاً، والعلم ممجوجاً.

الآن حصحص الحق، ولكل نبأ مستقر، وأَدركَ العقلاء أَن الدعوة التي يتقبلها القلوب، وتنشرح لها الصدور، وتوافقها الفطر،

وتصدقها العقول هي الدعوة الموافقة لدعوة المعصوم ﷺ، المتبعة لا المبتدعة، الربانية لا النفعية، الأَثرية لا المخالفة، الوسطية لا الغالية ولا الجافية، وهي دعوة عبرت القرون، واخترقت حاجز الزمن، ونفذت من بوابة الدهر، يحمل علمها محمد ﷺ وأصحابه، وأئمة السنة، كمالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأَحمد وابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب، ومع هذا الموكب المقدّس نريد أن نسير، ومع هذه الطائفة نتمنى أَن نحشر، ومن هذا النبع نريد أن نعبَّ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٦].

اللهم إنّ هذا الشجن مما نفح به الخاطر، وشهد به القلب، وزكّاه الضمير، لم يُحاَب فيه شخص، ولم يُتَزَلَّف به إلى هيئة، ولكنها شهادة تؤدَّى يوم تكتب شهاداتهم ويُسألون، وعقيدة تُعتنق، ومذهب يحب، وأُمنية غالية، يلهج بها.

ذالكم مما نفث به القلم المصدور على عجل من أَمره، وفي المطولات عن هذه الدعوة غنية، ولكنها زكاة نصاب الواجب علي لهذه الدعوة، ولا يسعني السكوت، فإن لم يصبها وابل فطل:

ليت الكواكب كانت لي فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمي

ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس

عليكَ أَن تقنع بما قُسِمَ لك من جسم ومال وولد وسكن وموهبة، وهذا منطق القرآن ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: ١٤٤] إنَّ غالبَ علماء السلف وأَكثر الجيل الأول كانوا فقراء، لم يكن لديهم أُعطيات ولا مساكن بهية، ولا مراكب، ولا حشم، ومع ذلك أَثْروا الحياة وأَسعدوا أَنفسهم والإنسانية؛ لأَنهم وجّهوا ما آتاهم الله من خير في سبيله الصحيح، فبُورِكَ لهم في أَعمارهم، وأَوقاتهم ومواهبهم، ويقابل هذا الصنف المبارك طائفة أُعطوا من الأَموال والأَولاد والنعم، فكانت سبب شقائهم وتعاستهم؛ لأَنهم انحرفوا عن الفطرة السويَّة، والمنهج الحق، وهذا برهان ساطع على أَنّ الأَشياء ليست كل شيء، انظر إِلىٰ من حملَ شهادات عالميَّة، لكنّه نكرة من النكرات في عطاءه وفهمه وأَثره، بينما تجد آخرين عندهم علم محدود، وقد جعلوا منه نهراً متدفقاً بالنفع والإِصلاح والعمار.

إِن كنتَ تريد السعادة فارض بصورتك التي ركبك الله فيها، وارض بوضعك الأسري، وصوتك، ومستوى فهمك، ودخلك؛ بل إِن بعض المربّين الزهّاد يذهبون إِلى أَبعد من ذلك فيقولون لك: ارض بأَقل مما أَنت فيه وبدون ما أَنت عليه وأَنشدوا:

سعــــادتــــك العظمــــىٰ إِذا كنــــت عــــاقــــلاً

منــــاك بحــــال دون حــــال تعيشُهــــا

هاك قائمة رائعة مليئة باللامعين الذين بخسوا حظوظهم الدنيوية:

* عطاء بن أَبي رباح عالم الدنيا في عهده، مولى أسود أَفطس أَشل مفلفل الشعر.

* الأحنف بن قيس، حليم العرب قاطبة، نحيف الجسم، أَحدب الظهر، أَحنى الساقين، ضعيف البنية.

* الأَعمش محدِّث الدُّنيا، من الموالي، ضعيف البصر، فقير ذات اليد، ممزق الثياب، رث الهيئة والمنزل.

* **بل الأَنبياء الكرام** صلوات الله وسلامه عليهم، كل منهم رعىٰ الغنم، وكان داود حَدَّاداً وزكريا نجّاراً، وإدريس خياطاً، وهم صفوة الناس وخير البشر.

* إذاً فقيمتك مواهبك، وعملك الصالح ونفعك وخلقك، فلا تأسَ على ما فات من جمال أَو مال، أَو عيال، وارض بقسمة الله ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

الرضـــــا

الرضا بالله ربًا يلزمك أَن ترضى بأَحكامه الشرعية، فترضى بأوامره ممتثلاً، وترضى بنواهيه مجتنباً، وترضى بأقداره المؤلمة، فترضى بكل نعمة ومصيبة، وكل منع وعطاء، وشدة ورخاء، ترضى عنه سبحانه إذا عافاك وشافاك، ومن كل بلاء حسن أبلاك، وترضى

عنه إذا أَمرضك وأَسقمك، وترضى عنه إذا وضعك في السجن وحيداً فريداً، ترضى عنه إذا أَغناك وحباك، وترضىٰ عنه إذا أَفقرك وأَعدمك، لأَنه سبحانه يحب أَن يُرضىٰ عنه، فهو حكيم لا يشك في حسن وصلاح قضاءه، وهو مدبِّر لا يتهم في جميل تدبيره، وهو يختار الأَجمل والأَكمل والأَفضل لعبده، فلا يعارض اختياره بكره، ولا يصادم تقديره برفض، ولا يجابه فعله بردّ.

ويقبح من سواك الفعل عندي … وتفعلـــه فيحســـن منـــك ذاك

والرضا باب اليقين الأَكبر، وبستان العبودية الأَخضر، وهو مستنزل الرحمة، ومستدر الزيادة، ومستوجب الرضا منه ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩] والرضا مطردة للهموم والغموم، مذهبة للأحزان، وهو علاج التردد والحيرة والاضطراب، لأَنه التسليم بالحكمة، والتصديق بالشرع، والركون إلى اللطف والاطمئنان لحسن الاختيار، من دخل بيت الرضا فهو آمن، ومن استقبل كعبته فهو مخبت، ومن صلى في محراب الرضا فهو حليم أَوّاه منيب.

التشـــاؤم

التشاؤم النظر إلى الكون بكره، والتطلع إلى الدُّنيا بمقت، فالمتشائم يرى كل شيء أَسود، الزهرة عنده شوك، والسنبلة قنبلة، والنخلة حنظلة، والمطر نار.

المتشائم معقود الجبين، كالح الوجه، ضيق الصدر، فليس عنده

أَمل ولا رجاء ولا فرج ولا يسر، فهو يرى أن الليل سوف يبقى، والفقر سوف يستمر، والجوع سوف يدوم، والمرض لن يقلع، في قاموس المتشائم الموت والسقم والهلاك والفشل والإحباط، والسقوط ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

المتشاءم يموت كل يوم مرات، ويجوع وهو شبعان، ويفتقر وهو غني، لأَنه أَطاع الشيطان: ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]

إدام الخيــــر

قالوا للإمام المحدِّث الورع الزاهد العابد بشر الحافي، وكان فقيراً، ما هو إدام الخير؟ قال: إدامه العافية اهـ. وهذا جواب مليح، فإن العافية يصلح معها كل طعام، والمرض يعكر كل لذيذ، فالمعافى يجد لطعامه ونومه وشرابه غاية الشهية خاصة إذا جاع، والعافية أعظم كنز، فهي أَغلى من قناطير الذهب والفضة، وأَثمن من الجواهر واليواقيت، وأَجمل من الحدائق والبساتين، ومن عنده مال وهو مريض فليس لماله وقع ولا نفع، ومن عنده ملك وهو سقيم فليس لملكه عنده وزن ولا قيمة، خبز الشعير مع العافية والماء البارد ألذ مأدبة، وأَجمل وجبة، وأَجل أكلة، ولباب البر وصافي العسل، ولحم الضأن مع السقم مر المذاق، وعلقم محرق.

رغيـف خبـزٍ يـابـس تــأكلــه فــي زاويــة

وكـــوز مـــاء بـــارد تشـربـه مـن صـافيـة
خير من الساعات في فيىء القصور العالية
تعقبهـــا عقـــوبـــة تصلـى بنـار حـاميـة

الحجَّـــة

الحجة ملك عامر، وسلطان قاهر، وهي سلاح الأنبياء، وجيوش الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والحجة غلاَّبة العقول، سلاَّبة الأرواح، بها تفتح معاقل الضمائر، وتحتل حصون السرائر، ويستحوذ بها على أَفئدة الناس، والحجة يذعن لها المكابر، ويستسلم لها الجبّار، ويعترف بها الجاحد، فهي إِقناع النفس بصدق الخبر، وإِرضاء الخاطر بصحة النظر، علامتها نور صدقها، ودليلها قوة تأثيرها، والحجة كنز وقت الحاجة، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وزاد يقتات في سفر المجادلة. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١] الحجة تطلق اللسان، وتبسط القول، وتشد القلب، وتجرئ المتحدِّث، «**إِن لصاحب الحق مقالاً**»، وهي أَسهل مئونة من جمع المال، وإِعداد الرجال، وصقل السيوف، والغلبة بها أَقوى من الغلبة بالكتائب، والظفر بها أَسعد من الظفر بالجنود، لأَن غلبة الحجة باقية دائمة.

من أحضر الحجة كسب القضية: البينة على المدَّعي، ومن فقدها خسر الفوز، ولا أَمتع ولا أَلذ من مصارعة الحجة، لأَنها تواثب

العقل، وتطارح الضمير، وتشاجي الروح، وتنازل المعتقد: ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ﴾ [محمد: ٤].

بالحجة دفع الخليل النمرود ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وبها صرع موسى فرعون ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٥٠] وبالحجة نكس محمد ﷺ رؤوس الأوثان ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

الحجة كلام ولكنّها أَفتك في الخصم من الأُسود، وجمل ولكنها أَعتى في المجادلة من السيل الجرّار، وأَلفاظ ولكنها أَسرع في النفس من البرق الخاطف، والحجة درع الضعفاء، ومظلة البؤساء، وسياج الضعفاء من الأقوياء، وهي أَصدق من الفجر، وأَبقى من الدهر، وأَلذ من البشرىٰ، وأَهنأ من العافية. مقتولها بلا قود، ومغلوبها بلا أمل، ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٩] إنها إفحام الخصم حتى يصرخ ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس: ٩٠]، وإمساك المعاند حتى يصيح ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل: ٤٤]، وإرغام المتدرع بليل الشبهات حتى ينادي: أصبحنا وأصبح الملك لله، إنها الأخذ بهدوء، والبطش بسكينة، والقهر بلين ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥] والحجة ثقة بالمبدأ، وعزيمة على الرشد، وإصرار على الصواب، وإقناع بالحق، نور على نور.

إنّها لا تحتاج إلى صوت أو صورة، أو دعاية أو إعلان، لأنها غنية بنفسها: دعوها فإنها مأمورة.

الفــــراغ

من الفراغ تكون الصبوة، وتحصل النزوة، وتحدث الخطرة، والفراغ بستان الأماني، وعش الوساوس، ومستودع الأَراجيف، والفراغ صحراء جرداء من التيه، يضل فيها العقل، ويعمى فيها البصر، ويذهب فيه الرشد، وفيه يزحف الخوف بجيوش الخيال، ويقبل ليل التوقع بكتائب المصائب، والفراغ فرصة لروغان الذهن عن الجادة، وميل الفهم عن السداد، وهي خربة للشيطان، ومزرعة للّهو والعصيان، وهو نعمة قلما تشكر، وهبة ما أكثر ما تكفر.

في الفراغ يفد هاجس الانحراف إلى الذهن، فكم فكر فيه وقدر، فقتل كيف قدر، وفي الفراغ تضخم الأشياء، وتكبر الصورة، وتهول الأَحداث، لأَن أَصل الطبيعة يميل إلى الخوف والتردد والشك والقلق، ومع الفراغ تنبت هذه الأَعشاب، وتقوى هذه العواصف، وقد عدّ الصينيون الفراغ بيت الجنون، وذكر الأَميرال برايد في كتابه الشهير: «وحيدا»: أَن الأَيام في الفراغ مظلمة كالليالي.

وقد ذكر الفراغ أبر الناس، رسول الله ﷺ فقال: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة وَالفراغ**».

لأَن من الناس المريض الفارغ، والصحيح المشغول، والمريض المشغول.

ولكلٍ عذره، لكن الصحيح الفارغ ما عذره في تصرم الأَوقات،

وضياع الساعات، وذهاب اللحظات، وقد ذكر عمر رضي الله عنه: أَن الفراغ غفلة، وقال الشاعر:

إن الشبــاب والفــراغ والجــدة مفســـدة للمـــرء أي مفســـدة

فالفارغ كالحالم في منامه، يبني دوراً، ويشيِّد قصوراً، فإذا استيقظ وجد عمله بوراً، والفارغ كالذي يكيل ماء البحر، لأَن البحر لا يكال، ومعرفة قدره من المحال، والاشتغال بذلك من أتفه الأشغال، والفراغ يشجع على الاضطراب والكدر، ويجلب الهم والضجر، ترقص فيه النفس على أوتار الأماني، ويتمايل فيه القلب على إيقاع الأراجيف ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] والفراغ مرض قديم، طبيبه العمل، وعلاجه الجد والمثابرة، وإلا فتكَ وقتل.

في الفراغ تُعطَّل الواجبات، وتُعزل الفرائض، وتُصادر المهمات، وتُعظَّم السخافات، وتُذبَح الحياة، كل مفلس سوقه الفراغ، وبضاعته التسويف، ورأس ماله الأَماني، جلب الشيطان المعصية على مطية الفراغ، من بادية الإِهمال والخذلان، إلى حاضرة اللهو واللغو، فساومه بها كل سفيه غاوٍ: فلا تلقوا الربكان، ولا يبع حاضر لباد، في الفراغ تشتعل نار الإِشاعة، وتعظم شجرة الوشاية، وتتفجر براكين الوعود الكاذبة، والأَفكار الخاطئة، والأَقاويل الآثمة، والفارغ صفر من الخير، ورقم في الحاشية، وخط على ماء، وسراب بقيعة، لأَنه فقد معنى الحياة، وقيمة الزمان، وثمن الوقت، وجلالة العمر.

الفلك يدور، والشمس تجري لمستقر لها، والقمر قُدِّرَ منازل، والصبح يتنفس، والليل يعسعس، ولكن الفارغ واقف ينتظر جامد لا يتحرك قائم لا يمشي، لأَنه أَخلد.

البلاء موكل بالمنطق

اللسان ترجمان للجنان، والكلمات إفشاء للنيات، وأهل الإيمان يحرصون على مواقع اللفظ، ونتائج اللسان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠] ولهم كلمات شرعية يفزعون إليها وقت الحاجة، فإن وقعت كارثة، وحلّت مصيبة، وجثمت نكبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون. وإن خوّفوا بمخوف، وأُزعجوا بنبأ نادوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. وإن عجزوا عن حمل، وضعفوا عن عمل هتفوا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وأهل الشك والنفاق لهم كلمات سخيفة سخف مشاعرهم، متهالكة تهالك مبادئهم، منها قولهم: ﴿لَّوۡ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ٢٣]

وقولهم: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢]إلى آخر تلك القائمة اللاغية من التهريج الضال.

وسلامة المنطق من سداد الرأي، وحسن اللفظ من كمال العقل، واصطفاء الكلام من نور البصيرة.

لما طلب أبناء يعقوب عليه السلام منه السماح بيوسف ليصحبهم خاف عليه منهم، وإلا فما أجدر التوكل على الله، وأجلّ الاعتماد

عليه، وهو عند يعقوب، لكن حب الولد فقال لهم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]، ففتح لهم عذراً، وسن لهم حيلة، فجاؤوا وقالوا: ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، ويوسف عليه السلام لما دُعِي للمنكر ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

قال بعض أَهل العلم: بل العفو والعافية أحب من السجن، فسجن يوسف. وفي غياهب السجن، وكربة الحبس، قال لصاحبه الخارج من السجن: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]. أي عند الملك. والله عز وجل أقرب مذكور، فكان الجواب: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ٤٢].

وفرعون العاتي نادى: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١] فكان الجزاء أن أجراها الله من فوق رأسه غريقاً مدحوراً.

وأحد المنافقين المردة أنطقه نفاقه فقال: ﴿ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: ٤٩]. فأتىٰ الإذن: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩].

فالبلاء موكل بالمنطق، الحيطة في اللفظة واجبة وجوب الحذر في الفعل، والاهتمام بالحديث لازم لزوم الاعتناء بالعمل، لأَن القلوب قدور تغلي مغاريفها الأَلسنة.

وفي كتاب بزرجمهر: أن صياداً بحث عن حمامة في غابة، فلما يأس وهمَّ بالانصراف، صاحت وقالت: ليس هناك حمامة. فصادها.

وكثير من الرؤوس ما سقطت من على كواهلها إلا بكلمات.

وكم من دماغ طش به لأَن صاحبه قال جملة غير مفيدة، وكم من عنق بتر لأَن لسان صاحبه لحن لحناً فاحشاً لايصلحه الخليل ولا سيبويه. وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٨] واللسان ظالم يستحق الحبس قبل الذنب.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾

يفهم من عموم الآية اختلاف مواهب الناس واستعدادهم وتخصصاتهم، فكل له وجهة، يبدع فيها ويتألق ويسمو ويثمر بعد اجتماع الكل على قاعدة الخير والعدل والحق، حتى إن رسل الله عليهم الصلاة والسلام لكل منهم تميز في جانب أكثر من بقية الجوانب، فداود عليه السلام عرف بالعبادة، وسليمان بالفهم، وأيوب بالصبر، وعيسى بالزهد، وموسى بالشجاعة.

وفي أصحاب رسول الله ﷺ من هذا الاختلاف في المشارب، وتعدد المواهب، فكل مبدع فيما أعطى ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤] فأُبي بن كعب سيد القرّاء، ومعاذ أَعلمهم بالحلال والحرام، وعلي أَقضاهم، وزيد بن ثابت أَفرضهم، وحسان أشعرهم ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة: ٦٠].

ولن ينبغ نابغة ويتألق نبيه حتى يدرس نفسه، ويعرف مواهبه، ويجيد تخصصه، لأَنه بذلك يجد راحة في بذله، وجودة في عطاءه،

وهمة في نفسه.

تعلَّم سيبويه الحديث، ثم مال إلى النحو، فأتى بالعجب العجاب، وألّف الكتاب الذي صار آية للسائلين، ولو بقي محدِّثاً لربما كان كمئات المحدِّثين غير اللامعين، والخليل بن أحمد مهر في اللغة وأعطاها جهده، وبذل لها وقته فقدم عملاً راقياً بديعاً، والأصمعي كانت موهبته في رواية الأَدب وتتبع الأخبار، فصار مدهشاً في فنه، عجباً في تخصصه، ومهر الجاحظ في الكتابة الأَدبية، وصناعة الأَلفاظ، فصار نادرة الزمان وحديث الدهر. والشافعي أَدمن النظر في مقاصد الشريعة وأَسرارها، فصار إماماً في علمه، مضرب المثل في فنه، والبخاري انهمك في علم الحديث، وأَعطاه ليله ونهاره، فترك ميراثاً مباركاً، وتركة خيرة فاضلة، إلى غير هؤلاء من الأَعلام الجهابذة الذين حازوا الفضائل، وتنافسوا في الخيرات وتسابقوا إلى الكمال.

إذن لن ينجح ناجح حتى يقوم بالمهمة التي تصلح له، والعمل الذي يناسبه، والسعي الذي يلائمه، أما اعتساف النفس، وليُّ عنق الموهبة، فلن يأتي بشيء يُذكر.

تريد من الفقيه أَن يكون أديباً، وتريد من المؤرخ أن يكون محدِّثاً، ومن الطبيب أَن يكون مهندساً، ومن الخطيب أَن يكون خيّاطاً، هيهات!

فوضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

فانظر إلى العمل الذي يناسبك، وقد فتح عليك فيه، فالزمه،

وثابر عليه، وجدّ في نيله، وابذل أقصى ما عندك في إدراكه، فإن هذا حظك ونصيبك، مع قوة إيمانك بربك وتقواك له، وإذا رأيت نفسك في عمل أو علم أو فن قد كلّت وملّت وأعرضت فليس لك فيه تأثير، ولا إبداع يُذكر، نعم قد تقوم بهذا العلم أو العمل أو الفن لكنه قيام عادي بسيط، أَما أن تكون متألقاً متميزاً مؤثراً فهذا لا يكون إلا فيما تحبه وتعشقه وتهواه، وتميل له، لأَنك تعطيه وقتك ونومك ودمعك ودمك، وهنا يأتي الإبداع ويكون اللموع ويحصل الإشراق وتكمن الفضيلة.

إن قوة أحمد بن حنبل في السنة، ونبوغ أبي حنيفة في الفقه، وموهبة ابن خلدون في التاريخ، وقدرة المتنبيء في الشعر، وابن الجوزي في الوعظ، فسبحان الخالق جل في علاه القائل: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

يحبهم هذا عجيب، لأَنه غني عنهم، وهم فقراء إليه، ولا يعتمد عليهم، ويعتمدون عليه، ولا يطلب شيئاً منهم وهم يطلبونه في كل شيء.

وعجيب أَن يحبهم وهم مخلوقون، وهو الذي خلق، ومرزوقون وهو الذي رزق.

ويحبونه ليس بعجيب، فقد صورهم وهم أجنة، ثم أخرجهم من

بطون أمهاتهم وله المنة، ثم هداهم بالكتاب والسنة.

ويحبونه، لأَنه أَعطاهم القلوب والأَسماع، والأَبصار، وسخَّرَ لهم الشمس والقمر والليل والنهار، وحماهم من الأَخطار في القفار والبحار.

ولو قال: يحبهم، وسكت. لتوهم منهم الجفاء، ولو قال: يحبونه، وسكت، لقيل ليس لهم عنده احتفاء، فلما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، تم الوداد والصفاء، وظهر الوفاق والوفاء.

إن مع العسر يسرا

بعد العسر يسر، ومع الصبر نصر، وبعد الليل فجر، وبعد الشدة رخاء، وبعد الضراء سراء، ولكل حادثة عزاء، الباب الموصد له مفتاح، والقلعة المنيعة لها باب، ولكل قميص من الشدة جيب من اللطف، ولكل غرفة ضيقة من الكرب كوة من الفرج، إذا اشتد الحبل انقطع، وإذا ادلهمّ الليل انقشع، وإذا احتبس القطر همع، بشر الفقير بالغنىٰ، والمريض بالعافية، والغائب بالقدوم، والمتعب بالراحة، والمسجون بالخروج، الأَيام دول، والفلك يدور، ولكل أمر حد، والدهر مقبل مدبر، والأيام آخذة معطية، والزمان يومان، ولكل نازلة رحيل، ولكل صعب سهولة، ولكل داء دواء، ولكل علة حيلة، حكمة نافذة، وقدرة باهرة، فلا تجزع، فإنّ مع العسر يسراً، ولا تيأس فإن مع اليسر يسراً، ولكن ليس يسراً واحداً بل يسران.

كن قارءاً ناقداً

كثير من سير الرجال والأخبار تحتاج إلى تمحيص، ولا تقبل مسلمة، والواجب عرض كل ما تقرأه على الشرع والعقل، فإن في بعض تراجم العلماء مدحهم بالجوع المفرط، وترك الزواج، والانقطاع في البيت حتى عن صلاة الجماعة، وعدم التفرغ لنظافة الجسم إلى غير تلك الأوصاف، وهذه الأمور خلاف الشرع والسنة لا تقرها، وورد في التواريخ كثرة عدد الجيوش، فيقولون مثلاً: كان جيش بني إسرائيل مع موسى عليه السلام يوم هرب من مصر ستمائة ألف، وهذا بعيد لأمور نبه عليها ابن خلدون في المقدمة، ومثل قولهم: قتل الحجاج مائة ألف إنسان، وهذا بعيد، فكم سكان الكوفة أو العراق في ذلك الحين، ومن أحصى هؤلاء القتلى، ولماذا قتلوا، وهذا ليس دفاعاً عن الحجاج، وإنما للحقيقة، وكقولهم: قتل أبو مسلم الخراساني ألف ألف، وقد أورد ذلك الذهبي يعني: قتل مليوناً.

وهذا أبعد وأبعد، واعلم أن العواطف تجنح عند الأرقام، والنفوس مولعة بالعجائب والغرائب، فتحب التهويل في النقل، وتنسى التحقيق والتمحيص ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١].



الكتاب الذي لا تفهمه يضيع وقتك

طالعت بعض الكتب في الفلسفة والمنطق فوجدتها شائكة بعيدة المنال لمن لم يتخصص في هذه الفنون، وقضية الوقوف الطويل مع هذه الكتب ضياع للعمر الغالي النفيس، واعلمْ أن الكتاب الذي لا تفهمه إنما تصرف ساعاتك عليه في غير طائل، ومثل ذلك بعض كتب أصول الفقه، فإن فيها من الرموز والألغاز واختزال الكلمات وتصعيب العبارات ما أظنه أبعد شيء عن الشريعة السهلة الميسرة السمحة، والتشاغل بهذا إجهاد للذهن، وكد للخاطر، والقلوب إذا كلّت عميت، فاقرأ ما تفهم من الكتب فإن في ذلك كفاية وشغل شاغل لك، وانتبه لمسألة العمل بالعلم فهو المقصود، وبيت القصيد. والله الموفق.

الحياة قصيرة فلا تقصرها أكثر

بعض الناس عنده مقدرة عجيبة في تكدير خاطره، وجلب الهم والغم لنفسه ويجيد فن الخيالات الفاسدة لذهنه، فكم يصفو له من هذه الحياة إذا كان دائماً يتذكّر الماضي بآلامه، ويتوقع حوادث المستقبل، وتمرضه كلمة مؤذية سمعها من حاسد، ويحقد على كثير

غمطوه حقه، ويغضب على زوجته المسرفة ويثور على ابنه لمخالفته أمره، ويحزن على مال سبق أن فقده، وهو خائف لأنه يظن أن مرضاً ما سوف يصيبه، ويستمر في جمع هذه القائمة من المصائب والأحزان.

فيا من أراد السعادة والراحة لا تقصر حياتك فهي قصيرة أصلاً، عش في حدود يومك، ولا تبك على ما فات، واترك المستقبل حتى يأتي، ولا تلقِ بالاً لكلام الحسّاد، وتوكل على الله، فهو حسبك، وكفى هموماً وغموماً وأحزاناً.

تعقيـــد العقيـــدة

كان السلف يدرسون مسائل الإيمان من الكتاب والسنة سهلة ميسرة غضة طرية، ففهموها وعملوا بها، وأثرت في حياتهم، وعلى ذلك سار علماء الأُمة كابن خزيمة، وابن تيمية، وابن القيم، والإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب، ولكن هناك كتب أغرقت في الردود، وحشد كلام المبتدعة في كل مسألة من مسائل الإيمان، واستعراض أقوال الطوائف الضالة، والرد على كل نحلة ومقولة، وهذا الأمر مجند لطائفة خاصة لكن لا يكون منهج دراسة للجيل، ولا كتاب تعليم للعامة، لأنه يورث الحيرة والشتات، وتعسير العلم، وإتعاب القلب.

الاهتمـــــام

في الأَثر: «من أصبح والدنيا همه، فرَّق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلاَّ ما كتب له، ومن أصبح والآخرة همه، جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة».

والشاهد هنا مسألة الهم وهو الاهتمام بالشيء والتشاغل به والحرص عليه ومعايشته.

إن الاهتمام أن ينصهر قلبك بحب ما تصبوا إليه، ويضطرم فؤادك بقضيتك، وتتألّق نفسك بمرادك، تفكّراً... تأملاً... اهتماماً... معايشة... التفاتاً بالكلية بحيث يستغرق هذا الأَمر لُبّك، وخواطرك، وواردات نفسك، فتكون كالمذهول بهذا الشيء، المغرم بذكره المشغوف به دائماً.

وإن تعجب فعجب اهتمام المحدِّثين الأَوائل بحديث رسول الله ﷺ طلباً، وحفظاً، ومدارسة، ورواية ودراية حتى ذهبت فيه الأَعمار والأَموال واستعذب في سبيله العذاب، وحسي من أجله كأس الضنا، فهذا يجوب الأَقطار، ويركب الحمار، ويمتطي القفار، ممزق الثياب، حافي القدمين، جائع البطن، طافىء الكبد، ذابل الشفه، همّه أَين يسمع كلمة حدَّثنا أو أخبرنا، حتى إن أحدهم سمع كلمة حدثنا وهو في مرض الموت فقال: أَجلسوني. فأَجلسوه متمثل بقول الأَوّل:

سقوني وقالوا لا تغن ولو سقوا جبال سليمىٰ ما سُقيت لغنّت

ومحدِّث آخر يقرأ كتابه، فيغيب بذهنه، وفكره، ومشاعره، عن أهله، وهو معهم جالس لكن فؤاده ارتحل، ولبّه انتقل:

هجرنا، ونام الركب، والليل مسرف وما نمت عن ذكراك يا أعذب المنىٰ!

إنّ في قلب الواحد منهم لوعةٌ عارمة، واضطرام هدّار، وحرقة هائلة، لأَنهم ذاقوا الحديث، وأحبوه حبًّا تذوب له المهج، ولذلك كان هذا العطاء الضخم المبارك الفيّاض.

إن الاهتمام بالشيء طريق إلى النجاح والتفوّق، ونيل المراد، فالاهتمام يدرك كنه هذا الشيء، سواءً كان علماً، أو عملاً، أو مهنة، أو صناعة، أو أدباً، أَو فناً.

ومن أَراد أَن يبرع في مضمار، وأَن يبرز في ميدان، فما عليه إلاَّ أَن يختار طريقه، وما يناسب حياته، ومواهبه، وإمكاناته، ثم بعد هذا يولي هذا الطريق همَّه؛ بل حياته، فيتفاعل، ويثابر، ويجدُّ، ويعطي حتى يحصل على ما أراد.

إن الفاشلين في العلم هم الذين لا يعلمون من المعرفة إلاَّ أَمانيّ وإن هم إلاَّ يظنون، لم يجدوا طعم اليقين، ولم يشمّوا رائحة المعرفة، ولم يروا أعلام الحقيقة، ليس عندهم إلاَّ أَلفاظ بلا معانٍ، وصورٌ بلا حقائق، وقوالب بلا قلوب؛ لأَنهم جاءوا إلى العلم ببرود، وذهول، وترهّل، وبلادة، فما التفت لهم العلم، وما منحهم شيئاً لأَنهم ليسوا أهلاً له: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم

مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]. ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢]. وهي قوة الاهتمام، والإعزاز، والإقبال، والاحتفاء.

قوّة اندفاع القلب، وجدية الروح، وتوقّد الخاطر بقوةٍ هكذا لا بضعف، لأَن الأَخذ الضعيف ينتج ثمرة ذابلة، وعطاءً أَجول، ومحصولاً زهيداً.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، هكذا يمسّكون فهو الحرص كله، والاهتمام أجمعه، والاحتواء، والتلهّف، فهم يمسّكون بالكتاب الحق، المنزّل بما فيه من البينات بقلوبهم، بأَفكارهم، بأَعمالهم، بأَقوالهم، بجهادهم، بوقتهم، لا ثمن للتافهين في الحياة، ولا وزن للباردين، إنّ محلهم في الصفوف الخلفيّة أَبداً، وإن وضعهم الطبيعي في الحضيض، لأَنهم رضوا بأن يكونوا مع الخوالف.

إن أعداء الله المنافقين يصلّون، ولكنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالىٰ، فتورٌ والتواء، وبرودٌ واستخذاء، إن عمل الجادين المثابرين الصادقين حرارة، لأَن الوقود همة هناك في القلب وعزيمة في الروح.

إن الذي يأتي إلى كتاب الله العظيم ليحفظه، ويتدبره، ويستفيد منه ثم لا يوليه إعزازاً، واهتماماً، وتعظيماً، وتضحية بالوقت، والفكر، والانتباه، يحصل من هذا المعين المبارك على قدر جهده فحسب، لا وكس، ولا شطط.

أَما ذاك المقبل بشوق، التّالي بحب، ذو العاطفة الجيّاشة، والفؤاد المشبوب، والهمة العارمة، والرغبة الملحّة، فلا تسئل كم هي مكاسبه وكنوزه، لأَنه صادق في توجهه، مخلص في إقباله، جادٌّ في سعيه ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها   تنال إلا على جسر من التعب

لا ينال خير الدنيا والآخرة إلاَّ بصبر وجهاد، وتضحية وسهاد، وملازمة وإصرار، وهجر للمألوفات، وترك للشهوات، وعكوف على الخدمة.

فالتصدق بنوم الجفن، وإهداء الكرىٰ على الدجىٰ سهلٌ على من خطب أَعلى المقامات، وتاق لأَرفع الدرجات:

متيم بالندىٰ لو قال عاشقه   هب لي فديت كرى عينيك لم ينم

ومن أحسن صفات المثابرين تطلعهم الدائم لمرادهم العزيز، وسهرهم في سبل أمنيتهم الغراء، من إصلاح، أو علم نافع، أو عمل مثمر.

إنَّ خسة الطبع توحي لصاحبها بالدعة والخمول، والتثاؤب، وتزين له حب السلامة، ورغد العيش، وطعم البقاء، ولكن في يقظة للعقل، وانتباه للخاطر يعلم المرء مقدار خسارته، وحجم تفريطه.

ما أسرع الزمن، ما أقرب الآتي، ما أكثر التسويف.

ومن علم أن قوله سبحان الله وبحمده بنخلة في الجنة، فما أعظم غبنه إذا غفل عن التسبيح.

ومن تيقن أنه يُقال لحافظ القرآن: اقرأ، وارتق، ورتل، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها، كيف تنام له عين، أو يغمض له جفن، وهو ما حفظ القرآن كله، وما استظهر المصحف جميعه، ونعوذ بالله من رقدة الغافلين اللاَّهين.

قيمتك ما تحسنه!

هي كلمة لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه وأَرضاه ـ: قيمة كل أَمر ما يحسن، لا ثمن للحمه، ولا لدمه، ولالثيابه، إنّما هناك جوهر آخر ومعنىً ثانٍ به توزن القيم، وتقاس الأَشياء.

إنّ قيمة الإنسان إحسانه وإبداعه وتفوقه، قيمته علمه وكرمه، وحلمه وإيمانه، وجهاده وأَدبه، ونبله، وهلم جرا من هذه الصفات، والأَلقاب، والأَوسمة.

فلماذا لا يزيد الإنسان من قيمته؟! ولماذا لا يغالي بثمنه؟! فيضاعف جهده في طلب المزيد.

صاحب العلم واجب عليه أَن ينقّب في السطور، ويحادث المصنفات، وينافس العلماء، ويعكف على الدفاتر، ويغوص في أَغوار الكلمة.

العابد يهتبل الفرص، ويغتنم اللحظات، ويدمن الخدمة.

الماهر في مهنته يدرس أسرارها، يطالع مساربها، يفكّر في صقلها. ومع الأيام والليالي يزداد العطاء، وتعرف الزيادة، ويبين الربح.

إنّ الحياة لا تعترف باللاَّبثين في أَماكنهم، القابعين في ثكناتهم؛ بل علواً علواً، وصعوداً صعوداً، حتى يؤدِّي رسالته في الحياة، ويجيب عن سؤال فاطره، ويلبِّي مراد النشأة الأولىٰ، والمطلب الحق ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: ٣٦]. وانظر إلى هذا العالم المتلاطم كمن هو عاطل، مدثر بجهله، راضٍ بحاله، سادرٌ في غفلته.

إشراقات القرآن

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦﴾

١ ـ لفظ الجلالة هنا يشير إلى الأُلوهية التي نازع فيها المشركون، والخطاب معهم لأنهم مقرون بالربوبية، ولذلك ختم الآية به فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ وإنما ذكر الحبَّ والنوىٰ لأَنَّ النبات والشجر فصيلتان مختلفتان فبذر المحصول الحب وبذر الباسق النوى.

٣ ـ جاءت هذه الآيات وفيها معاني النماء والإحياء بعد الإماتة والهلاك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ. . .﴾.

٤ ـ قال هنا: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ ثم قال: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ فلِمَ ذكر الفعل في إخراج «الحي من الميت» وهو (يخرج)، وأَتى بالاسم في «الميت من الحي» فقال: (مخرج)؟ لأَن الفعل يقتضي الحدوث ولو قليلاً، والاسم يقتضي الاستمرار دائماً، والكثير وهو الأَصل «إخراج الميت من الحي» وهذا معلوم في الكائنات، أَما إخراج الحي من الميت فهذا يقع وليس بالكثير، وليس هو الأَصل.

٥ ـ وعطف ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ على «فالق الإصباح» عطف اسم على اسم، لأَن فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت، لأَن النامي في حكم الحيوان بجامع الإحياء، ألا ترىٰ إلى قوله: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الحديد: ١٧]؟

٦ ـ وقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ ولم يأت: «يفلق الإصباح» لأَنَّ الاسم أقوى في الدلالة من الفعل، ولأَنَّ هذا دائم مستمر، ولأَنه سهل يسير عليه سبحانه، لأَن لفظ: «يفلق الإصباح» يوحي بشيء من المشقة تعالى الله عن ذلك.

٧ ـ وكلمة: «فلق» وهي الفصل بين الشيء المجتمع، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣]، وهي غير قطع وفصم وفصل وبتر وقصم.

٨ ـ فما معنىٰ فلق الصبح والظلمة هي التي تنفلق عن الصبح كما قال أبو نواس:

كـــأنَّ بقـــايـــا مـــا عفـــا مـــن حبـــابهـــا
تفـــاريـــق شيـــب فـــي ســـواد عـــذار
تـــردّت بـــه ثـــم انفـــرىٰ عـــن أديمهـــا
تَفـــري ليـــل عـــن بيـــاض نهـــارِ

قيل: فيها وجهان: الأَول:

أن يُراد: فالق ظلمة الإصباح، وهي العيش في آخر الليل.

والثاني: أَن يُراد: فالق الإصباح الذي هو عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره، وقالوا: انشق عمود الفجر، وانصدع الفجر، وسموا الفجر فلقاً بمعنىٰ مفلوق قال أبو تمام:

هٰـــذي مخـــايـــل بـــرق خلفـــه مطـــر
جـــود وروى زنـــاد خلفـــه لهـــبُ
وازرق الفجـــر يبـــدو قبـــل أبيضـــه
وأوّل الغيـــث قطـــر ثـــم ينسكـــبُ

٩ ـ الجامع لهذه الآيات والصور والمشاهد هي مسألة الإحياء والإخراج، ففلق الحب والنوىٰ إحياء وإخراج، والحي من الميت والميت من الحي إحياء وإخراج.

١٠ ـ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ..﴾ الآية وقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ جمع بين قدرته سبحانه وتعالىٰ في الأجسام والمعاني والذوات والأعراض والزمان والمكان، وهذا كثير في سورة الأنعام، فإن بدايتها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] فجمع بين الزمان والمكان

والجسم والعرض فقدرته نافذة في الجميع لا إلٰه إلاَّ هو.

١١ ـ في قوله تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ﴾ لم يذكر النهار على خلاف الغالب في القرآن، فعند الليل يذكر النَّهار غالباً أما هنا فلم يذكره لأَنه اكتفى بذكر الإِصباح الّذي هو أَول النهار.

١٢ ـ وآية القدرة في فلق الحب والنوىٰ أَنه لا يستطيعه أَحد من الناس وهو سر من أسرار العظمة ، فإِن المزارع يستطيع إِحضار الماء والتربة الخصبة واختيار زمن البذر، ولكن فلق الحبة والنّواة فوق قدرتهِ، فكان هذا تلويحاً بالعظمة تذكيراً بالقدرة، وقد كشف علم النبات الحديث عن مسألة اهتزاز الأرض هزة خفيفة لتنفلق الحبة ويحصل الإنبات ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

١٣ ـ في قوله تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ استحضار لصورة الإِخراج لأَنها تتم شيئاً فشيئاً، وهذا يؤدّيه الفعل المضارع لا اسم الفاعل، فحسن هنا إِيراد الآيتين بالفعل المضارع لأَن في المسألة تدرّجاً.

١٤ ـ قرأ الحسن «الأَصباح» بفتح الهمزة جمع صبح ومنه قول امرئ القيس:

ألا أيهــا الليــل الطــويــل ألا انجلــي
بصبــح ومــا الأَصبــاح منــك بــأمثــل

على الوجهين بالكسر والفتح للهمزة.

وعلى قراءة الحسن فالأَصباح كثيرة بالنسبة لمطالع الشمس

والقمر والكواكب كالمشارق بتعدد أنواعها.

١٥ ـ وحسن قوله عز من قائل: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ لأَنه لما ذكر آياته وقدرته وعرضها عليهم وأقام عليهم الحجة ووضحت لهم المحجَّة فمن الغريب العجيب انصرافهم عن الإِيمان وانحرافهم عن الهداية.

١٦ ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ أن الأحياء تسكن فيه وتهدأ أو ترتاح فهو ظروف لسكونها ووقت لنومها وراحتها.

١٧ ـ وأما كون الشمس والقمر حسباناً فالشمس لحساب الأيام، والقمر لليالي، وقيل: الشمس والليل والنهار والقمر للسنوات، والساعات تحسب بالشمس والأبراج بالقمر.

١٨ ـ وحسن ختام الآية بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ لأنه عزَّ هنا فقهر الشمس والقمر وسخَّرهما وعلم فقدَّرهما ودورهما ودبَّرهما بحساب دقيق.

والله أعلم.

مع عمر بن الخطاب

أسلم عمرُ قوياً، وهاجر قوياً، وقتل قويًّا، شمر قميصَه في اليقظة فجره في المنام، أَراد ﷺ أَن يدخل قصرهَ في الجنة فذكرَ غيرتَه فلم يَدخُلْ.

انتقلَ من عميرٍ إِلى عمرَ، إِلى الفاروق، إِلى أَميرِ المؤمنين.

إسلامهُ فتح هزَّ مكة، ووقفَ النصرُ على بوابة مدينة الإِسلامِ مناديًّا: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحجر: ٤٦].

وهجرتهُ نصر لأَنّه هاجر متحديًّا شامخاً ظاهراً، وخلافتهُ رحمة لأَنه أَولُ الجائعين والمساكين والزاهدين.

شكــراً لــذاك الفــذِّ ليــتَ حيــاتــهَ
طــالــتْ وليــتَ سنينــه أَحقــابــا

وضع يمينه في يمين الرسول ﷺ في دار الأَرقم بن أَبي الأَرقم، فعزَّ الإِسلام، وارتفعت الأَعلام، وانهزمت الأَصنام، واندك الباطل، وسحق الزيف، وقمعَ الضلال، وغربت شمسُ الزور.

وضعها في يمين أَبي بكر في سقيفة بني ساعدة، فساد الأَمن، وتوطدت الخلافة، وحسُمتْ الفتنة، كسر بسيف الشرع ظهر كسرى، وقصر بالحقِّ آمالَ قيصر، وأَرهق بكتائب الله هِرقَل.

إِذا سمعَ الباطل أَزبدَ وأَرعَدَ، وتهدّد، وقام وقعد، وأَنجز ما توّعد، وإِذا سمع القرآن بكى وشكى وتململ وتزلزل.

كان عمرُ في جبين الدهر دُرَة، لأَنه قرع الظلم بالدِرَّة، فلله دَرُّه.

حلــفَ الــزمــانُ ليــأتيــنَّ بمثلــهِ
حنثــت يمينــكَ يــا زمــانُ فكفِّــر

خافَ منه الشيطان، وارتعد لرؤيته الهرمزان، وانتهت به دولة آل ساسان.

أَيــا عَمــر الفــاروق هــل لــك عــودةٌ
فــإن جيــوشَ الــروم تَنهــى وتــأمــرُ
تنــاديــكَ مــن شــوق مــآذن مكــة
وتبكيــكَ بــدرٌ يــا حبيبــي وخيبــرُ

دِرَّتهُ لله درُّها، وما أَدراك ما هي: درةُ عمر لخفق رؤوس الضلال، وضربِ أَكتاف الظَلَمَة الجُهَّال، وتأديبِ العمال.

قميصُ عمر مرقَّع تغيَّرَ لونهُ بدمِ عمرَ يومَ طُعن، فصاح لسانُ حالِ عمر: اذهبوا بقميصي، وائتوني بكَفنِ فقد مَللتُ الحياة.

طاشَ عقلُ صبيغُ بن عسلِ بالترهات وفاش، فأحضرَ عمرُ الدِرة، وخفقه حتى فقد وعيه ثم أَيقظه وقال: كيف تجدك؟ فصاح: أصبحنا وأَصبح الملك لله.

تشفــى بسيفِــكَ داء النــاكثيــن لــه
وتجعــل الــرمــحَ تــاجَ الفــارسِ البطــلِ

طُعن في الصلاة، وماتَ في المحراب، ودفن في الروضة:

بنفسي ذاك الربع ما أَحسنَ الربى
ومـا أحسـنَ المصطـافَ والمتـربَّعَـا

هُدّمت به قصورُ فارسُ لأَنَّ بيتهَ من طين، وكسرتْ به سيوف رستم لأَنَّ في يده درة، وخلعت به تيجان آل كسرى لأَن قميصه مرقّع.

له ثلاث وقفات، وثلاث رؤى، وثلاثُ كلمات، وطعن بثلاثِ طعنات.

وقفة يوم أَسلمَ ويومَ هاجرَ ويوم بايع الصدِّيق، ورؤيا القميصِ يجرُه في المنام، ورؤيا قصرِه في الجنة، وطعنة الشهادة والبطولة والانتصارِ.

تعرضَ للموتِ في كُلِّ مكان، فما وجده إلا في المحراب، دوَّخ ملوكَ العالمِ فقتله عبد، قُتِلَ ساجداً لأَن قاتله لم يسجد أَبداً، خرج اللبنُّ الذي شربَه يوم طُعن، لأَنه اكتفى بفضل ما شربه من لبنِ الرسول ﷺ.

فـي عـروق الحـبِّ يسـري دافقـاً
مـن دمـاءِ الجـرحِ أو دمـعِ الحبيـب

يقول وهو يتنهد: يا ليتني كنتُ شجرةً فأُعضد، فنال الشهادةُ في المسجد:

وفـاة قـامـتِ الـدنيـا تعـزى   ونـاح الـدهـرُ واهتـزَّ الـزمـانُ

وافق الوحي، وخالفَ الهوى، وتابعَ المعصوم، وتلا الصدِّيق،

وسبق الملوك، وصَحِبَ العدل، وجدَّ في الأمر، وعزمَ على الرشد.

في الصلاة باكياً، في المعركة غاضباً، من الدّنيا واجماً، إلى الآخرة ضاحكاً، إلى الرعية قريباً.

عُمرُ كالطائرِ الحذرِ لا يصاد بالشباك، ولا يقع في الأَشرَاك، ولا يهبط على الأشواك.

لمّاحٌ يقظٌ نبيه، جاءته كنوزُ فارسَ والروم، فوزعها على القوم، رفضَ الديباج لأنه على منهاج، لا يرى لُبسَ الحرير، ولا الجلوس على السرير، ولا أكلَ الطرير، لأنّه تلميذُ البشير النذير، إن وجد ضالاً نصَحه، وإن عاندَ مكابرٌ بطحه، وإن انتشر ضلالٌ فضحَه.

سمِع الوحي فقال: الله أكبر، وقرقر بطنه من الجوع فقال: قرقر أو لا تقرقِر، فبقر في سبيل الله بالخنجر، طالت همته فقصر أَملُه، وكبرت نيتُه فصغرت نفسُه، واتسع فهمُه فضاق وهمُه، كان للظلم بالمرصاد، فكم من ظالم قد صاد، ظنُه يقين، لأنه صحبَ الأمين، وردَّدَ وراءه آمين.

قيل له الرومُ بالجيوش رموك؛ فقالَ الموعُد اليرموك؛ أَطلق كسرى الرصاص، فكتب عليه القِصاص، وأرسلَ له سعدَ بن أبي وقاص:

رمـى بـك الله ركنيهـا فحطمهـا   ولو رمى بك غيرُ الله لم يُصبِ

جاعَ يومَ الرمادةِ حتى شبعت الرعيّة، ولبسَ المرقّع حتى توشح الناسُ بالأَقبية، وقُتِلَ حتى تحيا المِلّةُ، فلا تموت أبداً.

جزى الله خيراً من إمام وباركت　　يـدُ الله فـي ذاك الأَديـم الممـزّقِ

هو بابٌ دون الفتنة كسر، فدخلت منه الطوائف، كلما دخلت منه أُمّة فاقت في الشرِّ أختها، أَرادَ أَهلُ الضلال العبث في الكتابة، فضرب بينهم بسورٍ له باب، خرجَ من الدُّنيا فأَطلَّت برأسها الخوارج، ورفَضَ العيشَ فأقبلتِ الرافضةُ، ولقي قدرَه فعشعشتِ القدريّة، افترسَ فارسَ بسعد الفوارس، ورمي الرومَ بخالدٍ فطاش راميها، وبعثر سجستان بالنعمان، وأَرغمَ هرقلَ وأُنو شروان، وجبى خزائنهما، يخرُج منهما اللؤلؤ والمرجان.

قُتِلَ عمرُ ولكنّه عاش، وارتحل لكنه أقام، هو فينا في ضمائرنا، في عروقنا، في دمائنا، في قلوبنا، في عيوننا، في الأَبطال، في الرجال، في الأَطفال.

فكيـف تـذهـب يـا مـن حبُّه أبـداً　　في كلِّ قلبٍ وهل للحبِّ من أجلِ

عمـر: الحـزمُ عنـد ورود القلـق، والعـزمُ مـع طـائـف التـردد، واقتناص الفرصة قبل أَن تدبر، قويٌّ حتى تضعف صولةُ الباطل، شديدٌ حتى تلين قناةُ الزور، صعب حتى تسهل طريقُ النجاح، همُّه تحقيق العدل، ورسوخ المساواة، وحفظُ الحقوق، وكسرُ أنفِ الأَنَفَةِ، وقمعُ جولة الجبروت، عنده حكمةُ للقلوب، ودرة للأكتاف، وسيفُ للرقاب، طبت يا عمرُ حيًّا وطبت ميتاً لبستَ جديداً وعشت حميداً، ومت شهيداً.

ألا بذكر الله تطمئن القلوب

الصدق حبيب الله، والصراحة صابون القلوب، والتجربة برهان، والرائد لا يكذب أهله، ولم يوجد عمل أشرح للصدر وأعظم للأجر كالذكر ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وذكره سبحانه جنته في أرضه من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وهو إنقاذ للنفس من أوصابها وأتعابها واضطرابها، بل هو طريق ميسّر مختصر إلى كل فوز وفلاح. طالع دواوين الوحي لترى فوائد الذكر، وجرِّب مع الأيام بلسمه لتنال الشفاء.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ... ونترك الذكر أحياناً فننتكس

بذكره سبحانه تنقشع سحب الخوف والفزع والهم والحزن، بذكره تزاح جبال الكرب والغم والأسىٰ.

ولا عجب أن يرتاح الذاكرون فهذا هو الأصل الأصيل، لكن العجب العجاب كيف يعيش الغافلون عن ذكره ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢١].

يا من شكىٰ الأرق وبكىٰ من الألم، وتفجّع من الحوادث، ورمته الخطوب، هيا اهتف باسمه المقدس، هل تعلم له سمياً.

الله أكبر كل هم ينجلي ... عن قلب كل مكبِّرٍ ومهلّلِ

بقدر إكثارك من ذكره ينبسط خاطرك، يهدأ قلبك، تسعد

نفسك، يرتاح ضميرك، لأن في ذكره جل في علاه معاني التوكل عليه والثقة به والاعتماد عليه والرجوع إليه، وحسن الظن فيه، وانتظار الفرج منه، فهو قريب إذا دُعي، سميع إذا نُودي، مجيب إذا سُئِل، فاضرع واخضع واخشع، وردد اسمه الطيب المبارك على لسانك ثناءً ومدحاً ودعاءً وسؤالاً، واستغفاراً، وسوف تجد بحوله وقوته السعادة والأَمن والسرور والنور والحبور ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

مغبون فيهما كثيرٌ من الناس

قل للجالس معافىً فارغاً: لماذا لا عمل وتجتهد؟ قل للشاب القوي البنية البهي الطلعة: مالك لا تذهب شبابك فيما ينفع وتصرف عمرك فيما يفيد؟!

الناس في زماننا ـ إلاَّ من رحم الله ـ أبناء عوائدهم، وعبيد طبائعهم، حديث طويل عن الدنيا والنساء والتجارة، والكسب، والطقس، والبناء، والحوادث، كم من ساعة تهدر في هذا الحديث الطويل الثقيل المملِ؟! فإن وافقت مجاملة ضاع عمرك، وذهبَ دينك، وقسا قلبك، وطاش لبك، وإن خالفتهم وقطعت عليهم لذتهم في المجلس مقتوك، واستثقلوك، وكرهوك، فَلِمَ تجعل دينك وعمرك هدفاً لهؤلاء، وسياجاً سهلاً لكل فارغ لاهٍ لاغ؟!

لن يدافع عنك أحد منهم عند الله، لن يتصدّق منهم أحد عليك

بحسنة، بل أَدهى من ذلك لو طلبت أَحدهم درهماً أَو ديناراً، لتذمَّر منك، وأَزبد وأَرعد، فلم التشاغل بالله عليك بهم؟!

السيـــــاســــــة

أَعاذنا الله وإيّاك من ساس يسوس فهو سائس، فإنّ السياسة ما مزجت قلباً إلاّ أَزعجته، وما خالطت عقلاً إلاّ أضعفته، تذهب بهاء العلم، ورونق النسك، لها سعار في القلب كداء الكلبِ في الجسم، وخمار على الذهن كسكار الخمر، من شرب منها شربة لم يجد ريح العافية.

السياسة قتلت الحسين، وصلبت ابن الزبير، وذبحت سعيد بن جبير.

وهي التي عطلت حلقات العلم، ودروس الوعي، وكتاتيب المعرفة.

السياسة كالحرباء له كل يوم لون، وكالحية لينة الملمس قاتلة السم، وكالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، سرها: طلب الرياسة، وشهوة التصدر، ومرض الظهور، وظاهرها: إنقاذ الناس، وإصلاح العالم، وإسعاد البشر.

من تجرد لها بلا تقوى من الله ورضوان نسي آخرته وباع دينه، وخسر حظه، وأضاع نصيبه، وأَزهق روحه، وفقد رأسه.

السياسة المجردة من نور الوحي، وبرهان الشرع، وسلطان

الملة، زخرف من القول وغرور، وبهرج من النفاق، وزيف من الباطل، وركام من الكذب. ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ [النور: ٤٠].

السياسة بلا شريعة استباحة للدماء، ونهب للأموال، واستعباد للبشر، ثلاث عورات لكم!

وهي فخ للأبرياء ومصيدة للحمقى.

المفتون بها إن تتركه يلهث، وإن تحمل عليه يلهث، يسفك الدم بحجة حماية الديانة، ويسلب المال بذريعة حفظ حقوق الناس، ويسترق البشر بحيلة جمع الكلمة.

كان الأبرار يفرون من السياسة وأبوابها والدنيا مقبلة، والدهر مساعد، والعطاء جزل، والزمان في شبابه، يُطلبَون فيفرّون، وتعرض لهم الرغائب فيأبون، فخلف من بعدهم خلف تزاحموا على أبوابها وهي مغلقة.

إلا أمم أمثالكم

مما ذكره بعض المفسِّرين، ونوه به الجاحظ في الحيوان في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: ٣٨] أن المعنى تشابه الناس والدواب والطير في الصفات، فتجد بعض الناس فيه شبه من أخلاق الدواب والطير، فمنهم الشجاع المقدم

كالأسد، ومنهم المراوغ كالثعلب، ومنهم الصبور كالجمل، وآخر بليد كالحمار، وعلى ذلك فقس. وهذا التفسير للآية منسوب لسفيان بن عيينة، والله أعلم.

عليك بالنظر في العواقب

ذهب الكتّاب وبقيت كتابتهم، وذهب الشعراء وبقي شعرهم، وذهب الخطباء وبقيت خطبهم، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦]، وكلها: ﴿عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢]. رب قائل كلاماً لم ينظر إلى عاقبة ما قال فجر شراً كثيراً، وبلاءً مريراً.

إن هناك من يحصي الأنفاس ويعلم السرائر، ويطلع على الضمائر ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ [الكهف: ٤٩].

معنى الحياة

زرت قرية مزعل في بلدة القويعية، فوصلنا القرية ضحى، والناس مشغولون بأعمالهم منغمسون في وظائفهم، وتجارتهم ومزارعهم، فدخلنا مسجد القرية، وهي من طين لنزور شيخاً عابداً معمراً، فوجدناه جالساً مستقبل القبلة ناشراً مصحفاً، يتلو كتاب الله،

منقطعاً عن الدنيا، عازفاً عن زينتها، غافلاً عن أهلها، معرضاً عن أخبارها، مقبلاً على الآخرة، لا يريد سماع أخبار الناس، ولا أسعارهم ولا حوادثهم، فسلمنا، وجلسنا، فكأننا جئنا إليه من الدنيا وهو في الآخرة ومكثنا عنده وقتاً قصيراً يكفي لمعرفة قيمة الحياة، ومالها، ومناصبها، وزخرفها!! ووجدنا عنده معنى الحياة من الاستعداد للرحيل، والتهيئة للنقلة، والتشمير للسفر، وحفظ الوقت، والسلامة من الإثم، والتفكير في العاقبة، والعزلة عن الشر.

ثم عدنا إلى الرياض فإذا القصور الشاهقة، والدور الفارهة، والناس يتسابقون في سعار في جمع المكسب والتهافت على الحطام، ونيل الملاذ، لهو، ولغو، وغرور، وكبر، وخيلاء، ورياء، وتفاخر، وضياع أوقات، وشتات أمر، ومظاهر خادعة، وواجهات براقة، أَما الموت فما عندهم منه خبر، والآخرة ليس لسوقها طالب إلا من رحم ربك، فعلت بكثير من الجيل فعل سحر هاروت وماروت، وفراغ في الوقت أذهل الكثير عن الأَعمال والمكاسب، وتنافس في جمع الحطام مع قلة الخشية، وقسوة قلوب، وهجر للمقابر، وكثرة ذنوب.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

بَطُلَ الشعورُ، وفُقِدَ الإحساس، وقلَّ التفكر والمبنَّجُ لا يحس، والغافل لا يعي، والمخمور بسكار اللذات لا يدري:

كفــى حــزنــاً أن لا حيــاة تســرنــا

ولا عمــل يــرضــى بــه الله صــالــح

الذباب

دخل واعظ على ملك فلما اجتمع الناس أخذ ذباب يحوم على أنف الملك حتى أزعجه، فقال الملك للواعظ - يريد أن يحرجه -: يا فلان! لماذا خلق الله الذباب؟! فقال الواعظ: ليذل به أنوف الطغاة!! الذباب لا يقع إلا على الجرح، فعل متتبعي العثرات، متصيدي الزلات، يفرحون بالخطأ، ويسرون بالخلط ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

هذا الذباب الضئيل الدنس تحدّى اللهُ بخلقه الناسَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣]، والذي لا يستطيع أن يخلق ذباباً، أو يعيد ما سلبه الذباب لا يحق له أن ينازع ربه رداء الألوهية، ولا كساء الربوبية، بل يرغم أنفه في التراب، ساجداً للملك الوهّاب، عارفاً قدره، معتقداً تقصيره، منكسراً عند باب مولاه، وهذه هي منزلة العبد اللائقة به الواجبة عليه.

فسبحان القاهر فوق عباده، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون.

الدُّعـــــاء

ليتنا ندعو ربنا كثيراً، ليت ضعفنا يتصل بقوته، وفقرنا بغناه، وعجزنا بقدرته، لا شيء مثل الدعاء، لأنه طلب المدد ممن يملكه، والخير ممن هو بيده، ولا يزال العبد في خير ما دام يدعو، فإن تحقق المطلوب وإلا فالعبودية والخيرة فيما اختار الله عز وجل، فإن اختيار الله لنا أحسن من اختيارنا لأَنفسنا، فإن أعطى فهو فضل، وإن منع فهو عدل، ولابد من الرضا بأحكام الله حلوها، ومرها، خيرها وشرها، فما يقع شيء إلا بإذنه، والمصيبة أن يحجب العبد الدعاء فينساه، ويغفل عنه، فيبقى متعثراً، وإن حاجة أوجبت عليك الانطراح على عتبات الربوبية، لهي حاجة مباركة، فالزم الباب وأدم القرع وأدمن الوقوف، وتحر الإجابة، ولا تستبطئ الفرج، ولا تيأس من روح الله، واعلم أن مدة البلاء قصيرة، ومن المحال الدوام على حال، والدهر قلب، والليالي حبالى تلد كل عجيب، وربك كل يوم هو في شأن، وإذا اشتد الحبل انقطع، وإن مع العسر يسرا، والأَيام دول، وإذا بلغ الشيء حدّه انقلب إلى ضده.

زغل المشيخة

الظهور فتنة، والشهرة بلية، وحب التصدر مرض مزمن، ومنهم من مبلغ علمه بشت زاهي، وتمشيط لحيته، وطول سواكه، وتخشعه الظاهر، وطأطأة رأسه، وتنحنحه، وحبه لتقبيل الرأس، وكلمات التبجيل، وعبارات الإطراء، حتى لو ذكر له أَنه بركة الدهر لصدق، وأن الله يحفظ الأمة به لآمن، وأن الناس كبارهم وصغارهم يدعون له لأذعن.

عدوه اللدود من لا يعرف حقه، ولا يقبِّلُ جبينه، ولا يذكر جهوده، ولا ينوه بمناقبه، وخصمه العنيد من انتقده أو استدرك عليه، ولا حظ ملاحظة، فهو عنده سيء الأدب، عديم الذوق، ثقيل الدم.

إن سُئِلَ عن سؤال أجاب: سواء وافق الحق أم أخطأه، لئلا ينكسر جاهه، وإن سئل عن حديث نبوي أدلى بدلوه، لئلا يُقال: ما عرف.

إن جردت اسمه من الألقاب وألفاظ الحفاوة حفظها لك خطيئة لا تنسى، وإن مدحت شيخاً في مجلسه تذمَّر واحمر وجهه وغضب.

الكلام من عنده يبدأ وإليه ينتهي، أوهم نفسه أنه مُلِّمٌ بالفنون، جامع للعلوم، غائص على المعاني، فمثله لا يُوصف بالجهل، ولا يُضاف إليه التقصير أبداً، وهذا هو العجب كله والكبر بعينه، وهي آزفة

حلت به، ليس لها من دون الله كاشفة، فلابد من اتهام النفس، والإزراء بها، والنظر في عيوبها، فإن تحقيرها، ومقتها، والشعور بنقصها يقطع من مسافات السير إلى الله ما لا يقطعه قيام الليل، وصيام الهواجر، لأن مبنى العبودية على الانكسار، والخضوع، ولذلك أعطى آدم مَصْل الذنب ليستفرغ تخمة العجب. فلما ذهب عنه ما يجد نودي الآن عرفتنا.

وإنما دمر أساطين الطغيان، ورؤوس الضلال بثلاث كلمات: أنا لإبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، وعندي لقارون: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، ولي لفرعون: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾.

والنفس قد تكون حجاباً من دون الله بحيث يصرف لها شيء من النية والعمل، فيغضب لها، وينتصر للذاتها، ويجاب طلبها، ويطاع أمرها، وهي أمارة بالسوء، مخالفتها رأس مال الفوز، ومعاكسة مقصودها غاية السعي، ومنتهى الفلاح.

فيا من بُنِّجَ بالعُجْب، وخُدِّر بالكبر، ونُوِّم بالغفلة، أما سمعت بلال التوبة في فجر العمر ينادي من على منارة الإنذار: حي على الفلاح، فوضىء القلب بدمع العين، وأحضرْ صف المنيبين الأول لتسمع تكبيرة إحرام القبول، ويناديك رضوان الفوز ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: ٤٦].

سياسة العلماء في الدنيا ضعيفة في الغالب

الغالب على أهل العلم والدعوة والحسبة ضعفهم في سياسة الدنيا، وقلة خبرتهم في الحكم وما والاه، لأنهم صرفوا أذهانهم إلى التحصيل، ووجهوا فهمهم إلى العلم، ومن عانىٰ شيئاً أُوتي حكمته، وقل أن تجد عالماً ملماً بشئون الدِّين والدُّنيا خاصة ما يتعلق بشؤون الحكم، لأَن الحكم يحتاج إلى المراس والدربة أكثر من النقل، فلذا تجد الحاكم في الغالب وإن قل علمه بالدِّين أكثر حنكة ودربة وأشد تجربة ومراناً في الحكم من العالِم، لأنه لابس الأحداث، وعاش الوقائع، وتدرب مع الأيام، كما قال معاوية: لا حكيم إلا ذو تجربة.

وذكر الماوردي في أدب الدنيا والدِّين: أن الرشيد قال للأصمعي: نحن أعقل منك، وأنت أعلم منا.

وهذا كلام صحيح مليح، فتجد عند الحكام في الغالب من تقدير الأمور، ومعرفة العواقب والدهاء والخبرة بالحكم والناس ما لاتجده عند كثير من العلماء، مع علمهم وفضلهم وتقواهم.

وقد ولّى رسولُ الله ﷺ بعضَ أصحابه ولايات لغزارة عقولهم، وجودة أفكارهم، وحسن نظرهم، كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأبي سفيان، وترك غيرهم، لأن العلم والفضل شيء، والحنكة والدراية والذكاء بأمور الدنيا شيء آخر.

وقد ألمح ابن خلدون إلى ذلك في مقدمته في فصل: أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم، وأورد كلاماً مفاده قلة خبرة بعض أهل الحسبة في معرفة أمور الدول، والتبصر بالأمور، كاغترارهم بالدهماء، وانخداعهم بكثرة الغوغاء، وإقحامهم أنفسهم في المخاطر جهلاً بالعواقب، وهذا رأي سديد من ابن خلدون، ومن تصفح التاريخ وجد مصداق ذلك. حتى أن عمر رضي الله عنه لما عزل زياد بن أبيه عن الولاية قال: خشيت أن أحمل فضل عقله على الناس، لأن فرط الذكاء والدهاء، وغزارة الحنكة ربما أضرت بالرعية التي تحتاج إلى شيء من الغفلة عن الزلة، والتغابي عن العثرة، كما قال أبو تمام:

ليس الغبي بسيدٍ في قومه ... لكن سيد قومه المتغابي

حتى إنك تجد عند مروان بن الحكم وابنه عبدالملك، ومعاوية، وابنه يزيد، وزياد بن أبيه، وابنه عبيدالله من الدهاء والاحتيال واقتناص الفرص، وتدبير شئون الملك ما لاتجده عند كثير من صالحي الصحابة والتابعين وعلمائهم: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

والسياسة الدنيوية لها مراسم لا يقوم بها إلا من تقلبت به الحياة، وصارع الوقائع، وتعرض للنكبات، وتجرع الغصص كما قال أبو الطيب:

أحقهم بالمجد من ضرب الطلى ... وبالأمر من هانت عليه الشدائد

والعلماء في الغالب مشغولون بحلقات العلم، وحمل المحابر، وتكرار المحفوظ، والتفقه في الدليل، وإعمار الباطن، ومحاسبة

النفس، فعلمهم بسياسة الدنيا في الغالب قليل ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة: ١٤٨] وأعط القوس باريها:

فللمعــارك أبطــال لهــا خلقــوا — وللــدواويــن كُتّــابٌ وحُسّــابُ

لا تنتظر شكراً من أحد

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه — لا يذهب العرف بين الله والناسِ

خلق الله العباد ليذكروه، ورزق الله الخليقة ليشكروه، فعبد الكثيرُ غيرَه، وشكر الغالبُ سواه، لأَن طبيعة الجحود والنكران والجفاء وكفران النعم غالبة على النفوس، فلا تصدم إذا وجدت هؤلاء قد كفروا جميلك، وأَحرقوا إِحسانك، ونسوا معروفك؛ بل ربما ناصبوك العداء، ورموك بمنجنيق الحقد الدّفين، لا لشيء إلاّ لأَنك أَحسنت إليهم ﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [التوبة: ٧٤].

وطالع سجل العالم المشهود، فإن في فصوله قصة أب ربّىٰ ابنه وغذّاه وكساه وأطعمه وسقاه، وأدّبه، وعلّمه، سهر لينام، وجاع ليشبع، وتعب ليرتاح، فلما طر شارب هذا الابن وقوي ساعده، أَصبح لوالده كالكلب العقور، استخفافاً، ازدراءاً، مقتاً، عقوقاً صارخاً، عذاباً وبيلاً.

ألاَ فليهدأ الذين احترقت أوراق جميلهم عند منكوسي الفِطَر، ومحطِّمي الإِرادات، وليهنؤوا بعوض المثوبة عند من لا تنفذ خزائنه.

إن هذا الخطاب الحار لا يدعوك لترك الجميل، وعدم الإحسان للغير، وإنما يوطنك على انتظار الجحود، والتنكر لهذا الجميل والإحسان، فلا تبتئس بما كانوا يصنعون.

اعمل الخير لوجه الله، لأنك الفائز على كل حال، ثم لا يضرك غمط من غمطه، ولا جحود من جحده، واحمد الله لأنك المحسن، وهو المسيء، واليد العليا خير من اليدِ السفلىٰ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩].

وقد ذهل كثير من العقلاء من جبلَّة الجحد عند الغوغاء، وكأنهم ما سمعوا الوحي الجليل وهو ينعي على الصنف عتوّه وتمرده ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٥] لا تفاجأ إذا أهديت بليداً قلماً فكتب به هجاءك، أو منحت جافياً عصا يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، فشج بها رأسك، هذا هو الأصل عند هذه البشرية المحنّطة في كفن الجحود، مع باريها جلّ في علاه، فكيف بها معي ومعك.

أُعلِّمُــه الــرمــايــةَ كــل يــوم فلمــا اشتــدَّ ســاعــده رمــانــي

اطرد الفراغ بالعمل

الفارغون في الحياة هم أهل الأراجيف والشائعات لأن أذهانهم موزَّعة ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧].

إن أخطر حالات الذهن يوم يفرغ صاحبه من العمل فيبقى

كالسيارة المسرعة في انحدار بلا سائق تجنح ذات اليمين وذات الشمال.

يوم تجد في حياتك فراغاً فتهيأ حينها للهم والغم والفزع؛ لأن هذا الفراغ يسحب لك كل ملفات الماضي والحاضر والمستقبل من أدراج الحياة، فيجعلك في أمر مريج، ونصيحتي لك ولنفسي: أن تقوم بأعمال مثمرة، بدلاً من هذا الاسترخاء القاتل لأنه وأدٌ خفي، وانتحار بكبسول مسكِّن.

إنّ الفراغ أشبه بالتعذيب البطيء الذي يمارس في سجون الصين، بوضع السجين تحت أنبوب يقطر كل دقيقة قطره، وفي فترات انتظار هذه القطرات يُصاب السجين بالجنون.

الراحة غفلة، والفراغ لص محترف، وعقلك هو فريسة ممزَّقة لهذه الحروب الوهميَّة.

إذاً قم الآن صل أو اقرأ، أو سبِّح، أو طالع، أو اكتب، أو رتِّب مكتبتك، أو اصلح بيتك، أو انفع غيرك حتى تقضي على الفراغ وإنِّي لك من الناصحين.

اذبح الفراغ بسكين العمل، ويضمن لك أطباء العالم ٥٠٪ من السعادة مقابل هذا الإجراء الطارئ فحسب، انظر إلى الفلاحين، والخبازين والبناءين يغردون بالأناشيد كالعصافير في سعادة وراحة وأنت على فراشك تمسح دموعك وتضطرب لأنك ملدوغ.

لا تكن إمعة

لا تتقمص شخصية غيرك ولا تَذُبْ في الآخرين. إنّ هذا هو العذاب الدائم، وكثير هم الذين ينسون أنفسهم وأصواتهم وحركاتهم، وكلامهم، ومواهبهم، وظروفهم، لينصهروا في شخصيَّات الآخرين، فإذا التكلّف والصلف، والاحتراق، والإعدام للكيان وللذَّات.

من آدم إلى آخر الخليقة لم يتفق اثنان في صورة واحدة، فلماذا يتفقون في المواهب والأخلاق.

أَنت شيء آخر لم يسبق لك في التاريخ مثال، ولن يأتي مثلك في الدنيا شبية.

أنت مختلف تماماً عن زيد وعمرو، فلا تحشر نفسك في سرداب التقليد والمحاكاة والذوبان.

انطلق على هيئتك وسجيّتك ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]. ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] عش كما خلقت لا تغيِّر صوتك، لا تبدِّل نبرتك، لا تخالف مشيتك، هذّب نفسك بالوحي، ولكن لا تلغِ وجودك وتقتل استقلالك.

أَنت لك طعم خاص، ولون خاص، ونريدك أَنت بلونك هذا وطعمك هذا، لأَنك خلقت هكذا، وعرفناك هكذا «**لا يكن أحدكم إمعة**».

إن الناس في طبائعهم أشبه بعالم الأشجار: حلو وحامض، وطويل وقصير، وهكذا فليكونوا، فإن كنت كالموز فلا تتحول إلى سفرجل؛ لأن جمالك وقيمتك أن تكون موزاً، إن اختلاف ألواننا وألسنتنا ومواهبنا وقدراتنا آية من آيات الباري فلا تجحد آياته.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾

يا إنسان بعد الجوع شبع، وبعد الظمأ ري، وبعد السهر نوم، وبعد المرض عافية، سوف يصل الغائب ويهتدي الضال، ويفك العاني، وينقشع الظلام ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢].

بشر الليل بصبح صادق يطارده على رؤوس الجبال، ومسارب الأودية، بشر المهموم بفرج مفاجئ يصل في سرعة الضوء ولمح البصر، بشر المنكوب بلطف خفي وكف حانية وادعة.

إذا رأيت الصحراء تمتد وتمتد، فاعلم أن ورائها رياضاً خضراء وارفة الظلال.

إذا رأيت الحبل يشتد ويشتد، فاعلم أنه سوف ينقطع.

مع الدمعة بسمة، ومع الخوف أمنٌ ومع الفزع سكينة، النار لا تحرق إبراهيم التوحيد، لأن الرعاية الربانية فتحت نافذة برد وسلام.

البحر لا يغرق كليم الرحمن، لأن الصوت القوي الصادق نطق

بكلا إن معي ربي سيهدين.

المعصوم في الغار بشَّر صاحبه بأنه وحده جل في علاه معنا فنزل الأمن والفتح والسكينة.

إن عبيدَ ساعاتِهم الراهنة، وأرقاء ظروفهم القاتمة لا يَرَوْنَ إلاَّ النكد والضيقَ والتَّعاسة، لأَنهم لا ينظرون إلاَّ إلى جدار الغرفة، وباب الدار فحسب، ألا فليمدوا أبصارهم وراء الحجب، وليطلقوا أعنّة أفكارهم إلى ما وراء الأسوار.

إِذاً فلا تضق ذرعاً، فمن المحال دوام الحال، وأفضل العبادة انتظار الفرج، الأَيام دول، والدهر قُلّب، والليالي حبالىٰ، والغيب مستور، والحكيم كل يوم هو في شأن، ولعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً، وإن مع العسر يسراً.

الصلاة خير من النوم

أكثر من ترى في هذا الكون نائمين، ولو كانوا يأكلون، ويشربون، ويسرحون، ويمرحون، ولكنَّهم في رقدة الغافلين، وهناك يقظة أخرى غير الاستيقاظ من النوم، وهي يقظة القلب، فلا ينام بعدها أبداً، ولو أن كثيراً ممَّن ترىٰ استيقظت قلوبهم، وأيم الله لجدوا في السير، وألحوا في الطلب، فلا ترىٰ العالم إلاَّ منتبهاً، باحثاً، مطالعاً، ولا ترى العابد إلا عاكفاً، مسبّحاً، متبتلاً، ولا ترى العامل إلاَّ مستغرقاً في عمله، متفانٍ في مهنته، ولكن هيهات!! وقليل ما هم!!

كدح لطلب المعيشة منقطع النظير، وجهادٌ للحصول على اللقمة يُضرب به الأمثال، وبالمقابل فشلٌ ذريع في حقوق الروح وواجبات النفس.

أرواحنا جائعة لزادها المعنوي المثالي وهي تعرض نفسها على المنهج الحق الربّاني، وتنادي ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف: ٨٨].

المصحف على الرف، والسنة على الأدراج، والقلوب في ذهول بعيشها وسعيها الدنيوي، المغرق في الطلب والإلحاح والجشع، قدمت لنا الرسالة غضة طريّة ناعمة هل من محتضن لها؟!

ذُللت لنا قطوف الحكمة، فهل من قاطف لثمارها اليانعة؟!

إذا كنت مسلماً تقرأ ما يكتب، وغربت عليك شمس يوم ولم تتدبّر آيات من كتاب الله، وأَحاديث من سنة رسول الله ﷺ، فماذا يُقال لمن هذا فعله؟ وبماذا يفسّر من هذا وصْفُه؟!

الغافل مبنَّج لا يحس، إلاَّ بقدر ما يعرف أنه على قيد الحياة.

ذكاء في مرادات البطن، إقدام للحصول على الكسرة والغرفة والدرهم، ولو صرف مثل هذا الجهد في طلب زاد الحياة الآخرة لأصبحت منازل الكثيرين في الجنة كالكواكب الدريّة ينظر إليها الناس فهنيئاً أيُّها المثابرون المقدمون.

الحـــــب

الحب ماء الحياة، وغذاء الروح، وقوت النفس.

تعكف الناقة على حوارها بالحب، ويرضع الطفل ثدي أمه بالحب، وتبني الحُمَّرة عشها بالحب، بالحب تشرق الوجوه، وتبتسم الشفاه، وتتألّق العيون، بالحب يقع العناق، والضم، والوصال، والحنان، والعطف، الحب قاضي في محكمة الدنيا، يحكم للأحباب ولو جار، ويفصل في القضايا لمصلحة المحبين ولو ظلم، بالحب وحده تقع جماجم المحاربين على الأَرض، كأنها الدنانير لأَنهم أحبوا مبدأهم، وتسيل نفوسهم على شفرات السيوف، لأَنهم أحبوا رسالتهم، أحب الصحابة المنهج وصاحبه، والرسالة وحاملها، والوحي ومنزله، فتقطعوا على رؤوس الرماح طلباً للرضا في بدر، وأحد، وحنين، وهجروا الطعام، والشراب، والشهوات في هواجر مكة، والمدينة، وتجافوا عن المضاجع في ثلث الليل الغابر، وأَنفقوا النفائس طلباً لمرضاة الحبيب.

بالحب صاح حرام بن ملحان مقتولاً: **فزت ورب الكعبة**، بالحب نادىٰ عمير بن الحمام إلى الجنة مستعجلاً **إنها لحياة طويلة إذا بقيت حتى آكل هذه التمرات**، بالحب صرخ عبدالله بن عمرو الأنصاري: **اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى**، لما أحب الخليل عليه الصلاة والسلام صارت له النار برداً وسلاماً.

ولما أحب الكليم ﷺ انفلق له البحر، ولما أحب خاتمهم حن له الجذع، وانشق له القمر.

المحب عذابه عذبٌ، واستشهاده شهدٌ، لأَنه محب.

أحبـك لا تسـأل لمـاذا لأننـي أحبك هذا الحب رأيي ومذهبي

بالحب يثور النائم من لحافه الدافئ، وفراشه الوثير لصلاة الفجر، بالحب يتقدم المبارز إلى الموت مستثقلاً الحياة، بالحب تدمع العين، ويحزن القلب، ولا يقال إلا ما يرضي الرب، الحب كالكهرباء، في التيار يلمس الأسلاك فإذا النور، ويصل الأجسام، فإذا الدفئ، ويباشر المادة فإذا الإشعاع، الحب كالجاذبية به يتحرك الفلك، وتتصاحب الكواكب، وتتألّف المجموعة الشمسية، فلا يقع بينها خصام ولا قتال، بالحب تتآخىٰ الشموس في المجرة، فلا صدام هناك، ويوم ينتهي الحب يقع الهجر والقطيعة في العالم، وسوء الظن والريبة في الأنفس، والانقباض والعبوس في الوجوه، يوم ينتهي الحب لا يفهم الطالب كلام معلمه العربي المبين، ولا تذعن المرأة لزوجها، ولو سألها شربة ماء، ولا يحنو الأب على ابنه ولو كان في شدق الأسد، يوم ينتهي الحب تهجر النحلة الزهر، والعصفور الروض، والحمام الغدير، يوم ينتهي الحب تقوم الحروب، ويشتعل القتال، وتدمر القلاع، وتدك الحصون، وتذهب الأنفس والأموال، ويوم ينتهي الحب تصبح الدنيا قاعاً صفصفاً، والوثائق صحفاً فارغة، والبراهين أساطير، والمثل ترهات، لا حياة إلا بحب، لا عيش إلا بحب، لابقاء

إلا بحب، إذا أحببت شممت عطر الزهر، ولمست لين الحرير، وذقت حلاوة العسل، ووجدت برد العافية، وحصلت أشرف العلوم، وعرفت أَسرار الأشياء.

وإذا كرهت صارت كل كلمة عندك جارحة، وكل تصرف مشبوه، وكل حركة مشكوك فيها، وكل إحسان إساءة، المحب هجره وصال، وغضبه رضا، وخطيئته إحسان، وخطأه صواب.

ويقبح مِنْ سواك الفعل عندي وتفعله فيحسن منك ذاكا

مع عثمان بن عفان

تستحي منه الملائكةُ، ويحبُّه المؤمنون، ويكرهه المارقون، عثمانُ يساوي البرَّ والإحسان، والصدقةَ والقرآن، والصبرَ والإيمان:

وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفِّه على الناس حتى غيَّبتهُ الصفائحُ

بذلَ مالَه بلا مِنّة، وجمعَ القرآن والسنَّة، وصَحِبَ الحبيبَ في الجنَّة:

فُقْتَ الأنامَ بأخلاقٍ مهذبةٍ صِدْقُ الحديثِ وإنجازُ المواعيدِ

زحف الخطر فجهز جيشَ العسرة، وأَقبل الظمأ فشرى بئر رومة، وتقدّم الجوعُ فأطعم الناسَ في المسجد، ودهمه السهرُ فقام بالقرآن كلِّه:

كأنّكَ في الكتاب وجدتَ لاءً محرمةً عليك فلا تحلُّ
إذا حضر الشتاءُ فأنتَ شمسٌ وإن حلَّ المصيفُ فأنت ظلُّ

سموحٌ صفوح، لا يطالب بالثأر، فجرح بسيوف الثوار، زوَّجه ﷺ ابنتين، واشترىٰ نفسه مرتين، وبايع لخليفتين، فاستحقَّ لقبَ ذي النورين.

غاب عن بدرٍ فناب عنه المسلمون، وذهب يومَ العقبة في المهمة فناب عنه الإمام الأعظم، إن غاب حضرت أعمالُه، وإن شهد حسنت خِلالُه.

جهّز جيش العُسرة، فسمع المعلم الأطهر يقول على المنبر: «**اللهمَّ ارضَ عن عثمانَ، فإني عنه راض**».

وتكفَّل بمؤنةِ القـــوم، فكوفـــئ، بـ «**ما ضَـــرَّ عثمـــانَ ما فعلَ بعد اليوم**»، قُتِلَ فمـزّقَ مصحفـهُ، لأَن المضاف له حكمُ المضاف إليه.

جرحانِ في كبد الإسلام ما التئما ... جرحُ الشهيدِ وجرحٌ بالكتاب دمي

آخرُ أَيَّامِهِ كان صائماً، وآخرُ ليالِيه باتَ قائماً، قُتِلَ وهو يتلو القرآن، فدخل من باب الريَّان، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾:

شكراً لأَفضالك اللاتي نفحتَ بها ... ودامَ فضلُك والتأريخ قَد شهدا

تسحر في المدينة، وصلى العصر في الرّوضة، وأفطر في الجنة، حَسُن عمله فطالَ عمرُه، وطاب مخبرُه، فصح مظهرهُ، أحسن الرفّادة فكوفيءَ بالشهادة:

وكنـــتَ حـديثنَـا فـي كـل ليـل ... إذا نـام الخلـيُ وغـاب نجـمُ

ربيع تعشبُ الوديانُ منه وجودٌ إن بكى جوعٌ ويتمُ

عثمانُ أخذ من الإسلام السماحة، ومن الحقّ الوضوح، ومن الشمائل الحياء، ومن القيم البذل، المال عنده نفع في الملمات، والجود عنده كشف للكربات، والحياء نكوص عن العثرات.

عثمان:

ما رآءةَ النجم إلا ساجدًا أو رأته الشمسُ إلا باذلا

كان يئنُّ بالآيات في الهجيع، فرافقه القرآن إلى البقيع، فلله درّه من ضجيع.

فتىً كلما فاضتْ عيونُ قبيلةٍ دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكرُ
ثوى طاهر الأردان لم تبق بقعةٌ غداة ثوى إلا اشتهتْ أنها قبرُ

هنيئاً لعثمانَ يوم اشترى الجنةَ بأغلى الأثمان. ذهب عثمانُ بصيامهِ وجهادهِ وتلاوتهِ وحياءِه وبرهِ وإحسانِه، وبقي ذكرُه والثناءُ عليه والدعاء له وحبُه، يداً بيد، مثلاً بمثل، سواء بسواء، هاء وهاء، قُتلَ من غير ذنب، وذُبحَ من غيرِ جرم، لكن منزلته السامية ومكانه الرفيع لا يوصل إليه إلا بدم، ولا يُنال إلا بشهادة.

أما آن لعثمان، أن يلقى الرحمن، أَما آن للمجاهد أن يرتاح، وللصائمِ أن يُفطر، وللمتهجِّد أن ينام:

بكيناكَ حتى أقسمَ الدمعُ أنّنا نكف لنروي من حياتك ما روى
أيكفيك أن الجود مات بموتكم ففي حفرة أنتم ووجهُ العلا سوى

فــن الطلــب

لطلب العلم طرق وآداب أختزلها في هذه القواعد:

١ ـ همة في الطلب تسهل الصعاب، وتستعذب العذاب، وتشرق في النفس إشراق الشهاب، وتمر مر السحاب.

٢ ـ الاشتغال به ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وتناوله أطواراً.

٣ ـ الإعادة والتكرار، والدرس بالغدو والإبكار، ومباحثة أهل العلم من الكبار والصغار، ومساءلتهم على سبيل الإدِّكار.

٤ ـ اعتبار الكيف لا الكم، والبدء بالأهم فالمهم، وإحكام كل فصل حتى يتم، واختيار الفن الأفيد الأعم.

٥ ـ جــرد المطــولات، لكثــرة الفوائــد والإحالات، وإمتاع الذهن بالمبسوطات، وترسيخ المعلومات بكثرة الإيرادات.

٦ ـ الإعراض عن المتون التي أفرطت في الإيجاز، حتى كأنها ألغاز، فهي كد للذهن بلا إحراز، وضياع للوقت بلا امتياز.

٧ ـ اختيار الفن الذي ترغبه النفس، فإنه ينغرس بها أحسن غرس، ويزول بمعرفته اللبس، ويعمق فيه الفهم على كثرة الدرس.

٨ ـ عدم الإغراق في الوسائل على حساب المقاصد، وعدم الإعراض عن العلم ولو عظم الوارد، وتذكر فضل العالم على العابد، وإن طالبه مثل المجاهد.

٩ ـ كثرة الاستغفار، لتمطر سحائب الذهن كالمدرار، وكلما وقع ذنب

فالبدار بالتوبة البدار.

١٠ ـ اعتقاد أن العلم أنفس نفيس، وأعز جليس، وأحلى أنيس، وأنه السيف إذا حمي الوطيس، والذخر إذا ذهب ما في الكيس.

١١ ـ وجمال العلم الصيانة، وثمرته الديانة، وتاجه الأمانة، والعمل به أعظم إعانة، والمعصية ثلمة له وإهانة.

١٢ ـ ولا يثبت العلم إلا بالتعليم، ولا يرسخ إلا بالتفهيم، ولا ينفع إلا بالتقويم، ومن لا يعظمه لا يقابل بالتعظيم.

١٣ ـ والمقصود منه طاعة الرحمن، وآفته النسيان، ومرارته حسد الأقران، وظلمته الكذب والبهتان.

١٤ ـ وكتب المتقدمين أنفع، وما سهلت لغتها أوقع، وتآليف الأئمة أبدع، ومصنفات الشرع أروع وأرفع وأجمع.

١٥ ـ وكتب الفلسفة تعقيد، الذكي منها لا يستفيد، ولا تنفع البليد، وإنما ألفها أهل التكلف والتفنيد، وكل غريب عن الوحي بعيد.

١٦ ـ وخذ من التفسير ما شرح لك معاني الكلمات، ومقاصد الآيات، وحلَّ الغريب من العبارات، ولطائف الإشارات.

١٧ ـ وعليك بحديث المصطفى ﷺ، فإنه النجاة وكفى، ومقصد أهل الوفاء، ومطلب أهل الصفاء، وفيه الدواء والهناء والشفاء.

١٨ ـ وأحسن كتب الفقه ما عضدها الدليل، وابتعدت عن القال والقيل، وسلمت من الكلام الثقيل، ووردت بلفظ جميل.

١٩ ـ وأكثر كتب أصول الفقه ضجر وملالة، إلا أعلام الموقعين والموافقات والرسالة، لعمقها في سهالة، ووضوحها في جزالة.

٢٠ ـ وطالب العلم يمر بالفنون، فالحديث ذو شجون، ولو لم يكن إلا معرفة عامة بالمضمون، فإنه يقبح به أن يسأل عن فن فيقول: اخسئوا ولا تكلمون.

٢١ ـ وإذا تأهل للتأليف، فعليه أن يعتني بالتصنيف، فيختار اللفظ اللطيف، والمعنى الشريف، وليحذر التطفيف بين الإكثار والتخفيف.

٢٢ ـ وليكثر من مصاحبة الكتاب، ولا يشغله عنه طعام ولا شراب، ولا أهل ولا أصحاب، فيقطف ما لذ وطاب، وينفق على الكتب المال بغير حساب.

٢٣ ـ ولا ينهمك في فنونٍ الانهماكُ فيها غير جميل، كمن صرف كل عمره في النحو الثقيل، أو عروض الخليل، أو الشعر الرذيل، أو القصص والقال والقيل.

٢٤ ـ واعلم أن النبوغ عقل صحيح، وحفظ مليح، ولسان فصيح، ففهم بلا حفظ كالوجه الجريح، وحفظ بلا فهم كالقدح الكسيح، وحفظ وفهم بلا فصاحة جسد طريح.

آداب حفظ وتلاوة القرآن

* يُشترط لحفظ القرآن طهارة السريرة، وحضور البصر مع البصيرة، وتكرار المحفوظ مرات كثيرة.
* التقليل من الآيات، وربطها بالسابقات، ومعرفة فوارق المتشابهات

وتردادها في الصلاة.

* حبس الذهن عن الوساوس والأماني، والتفكر في هذه المثاني، والاهتمام بمعرفة المعاني.
* اللجأ إلى علام الغيوب، الغفار لمن يتوب، وهجر كل الذنوب، والعمل بما يقرأ من المكتوب.
* تعاهد القرآن، ليأمن النسيان، وتلاوته مع الإخوان، والاستشهاد به في كل آن.
* تضمينه الكلام، والتمثل به في أحسن نظام، والعمل به على التمام، والتحاكم إليه والاحتكام.
* البكاء عند تلاوته، والخشوع عند قراءته، والفرح بهدايته، والسرور بذوقه وحلاوته.
* الإنصاف إلى أوامره، وزجر النفس بزواجره، واطراح الذنب بصغائره وكبائره.
* الطهارة قبل البداية، والاهتمام بالتدبر والعناية، والعمل بما يقرأ مع الرعاية، ولا يكن همه الظهور والرواية.
* ولا يمزح عند إيراد الآيات، ويجنبه الهزليات، ولا يهذّه هذّ الأبيات، ولا يتشاغل عنه بالملهيات.
* ولا يكثر التلاوة حتى يمل، ولا يتركه ترك المخل، ولا يأخذ بالنهل والعل، وليكن همه العمل، والتهيؤ للأجل.
* وليجتنب التمطيط والتكلف، والتشدق والتعسّف.
* وليهجر الصخب والصياح، وكثرة المزاح، وعليه بالتواضع وخفض

الجناح، وليدمن أذكار المساء والصباح.

* وليزهد في الحطام، وليكثر من ذكر ذي الجلال والإكرام، وعليه بسط الوجه وإفشاء السلام، وإكرام الضيف وإطعام الطعام، وبر الوالدين وصلة الأرحام.

أدب المسلم

* لا يسمع الغناء ولا يقرب الخنا، ولا يكثر من قول أنا، ولا يتبع المنى.
* لا يؤذي جاره، ولا يدمن إلى أصحابه الزيارة، ولا يحلف عن التجارة، ولا يحرص على الإمارة.
* ملابسه بيض نقيّة، روائحها زكية، همته قوية، ونفسه رضية، عن الذل أبية، لا تقبل الدنية.
* يصاحب الأخيار، ويعتزل الأشرار، ويكرم الضيف والخطار، ولا يعبد الدرهم والدينار.
* إن تكلم تلطف، وإن زار خفف، وإن عرض مطمع تعفف، وإن اشتبه أمر توقف، وإن أذنب تأسف.
* غزير الحجا، عظيم الرجا، يقيم الدجى، كثير الخوف والوجىٰ، يهجر الغيبة والهجا.
* للقادم بشوش، وللضيف هشوش، طلق المحيا، يشبه الثريا.

مــا مضـــى فـــات

تذكُّر الماضي والتفاعل معه واستحضاره، والحزن لمآسيه حمقٌ وجنون، وقتلٌ للإرادة وتبديد للحياة الحاضرة، إن ملف الماضي عند العقلاء يطوى، ولايروى، يغلق عليه أبداً في زنزانة النسيان، يقيد بحبال قوية في سجن الإهمال، فلا يخرج أبداً، ويوصد عليه فلا يرىٰ النور، لأنه مضى وانتهى، لا الحزن يعيده، لاالهم يصلحه، لاالغم يصححه، لا الكدر يحييه، لأنه عدم، لاتعش في كابوس الماضي، وتحت مظلة الفائت، أنقذ نفسك من شبح الماضي، أتريد أن تَرُدَّ النهر إلى مَصَبِّه، والشمس إلى مطلعها، والطفل إلى بطن أمه، واللبن إلى الثدي، والدمعة إلى العين، إن تفاعلك مع الماضي، وقلقك منه واحتراقك بناره، وانطراحك على أعتابه وضعٌ مأساوي رهيبٌ مخيف مفزعٌ.

القراءة في دفتر الماضي ضياع للحاضر، وتمزيق للجهد، ونسف للساعة الراهنة، ذكر الله الأمم وما فَعَلت ثم قال: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ [البقرة: ١٣٤]. انتهى الأمر وقضي، ولا طائل من تشريح جثة الزمان، وإعادة عجلة التاريخ.

إن الذي يعود للماضي، كالذي يطحن الطحين، وهو مطحون أصلاً، وكالذي ينشر نشارة الخشب، وقديماً قالوا لمن يبكي على الماضي: لا تخرج الأموات من قبورهم، وقد ذكر من يتحدَّث على ألسنة البهائم أنهم قالوا للحمار: لِمَ لا تجتر؟ قال: أكره الكذب.

إن بلائنا أننا نعجز عن حاضرنا ونشتغل بماضينا، نهمل قصورنا الجميلة، ونندب الأطلال البالية، ولئن اجتمعت الإنس والجن على إعادة ما مضى لما استطاعوا لأن هذا هو المحال بعينه.

إن الناس لا ينظرون إلى الوراء ولا يلتفتون إلى الخلف؛ لأن الريح تتجه إلى الأمام والماء ينحدر إلى الأمام والقافلة تسير إلى الأمام، فلا تخالف سنة الحياة.

لكل أجل كتاب

يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣]. ومجيء قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ بعد ذكر التقوى والتوكل فيه سر لطيف، ومقصد شريف، فمن اتقىٰ ربه وتوكّل عليه، فلا يتباطى عون الله، ولا ييأس من روحه، ولا يقنط من رحمته، ولا يقطع أمله من الفرج، فإنه إذا اتقّى وتوكل فسوف يأتيه الفرج لا محالة، وسوف يجد الخروج من الضيق بلا شك، لكن للأمور أوقات، وللمقدور عمر لابد أن يقضيه حتى يصل، وكل شيء عند الله بأجل مسمى، فما على العامل إلا العمل، حتى يحين وقت الثواب، وما على الدّاعي إلا أن يدعو حتى يحصل له مراده أو خير من مراده، ولا يقول: دعوت ثم دعوت فلم يستجب لي، بل يطمئن إلى حسن اختيار ربه، وجميل صنيعه، وجليل حكمته، وسعة علمه، وكمال قدرته، وتمام رحمته.

فالله جعل لكل شيء قدراً له زمن لا يتعدّاه، ووقت لا يتخطّاه، فإذاجاء موعد المقدور، فلا يستأخر عن وقته ساعة ولا يستقدم.

للكربة وقت ثم تزول، ولها زمن ثم تحول، لأَن الله قد جعل لكل شيء قدرا.

للمرض أيام معدودة، وليال محسوبة، ثم ينكشف لأن الله قد جعل لكل شيء قدراً.

للهم ساعات، وللغم أوقات، ثم ينجلي بسرور لاحق، وفجر صادق، لأَن الله قد جعل لكل شيء قدراً.

للفقر أزمان ولو طالت، وللعدم أوقات ولو قست، ثم ينقشع، لأَن الله قد جعل لكل شيء قدرا.

فما عليك إلا أن تعمل وتحرص على الخير وتبذل الوسع، وتخلص السعي، وتصحح العمل، وتحقق العبودية، ثم اترك ثمرات الأعمال، ونتائج الأحوال، لذي العزة والجلال.

لا تستعجل حصول المرغوب، وإزاحة المرهوب، فالأمر ليس إليك، بل إلى من جعل لكل شيء قدرا.

إن الإيمان بأعمار المصائب سلوة للمنكوبين، وإن التصديق بآجال المحن عزاء للمصابين، إن للمكروه زمن لا يتجاوزه أبداً فتخيلك في إزالته قبل حينه ضرب من الهوس، وفن من فنون الوسوسة، لأَن مهمتك كيف يزول لا متى يزول، فمن حرص على

كيفية زواله دعا وأخلص، وجد واجتهد، واتقى وصبر، وتوكل وأناب، وفوض الأمر إلى الملك الوهّاب، ومن تعلّق قلبه بزمن الزوال، وارتحال المكروه، استبعد الفرج، واستبطأ الرَوْحَ، وصاحبه الإحباط، ورافقه الفشل، وسامره اليأس، وحادثه القنوط، فلا يزال في أودية الاضطراب وطرق السخط والندم والحسرة واللوم وتمزيق القلب بسياط القلق، فقلبه فزع، وذهنه شارد، وحاله كاسف، وباله مشتت، وباطنه ناقم ثائر معترض شاك.

ولو آمن أولاً بالقضاء، وسلم الأمر لرب الأرض والسماء، وأخلص في الدعاء، وانتظر الفرج في وقته والنصر في حينه، وحسن العاقبة في زمانها، وجميل الصنع في ساعته، وفرحة إدراك المطلوب في موعده، لو فعل ذلك كله لأدرك سعادة من إذا أذنب استغفر، ومن إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، ولحصل على أعظم الأجر، وانشراح الصدر، ورفعة الذكر، فالله هو المقدِّر، جعل لكل شيء قدرا.

لا تثمر الشجرة حتى يأتي حينها، ولا تبزغ الشمس حتى يحل ميقاتها، ولا يطل القمر حتى يحصل زمن إطلاله، ولا تضع الحامل حملها ولا تفطم ولدها إلا بأجل، ولا يندمل الجرح، ولا يبرأ الموعوك، ولا تعود الضالة إلا بعد ما يمر بالكل العمر المقدر والأجل المقرر.

فاعلم أنه لا يعني بذل الأسباب حصول المطلوب في الوقت المقترح، والزمن المختار، بل في الساعة التي كتبها الله وحده، فإنه

غالب على أمره، فعال لما يريد، كل شيء عنده بمقدار، وكل شيء بأجل مسمى، وقد جعل الله لكل شيء قدرا، وهو المقدِّم والمؤخِّر، أحاط بكل شيء علماً، ووسع كل شيء رحمة وعلماً، وعلم الكائنات لطفاً وحلماً، فقد أتى أمره فلا يستعجل، وقرب فرجه الأجمل، له الحكم وإليه ترجعون، فلكل أجل كتاب، ولكل شيء حد، ولكل بلاء زمان، ولكل حدث عمر، فسبحان المدبِّر جل في علاه، لا إله إلا إيّاه.

إلى الأمام في سيرة سيد الأنام ﷺ

أعوذ بالله من ثبوط الهمم، وبرود العزيمة، وثخونة الطبع، والفرق بين المجد والهازل، والناجح والفاشل، والعامل والعاطل، هي الهمة.

الهمة العالية لهيب لا ينطفيء، ووقود لا يخمد، يشعل في القلب نار العزيمة، والمثابرة والمصابرة والإصرار، الهمة العالية كالسيل الجارف الزاحف المنحدر، يطم ويعم، له غمغمة وهمهمة، وعناد وشراسة، لا شيء كالهمة من ابتلي بها فعذابه عذب، وعلقمه عسل، وسهاده سعادة وحبور.

لله در الهمة العالية إذا ولجت قلباً أزعجته إلى المكارم، وحركته قدماً إلى معالي الأمور.

ما أعظم همته وأجل عزيمته، وأقوى إرادته.

امتطى صهوة الطهر، وارتقى منبر الكون، وصعد على ذرى الأيام، وخاطب العالم، فعلم وعلم، وصابر وثابر، وجاهد ورابط، ونافح وكافح، حتى أتاه اليقين.

عرضت له الصعاب فداسها، وتبرجت له الدنيا فأغفى الطرف عنها، وتفاقمت عليه الأمور فساسها.

الجاهلية واليهودية والصهيونية عقبات وكتل في طريقه، يجتاحها منتصراً ويمزقها بصموده وإباءه وإصراره. اليتم والفقر والحزن والظلم والسخرية والإعراض قلاع أمامه.

في كفه شعلة تهدي وفي دمه   عقيــدة تتحــدّى كــل جبّــار

الكتــــاب

مطالعة الكتاب: تشحذ الفطنة، وتنبِّه من الغفلة، وتؤنس من الوحشة، وترفع الجهل، وتدر الرأي، وتكسب التجربة، وتذهب الملل، وتزيل السآمة، وتقوي الذاكرة، وتشرح الصدر، وتقوِّم الاعوجاج، وتطلق اللسان، وتظهر الحجة، وتصحح الخطأ، وتمنع من الفراغ، وتعصم من الانحراف، وتزيد في الفهم، وتلقن الحكمة، وتعزِّي من المصيبة، وتهون من الكارثة، وتسلي من المفقود، وتخفف الألم، وتدل على المكارم، وتنهىٰ عن المآثم، وتجلب العبر، وتحدث عن المثلات، وتورد الغرائب، وتتحف بالعجائب، وتقتنص

الفوائد، وتدلف بالشوارد.

مطالعة الكتاب: موعظة تبكي، ولطيفة تشجي، وطرفة تضحك، ونادرة تعجب، وأمر يحسن، ونهي يزجر، وخطاب مليح، ونطق فصيح، نتائج أفكار، وعصارة أخبار، حصيلة الدهور، وعلوم الأزمات، وأحداث الدول، وسياسات الملوك، وقرائح العلماء، وروائع الشعراء، واختيارات الحكماء، وعمق الفلاسفة، وطهر المحدِّثين، وتقشف الزهاد، ودموع العباد.

مطالعة الكتاب: تنوير للعقل، وإشراق للبصيرة، وتقويم للنظر، وسعة في الأفق، وجلالة في المكانة، وسمو في القدر، ورحابة في المعرفة، وظرف في المجالس، وإفادة في المحافل، وتصدر في المجامع، وارتقاء على المنابر، وتقديم في المشورة، وخلود للذكر، ومحصلة للأجر، ومكسبة للرزق، ومنفعة للناس، وإمتاع للجليس، وغيظ للحاسد، وكبت للمنافق، وردع للفاجر.

مطالعة الكتب: غور على المعاني، وغوص على الحقائق، وتنقيب على الكنوز، ووقوع على النفائس، واكتشاف للجواهر، وعثور على الفضائل، فهي غنيمة باردة، وربح مضمون، وثروة محفوظة، وغلَّة محروسة، وولد مُخَلَّد، وذكر مُؤَبَّد.

مطالعة الكتب: تنقيب في حقول السابقين، وإنصاف لنصائح الماضين، واستفادة من وصايا العارفين، وهي مطالعة لعقول الرجال، وقراءة لأذهان العظماء، وتدبر في صحائف الأذكياء، وتأمل في

صحف العباقرة.

والكتب هي بساتين النبلاء، وحدائق العقلاء، ومنزهات الفضلاء، وهي عوض عن الصديق القالي، والصاحب الجافي، والقريب القطوع، والقرين المتربص، والولد العاق، والوالي المتعالي، والغني المتكبر، والرئيس المتجبر.

والكتب أمينة على الأسرار، صادقة في الأخبار، متجافية وقت الملل، سارية ساعة النوم، مريحة لحظة الأسى، مخلصة في النصح، قائمة بالحقوق، كفيلة بالمؤانسة، طيبة في المعاشرة، بارة في الصحبة.

التجربـــة

التجربة هي معايشة الأحداث، وذوق الوقائع، والتمرس بالحياة، والمران على أطوارها، والتجربة بالمكروه أعظم أثراً من التجربة بالمحبوب، لأن المكروه يوقظ القلب، وينبه النفس، ويثير المشاعر، والمصائب والنكبات والكوارث جامعات للتجارب، يدرس فيها حداة المثل مقررات من الآلام والمعاناة والأزمات، فيخرجون على حسب استعداداتهم، فمنهم المتفوق المبرز الطموح، ومنهم المتوسط المعافى، ومنهم الفاشل المندحر، والتجربة كير تصقل فيها المواهب والصفات، وأعظم من تركوا أثراً في التاريخ هم الذين ذاقوا الويلات وعاشوا المصائب، وتجرعوا غصص الصبر على

المكروهات، يقول الشاعر الشهير الفرنسي موسيه:

لا شيء يجعلك عظيماً غير ألم عظيم

ويقول المتنبئ:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحول

وقال في قصيدة أخرى:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

ويقول في ثالثة:

أحقهم بالمجد من ضرب الطلى وبالأمن من هانت عليه الشدائد

يقول الكاتب مصطفى أمين: العظمة ليست وساماً بعد وسام، ولا منصباً إثر منصب، ولا ألقاباً ولا جوائز أو هبات. **العظمة** معناها: ألم ومثابرة، وصمود وتحدِّي وإصرار، **العظمة**: نكبة بعد نكبة، ومصيبة بعدها مصيبة، وعقبة إثرها عقبة. **العظمة**: سجون ومعتقلات، ودموع ودماء وتضحيات. وهذه التجربة الكبرى في الحياة.

وقال الشاعر الإنجليزي تشوسر: التجربة تؤخذ من مصدرين. المصدر الأول: الكتب القديمة، التي تعد كنزاً للذكريات البشرية، والحكم الإنسانية. والمصدر الثاني: مشاركة الفرد في أحداث الحياة.

وصدق الله جلت عظمته: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

نعمة النسيـــان

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ ما مضى فات، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ هذه حقائق ثابتة، وقوانين راسخة، توحي لك بالقناعة، أن ما مضى فلن يعود، ولذلك يقول الغربيون: لا تطحن الطحين، ولا تجرب نشر النشارة، وهذا معناه النهي عن اجترار الماضي، ولكاتب أمريكي يدعى: جون كاوبر بوز، كتاب بعنوان: فن نسيان البغيض، يرى أنك لن تشعر بالأمان المريح والطمأنينة والسعادة حتى تنسى كل ماضٍ بغيض. قال أبو الطيب المتنبيء:

لا أشرئب إلى ما لم يفت طمعاً ولا أبيت على ما فات حسرانا

ومن تهور فرعون وتهوكه بعثرته الماضي، يقول لموسى عليه السلام: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

فكان لسان الحال يقول: اخرس ولا تنطق ببنت شفة عن قرون سلفت، ولسان المقال ينادي: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾.

يقول دايل كارنيجي: هناك وسيلة واحدة تمكننا من الاستفادة من الماضي، وذلك عن طريق تحليل تلك الأخطاء، والإفادة منها ونسيانها، إن إعادة الماضي محاولة لرد النهر إلى مصبه، والميت إلى بيته، والطفل إلى بطن أمه، والحليب إلى الثدي، وهذا لن يكون أبداً.

يقول الشاعر:

فلا تهلك على ما فات وجداً   ولا تفـردك بـالأسـف الهمـوم

إن محاولة إصلاح أمر فرط ومضى مستحيل، وهذه المحاولة في حد ذاتها عجرفة ونكسة، أما استفادة العبرة، واستجلاء الحكمة من تلك التجربة المرة فأمر مرغوب فيه.

قال أبو الطيب المتنبيء:

لا تلـق دهـرك إلا غيـر مكتـرث   ما دام يصحب فيه روحك البدن

فما يديم سروراً ما سررت به   ولا يـرد عليـك الغـائـب الحـزن

وأنشد ثعلب اللغوي لبعضهم:

لا أحسب الشر جاراً لا يفارقني   ولا أحز على ما فاتني الودجا

وقد لام الله أعداءه المنافقين لأنهم لاموا أنفسهم على تركهم الاحتياطات الأمنية بزعمهم، فوقعوا في أسر الماضي: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾.

فكان الجواب: ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

وهذه ترجمة لقصيدة عالمية، يقول صاحبها: لكل علة تحت الشمس علاج أو لا يوجد أبداً، فإن كان يوجد فحاول أن تجده، وإن لم يكن موجوداً فلا تفكر فيه، فلو اجتمع لك أطباء العالم ما أوجدوه. وقال الفلاسفة: الكائنة التي تستطيع تغييرها فداؤها الاحتيال، والكائنة

التي لا تستطيع تغييرها فعلاجها الصبر والنسيان.

والنسيان نعمة، لأنه مقبرة للمآسي، وحجاب عن الآلام، ودواء من الأوجاع، وعزاء وسلوان عن كل مفقود.

التأصيل العلمي

يمتاز الشافعي بتأصيله العلمي، ومعرفته بالكليات والمقاصد، إنك تجد غيره من المحدِّثين أكثر حفظاً منه، ولم يبلغوا مُدّ نبوغِه ولا نصيفه، لأنهم اهتموا بالوسائل على حساب المقاصد، وبالجزئيات على حساب الكليات، ولقد كان للشافعي ذهن وقّاد، وملكة حرة منتجة، ومنجمٌ بكر من الفهم، فأعطىٰ النصوص حقها من التفقه، والتأصيل والنظر العام لمجمل الشريعة، فسبر غورها، وقعّد قواعدها.

ومزية هذا المنهج الذي نهجه الشافعي أنه يضبط الفروع بأصول، والجزئيات بكليات، حتى إذا فات العالم بعض جزئيات الأدلة وفروع الشريعة، عرفه من القواعد الممهدة لديه، والأصول المحفوظة عنده، وهذا المنهج مريح للعالم، لأنه يعفيه من كثرة تتبع الدقائق، وملاحقة الفرعيات، وكذلك قد تجد الشافعي يستغني بالأصول عن كثير من الفروع، فيعيد كل مسألة إلى قاعدتها، وما ذاك إلا لجودة ذهنه، وبراعة عقله، وغزارة فهمه.

والشافعي وسط بين طريقتين: طريقة أهل الرأي الذين ولدوا

المسائل، وأكثروا من توقعات الفروع والقياس وأوغلوا في النظر.

وطريقة المحدِّثين الذين جدوا في علم الرواية، وتتبع الطرق، والجرح والتعديل، وجمع الروايات، فعمد الشافعي إلى النقل، فأخذ منه أصولاً عامة، واهتم بالمقاصد والمعاني والحقائق، وأخذ من النظر جودة الاستنباط وحسن المنزع، فكان أجمل شيء كلامه وفقهه مع ما رزق من فصاحة وبيان، وإلمام باللغة، وإدراك لأسرار الكلام، ومرامي الألفاظ، وفوق ذاك عقل راجح، وصيانة وديانة، وقيام بحق الملة، ونبل مشهود، وسجايا حميدة، وخلال كريمة، فهنيئاً له.

الحزن والغضب

قالوا عن الحزن: هو الغيظ ممن لا تستطيع الانتقام منه، والغضب على من دونك، وصفة الغضب تدل على القوة والمنعة، ولذلك يوصف سبحانه وتعالى بأنه يغضب غضباً يليق بجلاله، وأما الحزن فإنه يدل على الخور والإحباط، وهو صفة نقص، لا يوصف الله به، وقد جمع الله بينهما في قوله عن موسى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [الأعراف: ١٥٠] فغضب على مخالفتهم للمأمور، وحزن على ما فاته به المقدور، وقال المتنبئ لسيف الدولة:

جــزاك ربـك بــالأحــزان مغفــرة ... فحزن كل أخي حزن أخو الغضب

وإنما استغفر له من الأحزان لأن الحزن كالغضب.

والحزن منفي عن الله شرعاً، ومنهي عنه ﷺ أصلاً، وقد يقع منه

طبعاً، وهو ليس مقصود في التعبد، لكنه لو حصل لكان كفارة من الذنوب، لحديث: «**ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا حزن ولا نصب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**».

والغضب ممدوح ومذموم، فما كان غيرة للشرع، وذباً عن الحرمات، وإنكاراً للمخالفات. حُمِد، ولذلك صح حديث: «**لا تغضب**» ثلاثاً.

وفي الذكر الحكيم: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أغضبونا، وقيل: الأسف نهاية الغضب، ويأتي أحياناً للحزن، قال يعقوب: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: ٨٤].

ونهى ﷺ عن الحزن، لأن الحزن لا يرد مفقوداً، ولا يأتي بفائت، وإنما يضعف النفس، ويشغلها عن عبوديتها لربها، وقد أنكر ابن القيم على الهروي حين جعل الحزن من منازل السائرين إلى الله، ولا يصح حديث: أنه كان ﷺ متواصل الأحزان، بل كان ﷺ دائم السرور، مشروح الصدر، وهذا فضل من الله تعالى عليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: ١].

وكان غضبه ﷺ لله وليس لنفسه، فقد سامح في حقوقه وحلم عن أذاه، وصفح وعفا، ولكنه إنما يغضب لحدود الله وحرماته، فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

الشعر في السنة

ورد ذم الشعر في السنة على العموم، ففي الصحيحين: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلئ شعراً**»، وورد مدحه على الخصوص ففي الصحيح: «**إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة**». فأما المذموم فهو ما أشغل عن الحق، وعطل عن الواجب، وألهى عن القرآن، وصد عن الذكر، وبطّأ بصاحبه عن العلم، وأما الممدوح فهو ما وافق الغرض، وأصاب المحز، وأعان على الفضيلة، ونهى عن الرذيلة، وحبب في الحق، وبغض في الباطل، وحمل الحكمة، وجاء بالمثل.

والشعر في المسجد فيه أحاديث، حديث: «**أن عمر رأى حسان ينشد في المسجد، فلحظ إليه، فقال حسان: كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، يعني رسول الله ﷺ**». وكان ﷺ يقرب المنبر لحسان ويقول: «**اهجهم وروح القدس معك**». وورد أن وفد بني تميم أنشد شاعرهم في المسجد، وصح حديث جابر بن سلمة: «**كنا نجلس في المسجد بعد الفجر مع رسول الله ﷺ فنذكر أخبار الجاهلية وأشعارها ونضحك ورسول الله ﷺ يتبسم**». وورد حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن الرسول ﷺ «**نهى عن تناشد الأشعار في المسجد**»، وهو عند أبي داود.

وورد حديث: «**من رأيتموه ينشد شعراً في المسجد فقولوا: فضَّ**

الله فاك»، وهو في السنن، فأما جوازه في المسجد فهو ما كان يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، واقتصد فيه ولم يعارض طاعة، ولم يصادم مصلحة.

وأما ما نهي عنه في المسجد فهو ما وقع على وجه الإكثار، ولم يكن فيه مصلحة ولا إليه حاجة، وصار ديدناً للناس، وعادة للمتحدِّثين في المسجد.

وورد أثر: الشعر كلام، حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام.

وأردف ﷺ معه على بغلته عمرو بن الشريد، فأنشده عمرو مائة بيت لأمية بن أبي الصلت، كلما أنشده بيتاً قال: «**هيه، يعني: زد، ثم قال: آمن لسانه، وكفر قلبه**»، وقال ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**».

وكان ربما أنشد: «**ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً**».

وقد صانه ربه عن قول الشعر لئلا يظن أن القرآن شعر من تأليفه، وربما كسر ﷺ البيت إذا أنشده كما في السيرة أنه قال ﷺ:

أتجعـــل نهبـــي ونهـــب العبيـــد بيـــــن الأقـــــرع وعيينـــــة

فأقام البيتَ أبو بكر وقال: بين عيينه والأقرع. والبيت لعباس بن مرداس.

وأحببت الشعر

وأحببت الشعر زمناً طويلاً، ذقته حلواً سائغاً، وحسوته لذيذاً فاتراً، حفظت منه الكثير، ونظمت الكثير، وأعجبت بالكثير.

أسمعه فأترنح منتشياً على أبياته، وأقرؤه بأبقىٰ مسروراً برائعه أتركه زمناً فلا يتركني، وأهجره حيناً فيعود إليَّ غضًّا طريًّا.

وعجبت للشعر، لوحة غناء، وارفة الظلال، ندية الظل باسمة الروض، حانية الأفياء، مترعة الجداول، باسقة الدوح.

وعجبت للشعر زاد للمسافر، وملهاة للسامر، ومسلاة للمهموم، وسلوة للمكظوم.

وعجبت للشعر يهز المشاعر، ويحرك العواطف، ويستجيش الذكريات، ويهدهد الخاطر.

والشعر الجميل، يشجع الجبان، فلا يهرب، ويغري الشحيح بالبذل فلا يبخل! ويذهب سخيمة الحقود فيعفو.

الشعر المؤثر عالم من المشاعر والإيحاءات واللفتات.

والشعر المؤثر ـ أيضاً لوحة فنية، رُسِمت بريشة مبدع، حاكها ببراعة، فسنابل، وعصافير، وورق، وحمائم، وتلال تحتضن خمائل، ورواب تداعب جداول.

يرى ابن الأطنابة الحجازي الموت رأي العين، فيركب فرسه هارباً! فيتذكر:

أقول لها وقد جشأت وجاشت   مكـانـك تحمـدي أو تستـريحـي

فيعود ويقاتل قتال الرجال، ويثبت ثبات الأبطال.

قطري بن الفجاءة كاد ينهار، لما رأى الكماة في حومة الوغىٰ، فهتف بنفسه شعراً:

أقـول لهـا وقـد طـارت شعـاعـاً   من الأبطال ويحك لن تراعي

فينازل الأقران، ويفتك بالأعداء.

يقتل القائد الشهيد محمد بن حميد الطوسي، فتبكي البواكي، وتنتحب الثكالى، فيسجل فيه أبو تمام إلياذة:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر   فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

فيقول الخليفة: ما مات من قيلت فيه هذه الأبيات!

صلب عضدُ الدولة الوزيرَ ابن بقيَّة عند باب الطاق ببغداد، فكانت فجيعة لأحبابه، وقد نصب على خشبة الموت ممزقاً، فقام أبو الحسن الأنباري ليقول:

علـوٌّ فـي الحيـاة وفـي الممـاتِ   بحـق أنــت إحـدى المعجـزاتِ

فيقول عضد الدولة: والله إنني وددت لو صلبت وقيلت فيَّ هذه القصيدة!!

ويهدر المعصوم، عليه الصلاة والسلام، دم كعب بن زهير، فلا

يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، فيأتي مستسلماً، نادماً تائباً منشداً:

نبئــت أن رســول الله أوعــدنــي   والعفــو عنــد رســول الله مـأمـول

فيعفو عنه المصطفى ﷺ ويكسوه بردته.

ويهضم عليُ بنُ الحسين زينُ العابدين من حساده ومناوئيه، فيتوَّجه الفرزدق برائعته:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيــتُ يعـرفـه والحـلُ والحـرمُ

فتصبح القصيدة تاريخاً لزين العابدين، لا يذكر إلا وتذكر معه.

يحكم النعمان على النابغة بالإعدام فينشده:

وإنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فيعفو عنه ويكرمه.

هذا غيض من فيض، فهل عرفت الآن تأثير الشعر.

إن هرم بن سنان رهين لشعر زهير بن أبي سلمى، لأنه دوّن اسمه في التاريخ.

وسيف الدولة وافد على بساط المتنبئ لأنه أبقاه للسائلين.

والمعتصم أبو البطولات شهادة أبي تمام في:

السيف أصدق انباءً من الكتب   في حدِّه الحد بين الجد واللعب

يقول جريرٌ الشاعرُ: لو تركني الفرزدق لأبكيت العجوز على شبابها!! يبكيها بالقوافي، ويهيجها بالقصائد.

هذا هو الشعر إذا حسن عرضه، وأصاب المحزَّ، وشفى ما في النفس، والشعر ليس أسلوباً جميلاً بلا معنى، ولا معنى بلا أسلوب، وليس أسلوباً ومعنى بلا خيال، بل أسلوب ومعنى وخيال.

الشعر شيء، والنظم شيء آخر.

لأن النظم يهتم بالمعنى على حساب اللفظ، والأسلوب، والديباجة، والتأثير.

والشعر الجميل هو الذي يترك في نفسك أثراً، ومشاعر وإيحاءات.

وأحببت الشعر لأنه ديوان العرب، وترجمان الصحراء، ولسان القافلة، وحديث السمّار.

وأحببت الشعر لأنه بيت العربية، وقانون اللسان، وذاكرة العربي الأصيل.

ثم أحببت الشعر أجمله وأرقاه، وأروعه وأحلاه.

وأخيراً أحببت الشعر مثلاً، وشاهداً، ودعوة، وسلوة، وعزاءً، وموعظة.

اللهم فاجعلنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا.

مع علي بن أبي طالب

سر هذا الإنسان، أنه يحب الرحمن، ويحبه الرحمن:

هذا الثناءُ الذي ما صاغه كلمُ   وها هو المجدُ عند البابِ يزدحمُ

هذا الرجلُ شجاعٌ يجيد فن قطع الرؤوس الوثنية على الطريقة الإسلامية، إذا ضرب بالسيف هزه هزًا، لأن في الرؤوس مسامير اللات والعزى:

بسيفـك يعلـو الحـق والله أكبـر   ويذبح عجل البغي والزور ينحر

أسلم طفلاً، وحضر بدرًا شابًا، وتولى الإمامة كهلاً، وقتل شيخًا، فالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا.

هو صاحبُ تلك الكلمات، وأستاذُ تلك العبارات. ومدبج تلك الجمل النيرات، لا يحبه إلا مؤمن، ولا يبغضه إلا منافق، ولا يخرج عليه إلا باغي، ولا يسبه إلا فاجر.

لعظمك في النفوس تُبات تُرعى   بحــــراسٍ وحفــــاظ ثقـــــات

خطف رأس الوليد في بدر، وسلب جمجمة عمرو في الخندق، ونحر العاص بن وائل يوم الفرقان، وكسر لواء الباطل يوم أحد، ودكَّ الحصن يوم خيبر.

علي مرفوع بين الرفض والنصب، الرافضة جاوزوا فيه العدل،

وقالوا فيه بالجهل، وقد أغناه الله عن قيلهم، وتزكيته خير من تعديلهم، وأهل النصب نسبوا إليه المساوىء ودفنوا محاسنه، ولم يرووها كما هي، فرفض أهل السنة فريضة الرافضة، ونصبوا نصاب العدل في وجوه النواصب، فعلي عند أهل الحق لاحت نجومه، وارتفعت سهومه.

ناشته الحراب في المحراب، فسجد سجدة طويلة لله لم يرفع رأسه بعدها أبدًا، فصيح لسن، كل ما فيه حسن، ليعش أبوالحسن.

ماذا نقول، وهو ابن عم الرسول، وسيفه المسلول، وزوج ابنته البتول. أبناءه سادة الأبناء، وعمه سيد الشهداء.

لـك فـي المكـارم دولـة وولايـة   وعليــك مــن آثــارهــا أنــوار

حطم جماجم المشركين، ومزق جلود اليهود، وكمم أفواه البغـاه، وأخـرج بـالسيـف أدواء الخـوارج، شتـت شمـل الفتنـة فـي الجماعة، وجمع شمل الأمة في الفتنة، جبر قناة الدين، وكسر رمح المعتدين.

له في عالم البطولات فنون، وله في عنق الأمة ديون، وهو من الحبيب بمنزلة هارون. أعطى الدين كل همه، فنام في فراش ابن عمه، من أحب محمدًا أحب عليًا، ومن أحب عليًا أحب محمدًا.

حطم درعه فتزوج به فاطمة، وكسر سيفه فعوض بذي الفقار، ومزق قميصه فألبس تاج: «**ويحبه الله ورسوله**»، طلب الشهادة في بدر، قيل له في أحد، فبحث عنها هناك، فنودي لعلها في حنين،

فهب إليها، قالوا ربما تكون في خيبر. فلما وصلها قالوا: تأخر الموعد، فقال: ما أحسن القتل في المسجد.

قتلوه قتلهم الله: ألا سألوه عن العلم، فإنما شفاءُ العي السؤال.

ترى المحبين صرعى في ديارهموا والحب يقتل أحيانًا بلا قود

بديهته أسرع من الضوء، وأعجل من البشرى، وأنصع من الفجر، عالم إن لجلج في الأعماق غاص، وإن طلبَ الحجة حضرت بلا مناص، لأنه من الخواص.

جبنت نفسه عن طلب الدنيا، فالأثاث حصير، وركوة وملحف وجفنة، وتاقت نفسه للجنة، فالزاد إيمان وهجرة وجهاد وشهادة:

مناقبٌ كنجوم الليل ظاهرة قد زانها الدين والأخلاق والشيم

ما فر في معركة قط، وما ضرب بسيفه في الكفار إلا قط.

الناس فيه طرفان ووسط، ما بين غلو وشطط، مادح غلا حتى ادعى في عصاميته العصمة، وقادح جفا حتى شك في صحة صحبته، وهو لا هذا ولا ذاك، بل هو ابن عم النبي الأمي المنير، وهو عالم مجتهد نحرير، للمؤمنين أمير، وبكل فضل جدير، رغم أنف من أبغضه.

أشجع ما يكون إذا لقي، وأرهب ما يكون إذا بكى، وأصدق ما يكون إذا نطق. وآنس ما يكون إذا ضحك.

من مفاخر الشجاعة أن عليًا وحيدها، ومن تفاهة الدنيا أن عليًا

لا يحبها، ومن مدائح المنابر أن عليًا بطلها، ومن خصائص الشهادة أن عليًا يخطبها:

لئن عظمت فيك المراثي وذكرها لقد عظمت من قبل منك المدائح
سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض فحسبـك منـي مـا تُكِـنُّ الجـوانـح

ترخص عندنا الدنيا إذا ذكرنا عليًا، ونشتاق للشهادة إذا ذكرنا عليًا، يغضب الباطل إذا أحببناه، ويثور الحق إذا أبغضناه.

علي طراز آخر، وقصة أخرى، وشيء ثان، إن تكلم فهي الكلمة الثائرة العابرة الصادقة، وإن ضرب فهي الضربة القاتلة القاضية، وإن بكى فهي الدمعة الحارة المعبرة الواعظة، وإن ضحك فهي البسمة الموحية الجاذبة الآسرة.

تهلـــل للقـــاء فقلـــت فجـــر وشمـــر للقتـــال فقلـــت ليـــل
إذا احتشد الجموع فأنت شمس وإن حـل الضيـوف فـأنـت سيـل

زهدٌ إذا أقبلت الكنوز، ثباتٌ إذا ادلهمت الخطوب، شجاعةٌ إذا حضرت الجيوش، فصاحةٌ إذا ازدحمت الجموع.

عليٌ للمواقف، أبوالحسن للمعضلات، أبوتراب للأزمات، أحبك يا علي، وأحب من يحبك، يا أباالحسن، أحبك حبًا كثيرًا طيبًا، كما تحب أن يكون الحب، وافيًا مثلما تريد أن يكون الوفاء، صادقًا كما تهوى أن يكون الصدق، ولكنني أحبك يا علي وكفى ألا يكفيك أنك في فؤادي.

وذهب علي إلى الله بعد أن طلق الدنيا ثلاثًا لا رجعة فيها، وهو لا يتحللها، لأنه راوي حديث: «**لعن الله المحلل والمحلل له**» أدخل علي كساء المعصوم ﷺ واكتسى ببرده:

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته يظن لظن البرد أنك صاحبه
وقال وقد أعطيته ولبسته نعم هذه أعطافه ومناكبه

ألجم الله ابن ملجم بلجام من نار لأنه كسر السيف البتار.

يا ليتها إذ فدت عمرًا بخارجة فدت عليًا بمن شاءت من البشر

تكــرار العلــم

من أنفع ما رأيته وعرفته في طلب العلم كثرة التكرار للفصل أو الباب أو الكتاب، فإن هذا طريق الرسوخ العلمي والعمق المعرفي، وهذه أرقام منقولة في كتب تراجم العلماء، تنبىء عن عدد المرات التي كرر فيها بعض أهل العلم بعض الكتب:

* ابن سيناء كرر كتاب: ما بعد الطبيعة أربعين مرة.
* والفارابي كرر كتاب النفس مائتي مرة، وكتاب: السماع الطبيعي أربعين مرة.
* وعباس الفارسي كرر كتابًا ألف مرة.
* وابن الثبان درس المدونة ألف مرة.

* والأبهري المالكي كرر مختصر ابن عبدالحكم خمسمائة مرة، والموطأ خمساً وأربعين مرة، ومختصر البرقي سبعين مرة، والمبسوط ثلاثين مرة.
* والحافظ السمرقندي كرر صحيح مسلم نيفًا وثلاثين مرة.
* وكرر ابن عطية صحيح البخاري سبعمائة مرة.
* وكرر المحدث سليمان بن إبراهيم صحيح البخاري مائتين وثمانين مرة.

نحـــن وهـــم

كان علماء السلف يفرون من المناصب الدينية فرارًا، كالإمامة والخطابة والإفتاء والقضاء، وربما أجبروا عليها فرفضوا، ومنهم من سجن ليتولى القضاء فيرفض، ومنهم من جلد وهو يأبى، والآن تغير الحال، فأصبح الغالب إن لم يكن الكل يطلب هذه المناصب، بشتى الطرق، ويسعى في تحصيلها وينافس عليها ويحسد من نالها، وما ذاك إلا لضعف التقوى والخشية وحب الدنيا ونسيان الآخرة، حتى تجد فينا من يسابق أخاه في المجلس على الفتيا وعلى تصحيح أو تضعيف الأحاديث، وفينا من يحب التصدر ويحط من شأن أقرانه ليرتفع هو، ويظهر حفظه ومعرفته وذكاءه وسعة اطلاعه، وهذا هو الرياء نعوذ بالله منه.

والواجب علينا أن نبكي على حالنا، ونندم على تقصيرنا، ونأسف كل الأسف على ذنوبنا وخطايانا، ونأخذ بقوله ﷺ: «**كف عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**»، ولكن هيهات: ما لجرح بميت إيلام، والله المستعان على صلاح أمورنا.

البـــــلاغ

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة: ٦٧]، أوصل الحق إلى المدن والقفار، وعرض النور على الأسماع والأبصار، وأقام الحجة على الكفار، فإن أبوا اقتحم تلك الأسوار بالمهاجرين والأنصار، حتى يبلغ الدين مبلغ الليل والنهار، وبلغ القرآن الإنسان والجان، لتقوم الحجة والبرهان، ويتمايز أهل الكفر والإيمان، والإساءة والإحسان. ويا أيها الرسول بلغ المنقول إلى أهل العقول، فإن هم أجابوك بالقبول، وإلا فعليك بالصارم المسلول.

العلم أعظم من ملك الدنيا

في كتاب: شرف أصحاب الحديث، أن فرج النوبي أحد أصحاب المأمون، هنأ المأمون لما فتح مصر، وذكره بنعم الله عليه من النصر والتمكين والملك والفتوحات وطاعة الناس له، وإقبال الدنيا عليه إلى غير ذلك مما أعطاه الله، فقال المأمون: ويلك يا فرج، أعظم

من هذا وأجمل: جلوسي في مكان مرتفع حولي أصحاب الحديث، وأنا أحدثهم حديث رسول الله ﷺ، ويسألوني عن حديث فأقول: حدثنا الحمادان: حماد بن سلمة بن دينار، وحماد بن زيد بن درهم، قالا: حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**من عال ابنتين أو ثلاثًا أو اختين أو ثلاثًا حتى يمتن أو يموت عنهن كنت أنا وهو في الجنة كهاتين**». وأشار بأصبعيه.

قلت: هذا الخليفة الذكي الألمعي الباهر أعلم خلفاء بني العباس، ما قال هذا القول إلا عن دراية ومعرفة، فإن العلم لا يعادله شيء، وهو أعظم لمن عمل به من ملك الدنيا، لأنه يدل على الله، والدنيا تبعد صاحبها عنه، ولأن ذكره باق، ونفعه خالد، وثمرته دائمة، وأجره مستمر، ومجده عظيم، وصيته رفيع، فمن عرف قيمة العلم حق المعرفة أسهر ليله في الطلب، وأظمأ نهاره في التحصيل، فحفظ وقرأ، وسأل وذاكر، وباحث وناقش، وراجع وألف، ودأب في جمع الفوائد، وحرص على الشوارد، وجد في توسيع مداركه، وتعميق معرفته، وتهذيب عقله بفنون الحكمة، وما عليه ولو افتقر ولو جاع ولو تعب، فإنه في مكانه أسمى من الثريا، وفي منزلة أعظم من النجم، فهنيئًا له الملك الدائم، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

هو العضب المهند ليس ينبو ... تصيب به مقاتل من أردتا

وكنز لا تخاف عليه لصًا ... خفيف الحمل يوجد حيث كنتا



القناعـــــــة

قرأت سيرة سعيد بن المسيب، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، والخليل بن أحمد وأمثالهم من علماء الملة، فوجدت العجب العجاب، من قناعتهم من الدنيا بالقليل، فهم على الخبز اليابس أحيانًا مع الماء، وأحيانًا مع الزيت، وربما جاعوا الأيام ولم يجدوا طعامًا، وربما لا يجدوا إلا خبز الشعير، مع أن الدنيا تطاردهم، وعطايا السلطان تطلبهم، وهم يرفضون ويفرون. وهذا هو العلم النافع الذي أثر في حياتهم وأخلاقهم، فبقي ذكرهم مرفوعًا دائماً وأبدًا، وعم نفعهم، واستفيد من علمهم، وانتشر فضلهم والثناء عليهم. رحمهم الله رحمة واسعة وإيانا معهم.

إن الله جميل يحب الجمال

جمل مظهرك، وأحسن لباسك، وتعاهد خصال الفطرة في جسمك، وعليك بالسواك والطيب، والبس وسطًا جميلاً، ولا يغرك كلام دراوشة الصوفية في لبسهم المرقعات، وترك أظفارهم طويلة، وشعورهم شعثة، وأجسامهم وسخة، فإنهم جهلة بالشرع الحنيف، والإمام والقدوة، إنماهو محمد ﷺ، فقد كان يحب الطيب، ويكثر السواك، ويلبس الجميل، ويكثر الاغتسال، ويرجل شعر رأسه،

ويخلل لحيته.

ولحسـن المظهـر، وجمـال الـرائحـة أثـر علـى بهجـة النفس ونشاطها، وراحتها، وقد قال ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**».

فالواجب أن تفعل مايحبه الله عز وجل.

كلمـــة ربـــك

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صدقًا في العلم، وعدلاً في الحكم، فصدقها ينفي الوهم، ويشد العزم، ويفتح الفهم، وعدلها يمنع الظلم، ويقيم الميزان في الحرب والسلم، ويجعل الغنم بالغرم، صدقًا يدفع الباطل، ويرد الجاهل، ويحسن به قول القائل. وعدلاً يقوم به الميزان، ويتحاكم إليه الإنس والجان، ويرضى به أهل الإيمان.

إذا كانت النفوس كبارًا

الهمة توقان دائم، وتطلع مستمر، وإصرار على الصعود، وترق في الكمال. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ وهي تحدٍ لشهوات النفس، ورعونة الحياة، واستجابة لأذان المجد، وصوت الحق، وصرخة البعث: حي على الفلاح. والهمة تولد مع الطفل، ويرضعها مع اللبن،

وهي فرسة الذي لا يكبو، وسيفه الذي لا ينبو، تجري به كالريح، وتمر به مرّ السحاب ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فلا تتركه هذه الريح حتى توصله كواكب العلياء، وصهوة العظمة، غدوها شهر، ورواحها شهر، بالهمة يأنف العبد من الجهل، ويأبى الضيم، ويرفض الظلم، ويهجر التقليد، وبالهمة يسافر إلى عالم الخلود، ودنيا الفلاح، وديار الكرامة، والهمة عذاب دائم، لأنها شاقة مقلقة محرقة مزعجة.

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتال

وقال أحد البلغاء: الناس لحم ودم لولا الهمم. ومن رزق همة عالية، تخطت به أسوار الأماني، وتقحمت به الشدائد، لأنه دائمًا في اندفاع وتوثب، لا يهدأ له بال، ولا يقر له قرار، حتى ينال مطلوبه ويجد مرغوبه. وأشرف الهمم وأرقى العزائم ما نال به العبد رضى الرب، فحصّل العلم وعمل به، وزهد في الفاني ورغب في الباقي، وجعل العمر مطية للفوز، وسفينة للنجاة. وصاحب الهمة له من نفسه محرض كلما نامت مقلة نفسه، ونعس جفن عزيمته، فمن منح ذهناً وقاداً، ونفساً وثابةً، وطموحاً عارماً فقد أمسك ناصية النجاح، والهمة مثل النار لابد لها من وقود، فمنهم من أطعمها حب الرياسة، فلا يهدأ له بال حتى ينالها، ولو أنعل خيله الجماجم، وصبغ سيوفه بالدم. ومنهم من عشق المال فعاف الغمض وطلق الكرى، وأغذ السير في جمعه حتى ملكه، ومنهم من مال إلى الزهد، فتدثر بلحافه، وتزمل بجبته، فنهى النفس عن الهوى، وجد في التقوى، حتى ترصع بتاج العفاف، ونال مرتبة الورع، ومنهم من حدثته نفسه بطلب العلم،

وتحصيل المعارف، فهو في دأب عظيم، وشغل جسيم، فمراده العلم، ومقصده الفهم، وحديثه المعرفة، قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه، أما ساقط الهمة فهو بارد الأعصاب ذابل الروح، متجمد الدم، رضي بالدون، وأخلد إلى الأرض، وأنس بأشكاله من الناس، وصاحب أمثاله من البشر، فأقل شيء من العلم يكفيه، وأخف فرض من العبادة يرضيه، أهمل نفسه من التعليم، وأعفاها من التأديب، واستسلم للراحة، واتبعها هواها، وتمنى على الله الأماني.

مـنْ يَهُـنْ يسهـل الهـوان عليـه   مـــا لجـــرح بميـــت إيـــلام

لكن صاحب الهمة في شغل شاغل، يجمع الفضائل ويحصل المكارم، ويهذب نفسه بالعمل الصالح، ويغذي فكره بالعلم النافع، ويزكي روحه بالخلق النبيل، وينفع أمته ويحمل رسالته، وينصر دينه، فبوركت هذه الهمة العالية.

الرحمـــن

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾[طه: ٥] على عرشه اعتلى، وعلى ملكه احتوى، فوق السموات العلىٰ، يرىٰ ولا يُرى، له ما في السموات وما بينهما وما تحت الثرى، مدح نفسه فقال: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾[طه: ١٤] استواءً يليق بالجلال، وعلو يناسب الكمال، وارتفاع يوافق الجمال.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

صار بعد الضيق واسعًا، حوى علمًا نافعًا، وكرمًا جامعًا، وأدبًا ماتعًا. نفى عنه الحرج، وطرد منه الغضب واللجج، وتنور بفهم الحجج، وفرج بالوحي فانفرج، ذهب منه الوسواس، وعصم من الخناس، فصبر على أخلاق الناس، وثبت وقت الباس.

اتسع لأخلاق العباد، ووسع الحاضر والباد، فحن لحكمته الجماد، ورقت من حكمته القلوب الشّدائد.

شـــيء بشـــيء

لا يصلح الوعظ إلا من تقي زاهد عفيف عامل صادق.

ولا تصلح الفتوى إلا من عالم ورع عاقل مع دليل.

ولا تصلح الخطابة إلا من فصيح مليح صاحب بديهة وغزير مادة.

ولا يصلح العفو إلا من قوي قادر، ولا السؤدد إلا من صابر على الشدائد مجرب للأمور.

ولا يصلح التأليف إلا إذا كان ذا جدة وعمق، مع ابتكار في الطريقة وإبداع في العرض وجمال في اللفظ.

ولا يصلح الزهد إلا من واجد وليس بفاقد، أطاعه قلبه في عصيان هواه ووافقته نفسه في محاربة شيطانه.

فوائــد هــؤلاء

فوائد التجارب: معرفة الزمان والإخوان، وتقلبات الحدثان، والصبر على الامتحان.

وفوائد **الحاسد**: الدعاية والإعلان، ونشر الفضيلة والعرفان، وأجر على غيبته لك من الرحمن.

وفوائد **الأعداء**: التنبه للأغلاط والزلات، وصيانة النفس من الهفوات، والتنافس على الخيرات.

فوائد الفكر: كسر النفس، وإذهاب العجب، وذبح الكبر، والاستكانة للرب، والتخفف من الحساب، وقلة التبعات والمنع من الطغيان.

بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين

لأن الصبر عن الشهوات التي تعارض الأمر والنهي، واليقين عند الشبهات التي تصادم الخبر، فالصبر منهم التزام بالمأمور وانتهاء عن المحذور، وتسليم للمقدور، واليقين منهم تصديق للبرهان، ومعرفة

بالدليل مع الإيمان، ورسوخ في المعرفة وهو الإحسان، والصبر في العمليات، واليقين في المعتقدات، ولابد للراسخ في الإيمان المتمثل لطاعة الرحمن من أن يكون عنده صبر ويقين، لأن الصبر بلا يقين تجلد قد يفعله الكافر، وتحمل قد يقوم به الفاجر. ويقين بلا صبر مذهب الجزعين، ومنهج الفاشلين الساخطين، فلما جمعوا الصبر واليقين قاموا بالملة خير قيام، فقاموا بالأوامر امتثالاً. وتركوا النواهي اعتزالاً، وصدقوا الأخبار تفصيلاً وإجمالاً، فنالوا الإمامة في الدين ورضا رب العالمين.

مجد المحابر والدفاتر والمنابر

في ترجمة أبي مروان عبدالملك بن زيادة الله التميمي الأندلسي القرطبي، العالم المحدث اللغوي الإمام الأديب الشاعر، أنه لما رجع إلى قرطبة أملى الحديث، فاجتمع إليه في مجلس الإملاء خلق كثير، فلما رأى كثرتهم أنشد:

إني إذا احتوشتني ألف محبرة ... يكتبن: حدثني طورا وأخبرني
نـادت بحضـرتـي الأقـلام معلنـة ... هذي المفاخر لا قعبان من لبن

ويشير بالشطر الأخير من البيتين إلى بيت الشاعر أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، والتي يمدح بها أهل فاس وقائدهم وهرر، حين جاؤوا إلى اليمن وأخرجوا منها الحبشة الذين استولوا عليها. حيث قال في آخرها:

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبـا بمـاء فعـادا بعـد أبـوالا

ومعنى البيت الذي يخاطب به القائد يقول له: ما فعلته هو المكارم والمآثر الباقية، إذ بلغت من عدوك ما بلغت، وأعدت لليمن ما أعدت، أما ما يتمدح به المتمدحون من بذل شربة لبن، يمزج بماء في قعب ـ أي قدح من خشب ـ أو قعبين إلى ضيف فيشربهما ثم يصيران بعد أبوالا فليس بمكرمة تذكر. إنما المكرمة أن تحف بك العمائم المتماوجة والمحابر المفعمة، والأقلام المنتشية، التي تخط حروفاً من نور لا يمحوها الدهر، ولا ينسيها الزمن، ولا تطمسها الريح، باقية خالدة للأجيال ذكرًا وأثرًا، وأجرًا ومجدًا.

مســـامرة العلـــم

من أجمل ما قيل في ذلك قول علامة العربية أبي القاسم الزمخشري، يحكي تلذذ العلماء بإيقاظ ليلهم وطول سهرهم، وهجرهم الملذات، وإعراضهم عن المغريات، وبيع الكرى من المحابر، واستبدال النوم بالدفاتر، ومسامرة الحرف، ومناجاة الأسطر، لكن في شوق وتحرق وولع ووله وانكباب عارم حاد ينبيء عن همة مجنحة وعزم مشبوب متوقد، اسمع إليه يقول:

سهـري لتنقيـح العلـوم ألـذ لـي   مـن وصـل غـانيـة وطيـب عنـاق
وتمـايلـي طـربًـا لحـل عـويصـة   أشهى وأحلى من مدامة ساق

وصـريـر أقـلامـي علـى أوراقهـا أحلـى مـن الـدوكـاه والعشـاق
وألــذّ مــن نقــر الفتــاة لــدفهــا نقري لألقي الرمل عن أوراقي
يـا مـن يحـاول بـالأمـانـي رتبتي كــم بيــن مستفـل وآخـر راقـي
أأبيــت سهــران الــدجـى وتبيتـه نـومًـا وتبغـي بعـد ذاك لحـاقـي

عزة وشمم وإباء

والآن مع الإمام المبدع، صيرفي الكلام، وجوهري المعاني، وأستاذ الفهم الناصع والبيان البارع، أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي لكي يشنف أسماعنا بقطعة راقية أخَّاذة خلابة ساحرة من شعره فاسمع إليه يقول:

أمطــري لــؤلــؤًا سمــاء ســرنــد يـب وفيضـي آبـار تكـرور تبـرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتًا وإذا مــت لســت أعــدم قبــرًا
همتــي همــة الملــوك ونفســي نفــس حــرّ تـرى المـذلـة كفـرًا
وإذا مـا قنعـت بـالقـوت عمـري فلمــاذا أزور زيــدًا وعمــرًا

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾: حكم قاطع، وأمر واقع، ليس له من دون الله دافع، ليس منه بد ولا شافع.

﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ ﴾: يعم كل الدول، وأتى على أهل القرون الأول، ولم ينجو منه أهل سهل ولا جبل، ولا ذو خدم وخول.

﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ ﴾: موت يقتحم الأسوار، ويطوي القفار، ويستقل البحار. لا ترده عظمة جبار، ولا عزة قهار، ولا منعة ذي درهم ودينار.

﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ ﴾: على رغم كل كبير وصغير، وخطير وحقير، وغني وفقير، ووزير ومشير.

﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ ﴾: فلا خلود لكل موجود، فلما البكاء على كل مفقود، فهو أجل معدود، وعمر محدود، وقضاء غير مردود.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾

قريب: أسمع فأجيب، وأعطي البعيد والقريب، وأرزق العدو والحبيب.

قريب: يغيث اللهفان، ويشبع الجوعان، ويسقي الظمآن، ويتابع الإحسان.

قريب: عطاؤه ممنوح، وخيره يغدو ويروح، وبابه مفتوح، حليم كريم صفوح.

قريب: يدعوه الغريق في البحار، والضال في القفار،

والمحبوس خلف الأسوار كما دعاه عبده في الغار.

قريب: فرجه في لمحة البصر، وغوثه في لفتة النظر، المغلوب إذا دعاه انتصر، اطلع فستر، وعلم فغفر، وعُبد فشكر، وأوذي فصبر.

قريب: جواد مجيد، لا ضد له ولا نديد، أقرب للعبد من حبل الوريد، على كل نفس قائم وشهيد، محمود ممدوح حميد.

قريب: دعا المذنبين للمتاب، وفتح للمستغفرين الباب، ورفع عن أهل الحاجات الحجاب.

قضايــــا الفاتحــــة

ذكر في الفاتحة قضايا: الحمد، والرحمة، والملك، والعبادة، والاستعانة.

فالحمد: مدح الجليل، والثناء عليه بكل جميل، وشكره على كل عطاء جزيل.

والرحمة: لطفه بالعباد، وإمداده بالإسعاد، وحلمه عليهم مع كثرة الفساد. ورزقه لهم مع العناد.

والملك: تفرد بالقهر، وعلو القدر، والغلبة على الأمر، ووقوع الخليقة منه في قبضة الأسر.

والعبادة: الإذعان له بالربوبية، وإفراده بالألوهية، والعمل

بأحكامه الشرعية، والقيام بواجب العبودية.

الاستعانة: الاكتفاء بتأييده وحده، وطلب عونه ورفده، واعتقاد أن كل خير عنده، وحاجة العبد له وهو لا يحتاج عبده.

الهداية: معرفة المنقول بالعقول بهداية الرسول، وسلوك الطريق بالتصديق، والعبودية بالتحقيق، وترك غير هذا المسلك من المسالك، واعتقاد أن من زاغ عنها فهو هالك.

والمنعم عليهم: هم الصفوة من الخليقة، الذين أحسنوا سلوك الطريقة، وجاؤوا بالطاعة على الحقيقة، وفعلوا الإحسان على أعظم وثيقة.

المغضوب عليهم: هم الذين تعلموا ولم يعملوا، وعرفوا فجهلوا، وبصروا ثم بدلوا، فالمعرفة عندهم في الأذهان، والشرع عندهم للسان وليس للجنان.

الضالون: هم الذين عبدوا على جهالة، واجتهدوا على ضلالة، ابتدعوا بلا دليل، وخبطوا خبط عشواء في كل سبيل، أكثروا من عبادة الرحمن بلا برهان.

﴿ ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ ﴾

أسرفت في الذنوب واعتديت، كذبت الرسول وافتريت، ثم أتيت، آلآن وقد عصيت، تجبرت في الأرض وتعاليت، وتكبرت على

العباد وتماديت، ثم جئت تقول يا ليت يا ليت، آلآن وقد عصيت، جاءك الرسول وما اهتديت، ونهاك عن الطغيان وما انتهيت، ودعاك فأبيت. آلآن وقد عصيت. أريناك الآيات فكأنك ما رأيت، وأسمعناك الخطاب فكأنما ما دريت. آلآن وقد عصيت.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾

ما أحسن أن يتصل الفناء بالبقاء، وما أجمل أن تتعانق الأرض والسماء، وما أسعد أن تسافر الروح إلى مصدر النور، ومنبع الهدى ومنطلق العناية، إن نفسًا طاهرة سجدت في محراب الأرض ساقها الشوق لتسجد في محراب السماء، وإن قلبًا بلغ النهاية في الإيمان يتوق ليطوف بسدرة المنتهى، وما أحسن الرحلة أن تكون ليلاً، حيث يهدأ الخطار، وينام السمار، وتسكن الحركات، وتسكت الأصوات، لتكون الرحلة في وداعة الليل، سرًا في ضمير الظلام، وفكرة في قلب الدجى، وإن للّيل قصة في الحب لا تنسى، فهو ميدان الوصل، وخيمة اللقاء، ومجلس الأنس.

أزورهم وظلام الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

والرحلة في الليل أكثر أمنًا فهي أبعد عن العيون الراصدة، وعن القوافل المتماوجة، ثم إن السماء محروسة بشهب ملتهبة تنطلق كل لحظة لتحرق ماردا، أو تردي عاتيًا، أو تحرق شيطانًا غاويًا، فهم عن سماع كلام الحب معزولون، كلما جاء أحدهم يتسمع نجوى التخاطب

قذف بشهاب ثاقب.

يحمون بالبيض والسمر اللذان فلو أدنيت رأسك من بيت الهوى قطعاً

وما أحسن أن يبدأ السفر من المسجد إلى المسجد، حيث تخرج النفس بعد سجود، ويرحل القلب بعد عبادة، ويذهب المسافر بعد صلاة.

الإيمان هو الحياة

الأشقياء بكل معاني الشقاء هم المفلسون من كنوز الإيمان، ومن رصيد اليقين، فهم أبدًا في تعاسة وغضب ومهانة وذلة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

لا يُسعد النفس ويزيكها ويطرها ويفرحها ويذهب غمها وهمها وقلقها إلاَّ الإيمان بالله رب العالمين، لا طعم للحياة أصلاً إلا بالإيمان.

إذا الإيمـــان ضـــاع فـــلا حيـــاة ولا دنيـــا لمـــن لـــم يحـــيِ دينـــاً

إن الطريقة المثلىٰ للملاحدة إن لم يؤمنوا أن ينتحروا ليريحوا أنفسهم من هذه الآصار والأغلال والظلمات والدواهي، يا لها من حياة تعيسة بلا إيمان، يا لها من لعنة أبدية حاقت بالخارجين على منهج الله في الأرض ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] وقد آن الأوان للعالم أن يقتنع

كل القناعة وأن يؤمن كل الإيمان بأن لا إله إلا الله بعد تجربة طويلة شاقة عبر قرون غابرة توَّصل بعدها العقل إلى أن الصنم خرافة والكفر لعنة، والإلحاد كذبة، وأن الرسل صادقون، وأن الله حق، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

وبقدر إيمانك قوة وضعفًا، حرارة وبرودة، تكون سعادتك وراحتك وطمأنينتك.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧] وهذه الحياة الطيبة هي استقرار نفوسهم لحسن موعود ربهم، وثبات قلوبهم بحب باريهم، وطهارة ضمائرهم من أوضار الانحراف، وبرود أعصابهم أمام الحوادث، وسكينة قلوبهم عند وقع القضاء ورضاهم في مواطن القدر، لأنهم رضوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً.

فكــــر واشـــكر

والمعنى أن تذكر نعم الله عليك فإذا هي تغمرك من فوقك ومن تحت قدميك ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] صحة في بدن، أمنٌ في وطن، غذاءٌ وكساء، وهواءٌ وماء، لديك الدنيا وأنت ما تشعر، تملك الحياة وأنت لا تعلم ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠] عندك عينان، ولسان وشفتان، ويدان ورجلان ﴿ فَبِأَيِّ

ﺀَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣] هل هي مسألة سهلة أن تمشي على قدميك، وقد بترت أقدام؟! وأن تعتمد على ساقيك، وقد قطعت سوق؟! أحقير أن تنام ملء عينيك وقد أطار الألمُ نوم الكثير؟! وأن تملأ معدتك من الطعام الشهي؟! وأن تكرع من الماء البارد وهناك من عُكّر عليه الطعام، ونغص عليه الشراب بأمراض وأسقام؟! تفكر في سمعك وقد عوفيت من الصمم، وتأمل في نظرك وقد سلمت من العمى، وانظر إلى جلدك وقد نجوت من البرص والجذام، والمح عقلك وقد أنعم عليك بحضوره ولم تفجع بالجنون والذهول.

أتريد في بصرك وحده كجبل أحد ذهبًا، أتحب بيع سمعك وزن ثهلان فضة، هل تشتري قصور الزهراء بلسانك فتكون أبكم، هل تقايض بيديك مقابل عقود اللؤلؤ والياقوت لتكون أقطع، إنك في نعم عميمة وأفضال جسيمة، ولكنك لا تدري، تعيش مهمومًا مغمومًا حزينًا كئيبًا وعندك الخبز الدافىء، والماء البارد، والنوم الهانىء، والعافية الوارفة، تتفكر في المفقود ولا تشكر الموجود، تنزعج من خسارة مالية وعندك مفتاح السعادة، وقناطير مقنطرة من الخير والمواهب والنعم والأشياء، فكر واشكر، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١] فكر في نفسك، وأهلك، وبيتك، وعملك، وعافيتك، وأصدقائك، والدنيا من حولك ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

فائـــــــدة

في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧] تقسيم عجيب لأنواع البلاء وأقسام المشقة التي تصيب العبد، ويجب عليه الصبر، وهي البأساء والضراء وحين البأس، هذه الأنواع لما اجتمعت هنا في السياق افترقت في المعنى، فالبأساء هي: الفقر والضراء: المرض، وحين البأس: القتال، فالفقر تلف المال، والمرض تلف البدن، والقتال تلف النفس، كما قال المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجـود يفقـر والإقـدام قتـال

وإذا افترقت هذه الألفاظ في السياق شملت المعاني الثلاثة في الجملة.

فالبأساء: هو ما يتركه الفقر والفاقة على العبد من بؤس، تتلمظ له النفس، وتنقبض بسببه الروح، ويذوب من حرارته القلب، فالصبر عليها كتم الحاجة بلباس التجمل، وإخفاء الفاقة بحجاب التعفف، وانتظار الفرج بأمل صدق الوعد، وبارق اليسر وحسن الظن بالمعطي، تبارك وتعالى.

والضراء: هو ما ينال الجسم من ألم الضر من مرض ووصب ونصب وجراح، فالصبر على الضراء فيه تحمل الضر طلبًا للأجر، والتجلد للأوصاب اغتنامًا لحسن الثواب، وتذكر تحات الذنوب،

وتساقط الخطايا بسياط الألم.

وحين البأس: وهو ساعة ذهاب النفوس، وتطاير الرؤوس، والتقاء الجمعين، وذهول الإبطال في معترك المنايا حينها يثبت القلب في صمود، ويصبر الباسل في سكون حتى تلوح له أعلام النصر، وبنود الظفر، فمن صبر للبأساء كتم الحاسد، وكبت الشامت، وأسعد المحب وأرضى الرب، ومن صبر للضراء نال الأجر، وحسن الذكر، وطمأنينة الصدر، وعلو القدر، ومن صبر حين البأس هزم العدو، ونال النصر، وأدرك الفتح، وحاز الغلبة.

وبدأ بالبأساء لأنها أخف الثلاثة، والصبر عليها أهون من الضراء، وحين البأس لأن الرزية بالمال أخف من رزية البدن والنفس، وثنى بالضراء لأنها أشد من البأساء، ولأنها ألم على الجسم ومشقة على البدن، وثلث بحين البأس فهي أنكى الثلاث وأصعبها، لأن النفس إذا ذهبت في القتال ذهب معها المال والبدن، والله المستعان.

البـــدار البـــدار

الزمن لا ينظر أحدًا والتاريخ لا يعترف بمسوف، وكم هم أولئك الغافلون اللاهون الذين يراوحون في أماكنهم تلقاهم بعد سنة فإذا هم أولئك الأولون في علمهم وعبادتهم واطلاعهم وعمقهم ونشاطهم إن لم يكونوا أنقص وأقل.

لهم أعذار عن طلب معالي الأمور، ولهم حجج يدافعون بها عن أنفسهم إذا لامهم لائم على تأخرهم وخمودهم فهم أبدًا معذورون عند أنفسهم كما قال الأوّلون: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: ١١]، وكأنَّ الآخرين الذين أبدعوا وأحسنوا ليس لهم أموالٌ ولا أهل لكنها الأعذار الواهية، ولذلك حجتهم داحضة عند الله وعند الناس، أليس الذين حصّلوا العلم وكابدوا المجد وسهروا الليل وأظمأوا الهواجر كان لهم أعذار من الحزن الممضّ والجوع والعطش والعري والفقر ولكنهم كافحوا وناضلوا وصبروا حتى وصلوا فارتاحوا:

يحاربني دهري ولم يدر أنني أعــزُّ وأحــداث الـزمـان تهــونُ
فبات يريني الدهر كيف عتوه وبــتُّ أريـه الصبـر كيـف يكـونُ

الظروف لا تتهيّأ لأحد

أهل العطالة والبطالة أموات غير أحياء وما يشعرون أيّانَ يبعثون، يهمون أحيانًا بفعل الجميل والسعي للفضيلة وحيازة المكسب ثم ينكصون على أعقابهم خاسرين، لأن الظروف في زعمهم لا تساعدهم فهم في مواعيد تمر وفي انتظار أخبار في الغيوب، فالكسول عن طلب العلم يعتذر بحر الصيف: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١] وببعد المسافة: ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢]. وبالأهل والأموال: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: ١١]. وبمسئولية البيت ﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣] فهم أبدًا في ظروف قاسية وهم أبدًا مشغولون:

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

نعرف نفرًا من البشر يهددون الناس في كل مجلس بعزمهم على حفظ القرآن وطلب العلم والتفقه في الدين، ولكن الأيام تمر سريعة، وهم خامدون جامدون، كتل من اللحم، استعصت على رواد التربية وأناخت في مبارك اللهو والغرور والأماني فكم هي حسرتهم وخسارتهم!! ويا لتفاهة حياتهم؛ لأنها بلا معنى وبلا غاية.

زعم الفرزدق أنْ سيقتل مربعًا أبشر بطول سلامة يا مربعُ

حـــلاوة المعـانـــاة

لا يبرع متميز في باب من الأبواب أو فن من الفنون حتى يذوق المعاناة في هذا السبيل، يحترق بنار الجهد، والدأب، والانصهار، ليكون عطاؤه صادقًا، نابعًا من قلبه، ووجدانه.

الكلمة الملتهبة المؤثرة هي التي يذوق صاحبها طعمها، ويحس بحرارتها وتأثيرها قبل غيره.

القصيدة البديعة هي تلك المتدفقة من الجوانح، المعبرة عن معاناة قائلها والتياعه.

الكتاب النافع مؤلف بريشة موحية تحمل رسالة تحرص على أن تقدمها في هذا الكتاب.

آلاف الكلمات والقصائد والخطب والمؤلفات، جثث هامدة، كالمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، لأنها قدمت بلا معاناة ولا معايشة، ولا روح؛ فخسرت قيمتها، وتأثيرها، ووقعها.

إن الإكثار شيء والجودة شيء آخر، وأفضلُ العبادةِ أحسنُها ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] وهو صدق التوجه وحسن الاتباع، ومعرفة المقاصد، والتفقه في الأسرار، وعلى الباردين في عطائهم، الجامدين في عواطفهم أن يعيشوا معاناة ما يحملون، وهمَّ ما يريدون، ليصلوا مع من وصل.

سـارعـوا

القرآن والسنة يستثيران المسلم إلى أن يبادر ويسارع ويتقدم، ومنطق القرآن ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟﴾ ﴿سَابِقُوٓا۟﴾ ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾. والويل في القرآن لمن قعد وتقاعس وفشل وتخلف: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦]. ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وفي الحديث: «**بادروا بالأعمال**...»، «**اغتنم خمسًا قبل خمس**...»، «**احرص على ما ينفعك**...».

إن من أعظم مصائب الجيل خسة الهمم، وبرود العزائم، وفتور الأرواح، رضوا بالقيل والقال قعدوا مع اللاهين، فرحوا بمقعدهم

خلاف اللامعين والمبرزين، يضحكون ارتياحًا لعيشهم ووضعهم، لا في العبادة مستمرين، ولا في العلم مجتهدين، ولا في معالي الأمور مغامرين، عند الإنسان عمر واحد، إمَّا وإمَّا:

ألا لا أحب السير إلا مصاعدًا ولا البـرق إلا أن يكـون يمـانيًـا

﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [التوبة: ٣٨]

ما لكم إذا قيل لكم هلموا إلى المكرمات قعدتم!! ما لكم إذا نوديتم إلى القمم نمتم!! استفيقوا يا قوم، بادروا أيها الشباب، اسعوا أيها الفتية.

يا ويلتاه! تقضَّىٰ العمر، وتصرم الزمن، وضاع الدهر، لا حفظ ولا فهم، ولا جد ولا اجتهاد، تراوحون أماكنكم، تقفون والركب أمامكم.

يا حسرة والله على الليالي الطويلة، والأيام الجميلة، الواعظ فيكم ينفخ في رماد، ولسان الحال يا حسرة على العباد:

ما في الخيام أخو وجدٍ اطارحه حـديـث نجـد ولا خـل نجـاريـه

تبًا لمن يضحك منكم وما وعىٰ القرآن في قلبه وما حفظ السنة في لبِّه.

آه من الجثث الهامدة يختطفها الموت ولم تقدم شيئًا ولا تعي شيئًا.

وعنــد المنحنــى بعنــا نفــوسًــا لأجل عيونِ مَنْ سَلَبَ العيونا

* لا تقف مكانك. هل وقفت الشمس مكانها؟ هل ثبت القمر في موضعه؟ هل سكنت الريح؟ هل جمد النهر قبل مصبه؟ الكل في حركة، الكل في سباق، الزمن يمر مر السحاب، الصوت يسعى إلى منتهاه، الضوء ينطلق إلى مداه، فهيا أيها الكادح والمخلوق العجيب، لا تقف. فإنك في وقوفك تخسر ساعات غالية لن تعود أبدًا، عمرك في أنفاسك، تاريخك يكتب بساعاتك، فاتق الله في الليالي والأيام والسنين والأعوام، كفىٰ مماطلة... كفىٰ تسويفًا... استفق من سكار الغفلة، وسِنَةِ العطالة، وتلفت حولك. لن تجد الواقفين إلا البلداء، أما البقية فكلهم في دأب، وجد، واجتهاد، الفلاح يبعثر الأرض ذات الصدع بمسحاته، المهندس يدير المعامل بآلته، الطبيب مكب على عقاقيره، يختبر، ويحلل، الأستاذ منهمك في درسه، يشرح، ويعرف، العابد في مصلاه يدعو، ويسبح، وأنت مسوف بالآمال، هائم في أودية الخيال، متعلل بطول العمر ورغد العيش*

لا يحل لك أن تهدر العمر ولا أن تعقر بدن العيش الغالية ولا أن تذبح الزمن بسكين اللهو، لأن قتل المعصوم حرام.

إذا أنــت ضيعــت الـزمـان بغفلـة ندمت إذا شاهدت ما في الصحائف

* تسابق الذئب والسلحفاة وكان الذئب أسرع خطًا، وأشد وثبًا، واقوى عزيمة، والسلحفاة بطيئة ثقيلة، فمر الذئب بظبي فعكف عليه ليصطاده، فعافسه، وقاومه، وارتحلت السلحفاة هادئة مواصلة فسبقت الذئب إلى الغاية، وقعد بالذئب تلفتُه وانشغاله. *

* فيا من عرف طول الطريق، وقلة الزاد، وبعد السفر، ونفاسه المطلوب، وخساسة الدنيا، ما لك إذا قيل لك انفر تثاقلت؟! وإذا قيل لك قم تناومت؟!

شابهت في سكونك الميت والجماد، ووالله لو حملت همة عالية لارتحلت بك قبل الفجر، وهبطت بك وادي الفلاح، وأنزلتك مهبط الخير، لكنك رضيت بالقعود أول مرة، وجلس بك الطبع الكثيف في الصفوف الأخيرة، فأنت في الغذاء والكساء ماهر مثابر مجيد فريد، ولكنك في العمل والعبادة والتحصيل ثقيل بليد.

أوشكت الشمس على الغروب، والعمر في هروب، وأنت راكد لابث:

ويلك بادر قبل تغريد الطيور فالعمر نهبٌ ولياليك تمورْ

بان لك الرشد، وظهر لك الربح، وقامت شوكة الميزان، ولا ينصحك مثل المعصوم ولا يدلك مثل القرآن. وقد قامت عليك الحجة، وما بقي لك عذر، وليس لك مهرب، فتب إلى مولاك واهجر دنياك، وأكثر من الزاد الثمين المبارك الباقي الطيب: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

فلا تقعد معهم

مجالس اللاهين العابثين أندية للشيطان، نصب فيها رايته. تمر الساعة بهم رخيصة خفيفة لا قيمة لها. ألا يعلم هؤلاء أن هذه الساعة قد يقرأ فيها جزءان أو ثلاثة من القرآن ومائة حديث من حديث رسولنا الكريم ﷺ، وقد يطالع فيها خمسون صفحة من كتب العلم، أو ألف تسبيحة، أو ثلاثون ركعة، لكن أين من يعرف شرف الوقت؟! أين من يقدّر قيمة الزمن؟! أين من يهتم بالعمر؟! وقليل ما هم!!

عوّد نفسك التسبيح في كل وقت وآن، إلهج بالذكر حتى يكون لك عادة، اتخذ المصحف رفيقًا في حضرك وسفرك.

لقد صاحبنا الأصحاب والأحباب، ورافقنا الأصدقاء والإخوان، فإذا القلب لا يصلح إلا مع الرب جل في علاه، ما أكرمه وأحلمه وأعظمه، إذا استغفرته غفر لك، إن سألته أعطاك، إن أخطأت سترك، إن عدت إليه قبلك، إن ذكرته ذكرك ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

أحاديـــث الترخّـــص

الفاشلون في الحياة يحفظون قصص الرخص، وأحاديث الراحة، وأخبار اليسر والسهولة. فهم في فسحة دائمًا، وفي نزهة وراحة ومتعة، الضحك.. العبث.. الهذيان.. الغفلة.

من صلى من هؤلاء الصنف قام إليها بكسل وحضرها بذهول ونقرها بشرود، وختمها بلغو، ونقضها بذنب. آخر مَنْ يدخل المسجد، وأول من يخرج منه، ليس له في القرآن حزب معروف يحافظ عليه، ليس له ورد من الأذكار، ولا قسم من الأدعية، ولا جلسة صباحية مع التسبيح، ولا لحظة مسائية مع الاستغفار، لكنها سيان يذكر أو لا يذكر، يدعو أو لا يدعو، إن تذكر أحيانًا فتح المصحف على أي صفحة أو سورة يتمتم قليلاً ثم يطبق المصحف، بارد الإحساس مُثلَّج العواطف ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]. اللهم لطفك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

تعزّ بأهل البلاء

تلفت يمنة ويسرة فهل ترى إلا مبتلىً؟! وهل تشاهد إلا منكوبًا؟! في كل دار نائحة، وعلى كل خد دمع، وفي كل وادٍ بنو

سعد.

أيها الشامت المعيَّر بالدهر   أءنت المبَرؤُ الموفورُ

كم من المصائب وكم من الصابرين، فلست أنت وحدك المصاب بل مصابك أنتَ بالنسبة لغيرك قليل، كم من مريض على سريره من أعوام يتقلب ذات اليمين وذات الشمال يئن من الألم ويصيح من السقم.

كم من محبوس مر به سنوات ما رأى الشمس بعينه، وما عرف غير زنزانته.

كم من رجل وامرأة فقدا فلذات أكبادهما في ميعة الشباب وريعان العمر.

كم من مكروب ومديون ومصاب ومنكوب.

آن لك أن تتعزّ بهؤلاء وأن تعلم علم اليقين أن هذه الحياة سجنٌ للمؤمن ودار للأحزان والنكبات، تصبح القصور حافلة بأهلها وتمسي خاوية على عروشها، بينما الشمل مجتمع والأبدان في عافية والأموال وافرة، والأولاد كثر، ثم ما هي إلا أيام فإذا الفقر والموت والفراق والأمراض ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم: ٤٥] فعليك أن توطن نفسك كتوطين الجمل المحنك الذي يبرك على الصخرة، وعليك أن توازن مصابك بمن حولك وبمن سبقك في مسيرة الدهر، ليظهر لك أنك معافىٰ بالنسبة لهؤلاء وأنه لم يأتك إلا وخزات سهلة فاحمد الله على لطفه واشكره على ما أبقىٰ، واحتسب ما

أخذ، وتَعَزَّ بمن حولك.

ولـولا كثـرة البـاكيـن حـولـي   علـى إخـوانهـم لقتلـت نفسـي

ولك قدوة في الرسول ﷺ وقد وُضِعَ السلى على رأسه، وأُدميت قدماه، وشج وجهه، وحُوصر في الشعب حتى أكل ورق الشجر، وطرد من مكة، وكسرت ثنيته، ورمي عرض زوجته الشريف، وقُتِلَ سبعون من أصحابه، وفَقَدَ ابنه، وأَكثَرَ بناته في حياته، وربط الحجر على بطنه من الجوع، واتُهِمَ بأنه شاعر ساحر كاهن مجنون كذاب، صانه الله من ذلك، وهذا بلاء لابد منه وتمحيص لا أعظم منه، وقد قتل قبلُ زكريا، وذبح يحيى، وهجر موسى، ووضع الخليل في النار، وسار الأئمة على هذا الطريق فضرج عمر بدمه، واغتيل عثمان، وطعن علي، وجلدت ظهر الأئمة، وسُجن الأخيار، ونكل بالأبرار ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٤].

مع بلال بن رباح

صاحب أنشودة الكفاح الأولى، سحبوه وهو يردد: أحدٌ، أحد، لأن الرجل ذاق قل هو الله أحد، الحياةُ عنده أن يموت الباطل، والموت لديه أن يعيش الحق، رماه الكفار بالحجارة، فأخذه الإمام ورفعه على المنارة.

وصل بصوته أهل الأرض بأهل السماء، وأهل الفناء بأهل البقاء، والضعفاء بالأقوياء، فهوصمود المستضعفين أمام الجبروت، وقلعة البائسين في وجه المستكبرين.

بلال قصة الإسلام يوم ألغي الرق وحرر الضمير، وأنهي الاستبداد، وأكرم الموالي تمثلت فيه السمو بلا نسب، والنبل بلا مال، والرفعة بلا جاه، والعزة بلا عشيرة.

أذن بلال الأسود على الكعبة السوداء، معلنًا سيادة الحق، قر سواد عين الإسلام بالمؤذن الأسود والبيت الأسود:

كأنَّ منظره الرقائق قد نسجت   من حبة القلب أو من أسود المقل

بلال ثلاثة مشاهد.

مشهد الحجارة السوداء تصلي جسمه، والأذان يتفجر من حنجرته، ونشيدُ: غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه، بلال برهان على عظمة المبدأ، وانتصار القيم، ورسوخ الميثاق.

استعبده أمية فحرره أبوبكر، أرخصه الكفر فأعلاه الإسلام، لفظته الأرض فاستقبلته السماء، ضربت قدماه بالسياط فسمع دفا نعليه على البساط، أزعج المشركين بنداء: أحدٌ أحد، وأطرب المؤمنين بأذان: أشهد أن لا إله إلا الله، موهبة بلال: صوت يعبر الأثير بالحق في صرامة وحرارة وإباء وإصرار.

ولدته أفريقيا، وربته آسيا، وأنصتت لصوته أوربا، الأهل في

الحبشة، والشباب في مكة، والعمل في المدينة، والمنصب على المنارة، والوفاة بالشام، والموعد الجنة.

الإمام قرشي، والمؤذن حبشي، ماء النسب عقيدة، وصلة القربى مبدأ، وعروة المحبة إيمان، فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر. بلال حيث ينتصر الحق على الباطل، والحقيقة على الخيال، واليقين على الظن، والفقر الطاهر على الغنى الزائف.

ألا يكفي جلادي العالم عبرة أن السياط لا تلغي القيم، وأن المشانق لا تقتل المبادىء، وأن التعذيب لا يميت الحقوق، والدليل سيرة بلال، فقد بقي صوته ينقل حيًا على هواء القلوب عبر أثير الصدق، والصمود والإصرار والصلاح والصبر.

بلال تحدى بطهره الحجارة، وبحنجرته الفضاء وبحبشيته قرشية أمية بن خلف، وبالسواد البياض، وبالقلة الكثرة.

إن جاءت الإمام بشارة قال: يا بلال أذن في الناس، وإن حَزَبَ أمر قال: أرحنا بها يا بلال.

في سيرة بلال أن المجد لمن غلب، وأن النهاية لمن صبر، وأن العاقبة لمن اتقى.

ألا بلغ الله الحمى من يريدها وبلغ أطراف الحمى من يريدها

ركوته لشرب المعلم، وعصاه سترة للإمام، وعينه لمراقبة الفجر، وفمه لإعلان الميثاق، ركب بلال المنارة، مناديًا إلى الصلاة،

وركب الكعبة صارخًا بالحق، وركب فرسه منافحًا عن الله، ثم ركب أكتاف الأبطال إلى الجنة، والآن يرقد بلال بعد أن أدى ما عليه، وسلم ما لديه، وقاتل بيديه، وسعى بقدميه، ويكفيه أنه في الجنة يسمع دفي نعليه.

نحـــــن

كل ساعة لا تقترب بك من مقصدك فهي وبال عليك، وذلك لأنها سحبت من عمرك، وخُصمت من رصيدك. كم ننام ولانتهجد.. كم نلغوا ولا نسبح.. كم نأكل ولا نصوم التطوع. آه ما أشد البطالة، وما أكثر الغفلة، وما أحرصنا على تضييع الأوقات، نتذاكر في تصريف الدقائق والثواني ونحث الخطىٰ في صرف الزمان هدرًا، لا نبكي على خطيئة سلفت، ولا نُسر بفرصة للخير سنحت، نأكل أكثر مما نعمل، نلهو والأمر جدّ. في الرؤوس أرطال كثيفة من النوم، ومن الأعصاب مقادير ضخمة من البرود، تثلجت الأدمغة، وهي بحاجة إلى سياط حديدية محماة من سير السلف وأخبار السلف وعبادة السلف.

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم وإن حاولوا في النائبات وأجملوا

الضحـــك والبكـــاء

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: ٤٣].

وضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت، والضحك أكمل من البكاء، ولذلك يضحك الله سبحانه وتعالى ضحكًا يليق بجلاله.

والضحك موقعه من سرور النفس عظيمٌ، ومن مصلحة الطباع كبيرٌ، وهو شيء من أصل الطباع، وفي أساس التركيب، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علة سروره، ومادة قوته، والعرب لفضل الضحك تسمي أولادها: الضحاك والبسام وطلق المحيا. وقد ضحك عليه الصلاة والسلام. ولكن للضحك موضع ومقدار ونسبة وحد وحال، ومقال إذا تجاوزها ذم، وإذا تعدها منع، والضحك جمام للروح، وراحة للقلب، ونزهة للنفس، يجدد النشاط، ويبعث على الأمل، ويزيد في الطاقة، ومعاودة العمل، وهو أشبه شيء بالجمال والفأل الحسن والبشرى، فهو شبيه بالفجر إذا تنفس، والبرق إذا لمع، والشمس إذا سطعت، والقمر إذا أضاء، والنجوم إذا لمعت والزهر إذا تفتق، وهو يدل على سعة البال، ورحابة الصدر، وطول النفس، وقوة التحمل، وقلة الاكترات، وفراغ الخاطر، وهو للمجهود كالبلسم، وللمتعب كالدواء، وللمهموم كالمسكن. وهو رفيق حسن الظن والتفاؤل، وعظيم الرجاء

والرضا بالقضاء، والفرح بالمقدور.

وأما البكاء فإنه صالح للطبائع، محمود المغبة، حسن العاقبة، إذا وافق الموضع، ولم يجاوز المقدار، ولم يعدل عن جهة، وهو دليل على الخشية، والبعد عن القسوة، وهو من الوفاء، وشدة الوجد على الأولياء، وحفظ العهد للأصفياء، وهو من أعظم ما تقرب به العابدون، واسترحم به الخائفون، فإن كان من خوف الجليل، أظل صاحبه تحت عرشه الظليل، وإن كان لتذكر عذابه حرم عينه على عقابه، وقد لام الله من قرأ كلامه ولم يبك. فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠].

والبكاء على الدنيا وذهابها دليل على الخور، وعلامة على الشح، وبرهان على اللؤم، لأن الدنيا أخس من أن يبكي عليها، وأحقر من أن يحن القلب إليها، قال الشاعر:

نفسي التي تملك الأشياء ذاهبة   فكيف أبكي على شيء إذا ذهبا

ومن أجمل ما قيل في زجر العين عن البكاء قول متمم في أخيه مالك:

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها   عن الحلم بعد الجهل أسبلتا معًا

الحاســـــد

لو قدمت له حذاءه، وأحضرت له طعامه، وناولته شرابه، وألبسته ثوبه، وهيأت له وضوءه، وفرشت له بساطه، وكنست له بيته، فإنك لا تزال عدوه أبدًا، لأن سبب العداوة لازال فيك، وهو فضلك أو علمك أو أدبك أو مالك أو منصبك، فكيف تطلب الصلح معه وأنت لم تتب من مواهبك؟! والحاسد ينظر متى تتعثر، ويتحرى متى تسقط، ويتمنى متى تهوي.

أحسن أيامه يوم تمرض، أجمل لياليه يوم تفتقر، وأسعد ساعاته يوم تنكب، وأحب وقت لديه يوم يراك مهمومًا مغمومًا حزينًا منكسرًا، وأتعس لحظة عنده إذا اغتنيت، وأفظع خبر عنده إذا علوت، وأشد كارثة لديه إذا ارتقيت، ضحكك بكاء له، وعيدك مأتم له، ونجاحك فشل لديه، ينسىٰ كل شيء عنك إلا الهفوات، ويغفل عن كل أمر فيك إلا الزلات، خطأك الصغير عنده أكبر من جبل أحد، وذنبك الحقير لديه أثقل من ثهلان، لو كنت أفصح من سحبان، فأنت عنده أعيىٰ من باقل، ولو كنت أسخى من حاتم فأنت لديه أبخل من مادر، ولو كنت أعقل من الشافعي فهو يراك أحمق من هبنقة، الذي يمدحك عنده كذاب، والذي يثني عليك لديه منافق، والذي يذب عنك في مجلسه ثقيل حقير، يصدق من يسبك، ويحب من يبغضك، ويقرب من يعاديك، ويساعد من يكرهك ويجافيك، الأبيض في عينك سواد

عنده، والنهار في نظرك ليل في نظره، لا تجعله حكمًا بينك وبين الآخرين فيحكم عليك قبل سماع الدعوى وحضور البينة، ولا تطلعه على سرك فأكبر همه أن يذاع ويشاع، ويحفظ عليك الزلة ليوم الحاجة، ويسجل عليك الغلطة ليوم الفاقة لا حيلة فيه إلا العزلة عنه، والفرار منه، والاختفاء عن نظره والبعد عن بيته، والانزواء عن مكانه.

أنت الذي أمرضه وأسقمه، أنت الذي أسهره وأضناه، أنت الذي جلب له همه، وحزنه وتعبه ووصبه، وهو الظالم في صورة مظلوم، لكن يكفيك ما هو فيه من غصص، وما يعايشه من آلام، وما يعالجه من أحزان، وما يذوقه من ويلات:

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني ... فـلا أعـاتبـه صفحـًا وإهـوانـًا
كذاك قد كنت في أهلي وفي وطني ... إن النفيس غـريـب حيثمـا كـانـا
محسد الفضل مكذوب على أثري ... اغتـاب سـرًا ويثني فـي إعـلانـًا

ومن العداوة ما ينالك نفعه

قد تستفيد من العدو أكثر من الصديق، فالعدو يكاسرك بالنقد ولا يجاملك كالصديق، فتطلع على عيوبك، والعدو ينافسك فيشحذ همتك على طلب الكمال، والمبادرة إلى أشرف الخصال، والعدو يتشفى بعثرتك فتصبر وتتجلد فتحصل على ثواب الصابرين، والعدو يدلك على سيئتك فتستغفر منها، ويخبر بنقصك فتتلافاه، والعدو يخبر

الناس بخطأك فيذيع لك شهرة وأجرًا وذكرًا، وكلما خمل ذكرك فتش عنك العدو وأعلن اسمك في النوادي والعدو يترصدك فيجعلك يقظان دائمًا، تتأمل العواقب وتعد العدة، والعدو ربما ضايقك فكفَّر من خطاياك، فهو مصيبة تؤجر عليها إذا صبرت:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت   ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

والصديق في الغالب تنام إليه، وتثق به، وتسترسل إلى مودته، وتفشي له سرك، وتذيع له مكنونك، ويطلع على خفايا عيوبك، ويحصي زلاتك ليوم الحاجة، ويعد غلطاتك لساعة الانتقام، ويعرف مداخلك لوقت الغارة، ويدرك ضعفك وتقلباتك، ثم هو المجامل وربما كتم النصيحة، وسكت عن الخطأ، وأيدك على الزلل، وحسن لك الوقوع، وضيع عليك الوقت وثبطك على النجاح، فهو سم في عسل.

الدهمـــاء والغوغـــاء

هم العوام الهوام الطوام، يغلون الأسعار، ويسدون السيل ويطفئون الحريق، ويحضرون نطاح الكباش، ومناقرة الديوك، ويجلسون على الطرقات يسألون الأخبار والأمطار اتباع كل ناعق، ذباب طمع، إن أقبلت الدنيا عليك طلبوك، حتى ملوك، وإن أدبرت جفوك ومقتوك، لا تثق بمدحهم فهم الدهماء والغوغاء، البلداء الأغبياء السفهاء.

ينقلبون مع الدنيا عليك، ويمنون بالمجيء إليك، إن أكلت من قصعة أحدهم عدها تاريخًا، وإن أكل من قصعتك حسبه حقًا لازمًا، إذا عادوا من مرض زادوا العلة، وإن حضروا في وليمة أطالوا القعود، يضحكون من غير سبب، ويعجبون من غير عجب، حديثهم تزوج فلان وطلق فلان، وسافر يزيد ورجع عمرو، إن حدثتهم بالعلم ناموا، وإن ذكرتهم الموت قاموا، اجتماعهم بلبلة، وتفرقهم رحمة، إذا احتشدوا لا يفرقهم إلا الشرط بالسياط، يحفون بالعاقل حتى يتركونه أحمقًا، ويلتفون بالعالم حتى يودعونه مهلكة، حفوا بالحسين بن علي فلما قتل شردوا شرود الجراد، وطافوا بابن الزبير، فلما صلب طاروا طيران الفراش، وحشدوا مع أحمد بن حنبل فلماسجن وجلد ذابوا كالملح في الماء، يرقدون في مجالس الذكر، ويضحكون في المآتم، خفق نعالهم خلف العالم فتنة، وصداقتهم مؤونة، وسؤالاتهم كلفة، يسألون عن الغامض، ويجهلون الجلي، ويستفتونك عن المعدوم ولا يعلمون الموجود، إذا سمعوا المسألة قلبوا عاليها سافلها، ونقلوها للناس منكوسة، يعجبهم الصوت ولا يدرون ما المعنى، وتدهشهم الحركة، ولا يعلمون الفحوى.

الخطيب عندهم من صاح وناح، وبيده أشاح، والعالم لديهم من كور العمامة، وزخرف هندامه، وعرض أكمامه والسلطان القوي العادل عندهم من ضربهم بالسياط، وبطحهم على البساط، وأوقفهم في الشمس على البلاط، يسألونك عن حركات المريخ وهم لا يعرفون نواقض الوضوء، ويباحثونك في أبي زيد الهلالي ولا يفقهون سيرة

عمر، يحبون الغرائب وتدهشهم العجائب، وتسليهم الأماني، وتشغلهم الأراجيف، وتستهويهم الشائعات، أثقل على الجسم من الحمى، وأشد على القلب من الضيم، وأخوف في العين من الليل، إن رضوا عنك بالغداة غضبوا بالعشي، إن لنت معهم امتهنوك وأذلوك، وإن أخذتهم بالجد كرهوك ومقتوك، إن زاروا منّوا الزيارة، وإن زرتهم قالوا: بعض حقنا أداه، يقحمونك ويتركونك، ويفحمونك ولا يشكرونك.

التطـــــرف

التطرف هو الميل عن الجادة، والحيدة عن المنهج، والانحراف عن الصراط المستقيم، التطرف هو رفض الوسط وهجر القصد، فالتطرف في العقائد هو الذهاب مع الظن الذي لا يغني عن الحق شيئًا، وترك الحق المبين، وهو التعلق بالكهنوت والطقوس المقامة على الوهم والخيال والغلو في المشايخ وعبادة الأحبار والرهبان، وهو سلب حقوق الألوهية عن الأحد الصمد، وتعفير الأنف للطاغوت.

والتطرف في العبادة هو الشطط في أداءها إما غلوًا وإما جفاءً، فلا يتبع فيها المعصوم، ولا يذعن فيها للبرهان، والتطرف في الأحكام هو جعل المندوب واجبًا والمكروه محرمًا، والتعزير حدًا، وهو تضخيم الأشياء والذوات والحقائق، ومبناه على الخروج عن الاعتدال ومجافاة الميزان، وقد جعل الله لكل شيءٍ قدرًا، وأنزل الكتاب

والميزان، وهو سبحانه على صراط مستقيم، وقد قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، وكان ﷺ قاصدًا للوسط، حاكمًا بالعدل، قائمًا بالقسط، يقول: «**عليكم هديًا قاصدًا**» «وخير دينكم أيسره» والله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وهي الأمة الخيرة العادلة القائمة بالقسط، الشاهدة على الناس، الناطقة بالحق، الحاملة للأمانة، الهادية للإنسان، الدالة على الخير، الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر، المجتنبة للزيغ، والشطط، والتنطع، والتكلف، والتعمق، والابتداع، والتشنج.

إسلام بلا دروشة

الله جميل يحب الجمال، خلق حدائق ذات بهجة، وخلق النخل باسقات لها طلع نضيد، يحب المظهر الجميل، والمخبر الجميل، ولا يعترف بالدروشة، وتهميش الأناقة، والرسول ﷺ طيب الطلعة، جميل الصورة، زكي الرائحة، حي العواطف، وافر المشاعر، جاء يؤيد الفطرة، ويعلم الإنسان معنى الحياة، والله يكره البؤس والتباؤس، وظن بعض الناس أن النسك لبس الثياب الممزقة، وبعثرة شعر اللحية، وهجر الطيب، والتجافي عن نظافة الجسم، والتماوت في المشية، وتنكيس الرأس كما يفعل الرهبان، وهذا كله ما أنزل الله به من سلطان، كان عمر رضي الله عنه، وهو من أفضل النساك، إذا مشى

أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع.

لابد أن يقدم الإسلام في صورته الزاهية الجميلة، طهر للسريرة، حفظ للمزاج، صحة للجسم، قوة في العمل، سمو في الهمة، الإسلام نقاء للقلب من الحقد، والدغل، والشرك، والنفاق، وصفاء للمبدأ من الغي والانحراف، غسل ووضوء، وسواك وطيب، أكل للطيبات مع الشكر، ولباس للجميل مع التواضع، واستغلال الحياة بطريق الشرع، أما إطفاء إشراق النفس وقتل إرادتها، وإرغام الروح على المشقة، والعنت والتقزز من مباهج الحياة، فهو لغو، وغلو لا أصل له. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

الدكتـــــوراه

لقب الدكتوراه ما أنزل به من سلطان، وهو لقب دخيل على الأمة طارىء على ناحيتها، ولج علينا من كوة التغريب، ودلف إلينا من ثقب الاستخذاء للغالب، نلوكه صباح مساء، ونلويه بألسنتنا في المجامع والمحافل، نريد به تبجيل صاحبه والثناء عليه، وبسبب لقب الدكتور، تساوت الرؤوس:

إذا استـوت الأسـافـل والأعـالـي　　فقـد طـابـت منـادمـة المنـايـا

فأصبح العالم الجهبذ الحافظ الباقعة الدكتور يساوي تمامًا الدكتور المفلس البليد، كثيف الخاطر، بارد الشعور، فأصبح بينهم

لفظ الدكتور كلمة سواء، فإذا صار الأمر هكذا، ووصلنا إلى هذه النتيجة، فياموتُ زُرْ!!، ويا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي.

لفظ الدكتور يجمع بين المحدث الناسك الورع المهذب والشاعر الماجن المتهتك، ويجمع بين الفقيه المجتهد ورجل القانون، وبين العلامة الأصولي والمتخصص في علم المساحة.

ولتنم أعين الدكاترة بهذا اللقب فقد كان له في أول ظهوره سنا برق يكاد يذهب بالأبصار، وكان له جاذبية أما الآن فقد توفر توفر شعير الموصل، وغزر غزارة ملح الأهواز، فقد أخذ الدكتوراة أناس لا خلاق لهم، إن تكلم مج كلامه، وإن كتب ضجت منه صحفه، لا حفظ ولا فهم، ولا اسم ولا رسم.

لفظ الدكتوراه طار من يهود النمسا، فهو يهودي المضجع والولد للفراش، قدمت به مومسات الثقافات السافرة فاقسمه نصفين ليصبح دك وتوراة، ومعناه: عالم التوراة، فإذا كان كما ذكرت، والخبر مثلما نقلت. فأعيذك بكلمات الله التامات من لفظ يشاركك فيه شوحال نتن ياهو وهرتزل وأبا ايبن من مثقفي اليهود إخوان القردة والخنازير.

وأنصت معي لأخيك العربي يقول:

إذا وقـع الـذبـاب علـى طعـام رفعـت يــدي ونفســي تشتهيــه
وتجتنــب الأســود ورود مــاء إذا كــان الكــلاب ولغــن فيــه

لنا نحن أهل الإسلام ألقاب شرعية، وأسماء سلفية، وشارات سنية، ولا نريد عملة من الخارج، فإنه منهي عن تلقي الركبان، وعن

وورود الممرض على المصح.

جملة اللامعين في عالمنا الإسلامي المعاصر ليسو من حملة لقب الدكتوراة، كالشيخ عبدالعزيز بن باز وابن حميد والسعدي وابن عثيمين، وحملة الدكتوارة من المسلمين مئآت الألوف، لكن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

زر غبًا تزدد حبًا

الزيارة بريد المحبة إذاكانت على طريق المغبة، لأن الإكثار مؤذن الإملال، والترداد طريق إلى الإثقال، والجفاء وسيلة للقطيعة، وخير الأمور أوساطها، والله أنزل الميزان، وقام الكون على العدل، والعاقل من وزن أقواله وقاس أفعاله، وقدر أحواله، ففصل لكل حادث ثوبًا، وألبس كل رأس عمامة.

وللزيارة آداب وسنن حفلت بها كتب التراث لا أذكرها هنا لئن المكرر سقيم، ولكن أذكر ما عنت به الخواطر وثقفته التجارب.

فينبغي لمن اراد أن يزور أن يجعل في قصده القربة، وطلب الأجر من الله، وقصد ما عنده، وأن يكون المزور ممن يستحق هذه الزيارة، وفيها مصلحة دينية، أو دنيوية، فلا يزر من اشتهر بإهانة

الزائر، وإذلال الوافد بكبره وانتفاخه فإنه تعرض للبلاء، ولا تتمنوا لقاء العدو. وكذلك لا يزر من غير أقاربه أراذل الناس وسقطهم من أهل الفجور والتظاهر به إذا لم يكن لقصد دعوتهم، فإنه بزيارته لهم يزري بنفسه عند النبلاء، ويوهن حبل عرضه ويخدش وجه شرفه، وليختر للزيارة وقتها المناسب، فيجتنب الأوقات المنهي عن الوفود فيها وهي: ما قبل صلاة الفجر، وحين توضع الثياب من الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، وإذا علم الزائر في غير هذه الأوقات أن هذا الوقت وقت راحة للمزور اجتنب ذلك، مثل ما بعد صلاة العصر عند بعضهم، لأنه وقت نوم لمن يعمل سحابة نهاره، وليأت مستأذنًا حاملاً عذر المزور معه لو اعتذر عن الزيارة أوْ ردَّه من عند بيته، وليطرق بابه أو جرسه بهدوء ثلاثًا بينها فترات قصيرة. ولا يزد على ذلك، ولا يقرع الباب قرع الشرط، ولا يتابع ضرب الجرس فعل من به خبل، وليكن وجهه لغير باب صاحب البيت، فإنه إذا فتح الباب وهو على تلك الحالة كشف بيت المزور، وإنما الإذن من أجل البصر.

وعليه بخفة الظل عند الزيارة فلا يطيلها الزائر حتى يمل المزور، بل تكون بقدر، والحر ميزان نفسه.

وكذلك لا يكثر الترداد في الزيارة، بل يجعل بينها أمدًا وزمنًا، ليشتاق إليه فإن من أكثر الترداد أقصاه الملل، والعامة يقولون: خفف درجك، يحلو هرجك.

صيدليــة خاصــة

إذا شكوت من قسوة قلبك، وإعراضه وغلظته ولهوه فعليك بترياق مجرب، ومرهم معروف، ودواء شهد بنفعه الرسل عليهم السلام، ونصح به الصالحون، وحمده المجربون، إنه الدعاء، فلا مثل الدعاء أبدًا، فاستمر عليه، وأكثر منه، وادع بصلاح قلبك وعملك خاصة في السجود، وأدبار الصلوات، وساعة الجمعة بإخلاص، وحضور، فسوف تجد في قلبك من الرقة والخشية والإنابة خاصة إذا أدمنت الدعاء، وأكثرت في المسألة، وألححت في الطلب، فلا صلاح إلا من عنده سبحانه، ولا نفع إلا من هناك، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

أبو حنيفة

الملة حنيفية، والفقه حنفي، والحلم احنفي، ثبتت قدمه في النعيم لأنه النعمان بن ثابت.

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره ... كما المسك ما كررته يتضوع

أثبت بالبرهان أن الموالي يفقهون عن الوالي، أخبر العرب أن

العجم يفهمون اللسان، ونقل للعجم أن العرب أهل إحسان، وآخرين منهم لما يلحقوا به.

تحرر من الرق بجودة عقله، فقيد لرفضه القضاء وأهله، كان أبوه أجيرًا، فشرب هو من عين العلم ففجرها تفجيرًا.

بائع بز لا يؤمن بابتزاز المال من غير حله، الناس عيال في الفقه عليه، والفقهاء إذا أعضلوا عادوا إليه.

أبحر في محيط الشريعة فما عاد إلا بدرر، أدلى عليه التوفيق دلوه ثم نادى يا بشرى هذا غلام، يحدث بالرأي يوم لا حديث، ويفتي بالحديث يوم الرأي، أصاب كثيرًا، فنسب أصحابه كل صواب إليه، وأخطأ قليلاً فألحق أعداؤه كل خطأ عليه.

وهو رجل الصواب، وليس بمعصوم، وقد يخطىء وليس بمذموم.

اتباعه يدعونه بالإمام الأعظم، والفقيه الملهم، والعجم ينادونه مولانا شيخ أكبر عالم فقيهان، وخصومه يصفونه بضحالة الدليل وفقر البرهان.

إن أفتى قال أصاحبه: لا مساس، حضره القياسُ، وصاح شانئوه، ما لهذا من أساس.

وهو ـ رحمه الله ـ أقل كثيرًا من وصف المبالغين.

وأكثر قليلاً من قول المعارضين.

قلنا لمحبيه شيخكم إمام من الأئمة، فقالوا: لا يكفي هذا بل هو سراجُ الأمة.

شابت ذوائبه فشب عقله، وذبلت نفسه فاتقد ذهنه، إن فقد دليله انقذته الحيلة، إن غاب عنه البرهان، أخذ من الرأي الرهان، الرجل عظيم، والحق أعظم منه، تبطن الفقه فظهر على لسانه الاستنباط، وتوشح الفقه فاهتز منه النياط.

أحبه الهنود، وعجب منه الأفغان، وارتاح لرأيه الأتراك، وأنس به التركمان، ورضي مذهبه الأكراد، وشكره العرب، إن لم تكن هذه هي العبقرية فلا ندري ما هي.

أبوحنيفة: عند الأحناف آية محكمة، عند المحدثين لا بأس به، عند أهل المذاهب لابد من التثبت في أمره، لكن بائع البز يشرح كلامه في الحرمين، ويدرس رأيه في الأزهر، ويذكر قوله في الزيتونة، ويدعى له في الأندلس.

أخذنا من سيرته أن السادة بلا فهم بهم، وأن الموالي بالعلم في العوالي.

إذا فتشوا في كتب الأثر فتح عليه دماغه فأخرج الحجة بيضاء من غير سوء آية أخرى. روى أحاديث فأشاد به الطحاوي والزيلعي، وتكلم في الرأي فأعجب به الزمخشري وعبدالجبار، وغاص في الفقه فهب إليه محمد بن الحسن وأبويوسف.

ولد في الكوفة، وتلاميذه قضاة بغداد، ومخطوطاته في القاهرة، ورسائله في قرطبة.

نقده الخطيب فعاد بالتأنيب، عجب من حجته مالك، وأشاد بفهمه الشافعي، فاستشهدوا شهيدين من رجالكم.

إذا اشتهر الرجل وذاع فضله أصبح كالبحر يغرق سابحه، ويبتلع من ولجه، ويحمل راكبه، وكذلك هو **أبوحنيفة**.

يومــك يومــك

إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، اليوم فحسب ستعيش، فلا أمس الذي ذهب بخيره وشره، ولا الغد الذي لم يأت إلى الآن..

اليوم الذي أظلتك شمسه، وأدركك نهاره هو يومك فحسب، عمرك يوم واحد، فاجعل في خلدك العيش لهذا اليوم، وكأنك ولدت فيه، وتموت فيه، حينها لا تتعثر حياتك بين هاجس الماضي وهمه وغمه، وبين توقع المستقبل وشبحه المخيف وزحفه المرعب، لليوم فقط اصرف تركيزك واهتمامك وإبداعك وكدك وجدك، فلهذا اليوم لابد أن تقدم صلاةً خاشعةً وتــلاوةً بتدبــر واطلاعًا بتأمــل، وذكرًا بحضور، واتزانًا في الأمور، وحسنًا في خلق، ورضًا بالمقسوم، واهتمامًا بالمظهر، واعتناءً بالجسم، ونفعًا للآخرين.

لليوم هذا الذي أنت فيه فتقسم ساعاته وتجعل من دقائقه

سنوات، ومن ثوانيه شهور، تزرع فيه الخير، تسدي فيه الجميل تستغفر فيه من الذنب، تذكر فيه الرب، تتهيأُ للرحيل، تعيش هذا اليوم فرحًا وسرورًا، وأمنًا وسكينة، ترضى فيه برزقك، بزوجتك، بأطفالك بوظيفتك، ببيتك، بعلمك، بمستواك ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤]، تعيش هذا اليوم بلا حزن، ولا انزعاج، ولا سخط، ولا حقد، ولا حسد.

إن عليك أن تكتب على لوح قلبك عبارة واحدة تجعلها أيضًا على مكتبك تقول العبارة: يومك يومك. إذا أكلت خبزًا حارًا شهيًا هذا اليوم فهل يضرك خبز الأمس الجاف الرديء، أوخبز غد الغائب المنتظر.

إذا شربت ماءً عذبًا زلالاً هذا اليوم، فلماذا تحزن من ماء أمس الملح الأجاج، أو ماء غد الآسن الحار.

إنك لو صدقت مع نفسك بإرادة فولاذية صارمة عارمة لأخضعتها لنظرية: لن أعيش إلاَّ هذا اليوم. حينها تستغل كل لحظة في هذا اليوم في بناء كيانك وتنمية مواهبك، وتزكية عملك، فتقول: لليوم فقط أهذب ألفاظي، فلا أنطق هجرًا أو فحشًا، أوسبًا، أو غيبة. لليوم فقط سوف أرتب بيتي ومكتبتي، فلا ارتباك ولا بعثرة، وإنما نظام ورتابة. لليوم فقط سوف أعيش فأعتني بنظافة جسمي، وتحسين مظهري، والاهتمام بهندامي، والاتزان في مشيتي وكلامي وحركاتي.

لليوم فقط سأعيش فأجتهد في طاعة ربي، وتأدية صلاتي على

أكمل وجه، والتزود بالنوافل، وتعاهد مصحفي، والنظر في كتبي، وحفظ فائدة، ومطالعة كتاب نافع.

لليوم فقط سأعيش فأغرس في قلبي الفضيلة، واجتث منه شجرة الشر، بغصونها الشائكة من كبر، وعجب، ورياء، وحسد، وحقد، وغل، وسوء ظن.

لليوم فقط سوف أعيش فأنفع الآخرين، وأسدي الجميل إلى الغير، أعودُ مريضًا، أشيِّع جنازة، أدل حيرانًا، أُطعم جائعًا، أفرج عن مكروب، أقف مع مظلوم، أشفع لضعيف، أواسي منكوبًا، أكرم عالمًا، أرحم صغيرًا، أجلّ كبيرًا.

«لليوم فقط سأعيش» فيا ماضٍ ذهب وانتهى أغرب كَشَمْسِك، فلن أبكي عليك، ولن تراني أقف لأتذكرك لحظة، لأنك تركتنا، وهجرتنا، وارتحلت عنا، ولن تعود إلينا أبد الآبدين.

ويا مستقبل أنت في عالم الغيب فلن أتعامل مع الأحلام، ولن أبيع نفسي مع الأوهام، ولن أتعجل ميلاداً مفقوداً، لأن غدًا لا شيء لأنه لم يخلق، ولأنه لم يكن مذكورًا.

يومك يومك أيها الإنسان، أروع كلمة في قاموس السعادة لمن أراد الحياة في أبهى صورها وأجمل حللها.

* * * *

التي نقضت غزلها

الرجوع إلى الخلف والنكوص على العقبين وصف يترفع عنه أولوا الهمم السامقة، لأن هذا الوصف ينبىء عن انحراف المزاج ومرض الضمير، فهذا يواصل في طريق الهداية ويحث الخطا إلى منازل الولاية، ثم يبدو له أنه مخطيء فيعود القهقري ويخبط خبط عشواء وهو دليل على عدم اقتناعه من صحة سيره وفي سلامة منهجه.

يا أيها الأباة الصادقون لا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا، تصلحون ثم تفسدون، تحسنون ثم تسيئون، احذروا أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون.

إن الإقدام إلى فعل الجميل وحيازة وسام الفضل لا يحتاج إلى تريث ولا إلى مشاورة وتسويف.

هذا رجل أحب النسك وتلذذ بالعبادة ثم ترك وأعرض، وهذا طالب حفظ وفهم وبرع ثم خمد وفتر نعوذ بالله من الحور بعد الكور، والنكران بعد المعرفة، إن إقدام الصادقين لا يتوقف فهو دائم صاعد مستمر إلى أن يصلواْ إلى ما أمَّلوا، هناك يرتاحون راحة الفاتح الذي حاز وسام النصر والمجاهد إذا حصل على الغنيمة ولا يصلح العيش إلا لمن كان يومه أحسن من أمسه، وغده أحسن من يومه توقدًا وعطاءً وصقلاً وتجربةً ومضاءً: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

اترك المستقبل حتى يأتي

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، لا تستبق الأحداث، أتريد إجهاض الحمل قبل تمامه، وقطف الثمرة قبل النضج، إن غدًا مفقود لا حقيقة له، ليس له وجود ولا طعم، ولا لون، فلماذا نشغل أنفسنا به، ونتوجس من مصائبه ونهتم لحوادثه، ونتوقع كوارثه، ولا ندري هل يحال بيننا وبينه، أو نلقاه، فإذا هو سرور وحبور، المهم أنه في عالم الغيب لم يصل إلى الأرض بعد، إن علينا أن لا نعبر جسرًا حتى نأتيه، ومن يدري؟ لعلنا نقف قبل وصول الجسر، أو لعلَّ الجسر ينهار قبل وصولنا، وربما وصلنا الجسر ومررنا عليه بسلام.

إن إعطاء الذهن مساحة أوسع للتفكير في المستقبل وفتح كتاب الغيب ثم الاكتواء بالمزعجات المتوقعة، ممقوتٌ شرعًا، لأنه طول أمل، ومذموم عقلاً، لأنه مصارعة للظل. إن كثيرًا من هذا العالم يتوقع في مستقبله الجوع والعري، والمرض والفقر والمصائب، وهذا كله من مقررات مدارس الشيطان ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨].

كثيرٌ هم الذين يبكون، لأنهم سوف يجوعون غدًا، وسوف يمرضون بعد سنة، وسوف ينتهي العالم بعد مائة عام. إن الذي عمره في يد غيره لا ينبغي له أن يراهن على العدم، والذي لا يدري متى يموت لا يجوز له الاشتغال بشيء مفقود لا حقيقة له.

اترك غدًا حتى يأتيك، لا تسأل عن أخباره، لا تنتظر زحوفه، لأنك مشغول باليوم.

وإن تعجب فعجبٌ هؤلاء يقترضون الهم نقدًا ليقضوه نسيئة في يوم لم تشرق شمسه ولم ير النور، فحذار من طول الأمل.

الإحسان إلى الغير انشراح للصدر

الجميل كاسمه، والمعروف كرسمه، والخير كطعمه. أول المستفيدين من إسعاد الناس هم المتفضلون بهذا الإسعاد، يجنون ثمرته عاجلاً في نفوسهم، وأخلاقهم، وضمائرهم، فيجدون الانشراح، والانبساط، والهدوء، والسكينة.

فإذا طاف بك طائف من همٍّ أو ألمَّ بك غم فامنح غيرك معروفًا واسدِ لهم جميلاً تجد الفرح والراحة. اعط محرومًا، انصر مظلومًا، أنقذ مكروبًا، أطعم جائعًا، عُدْ مريضًا، أعن منكوبًا، تجد السعادة تغمرك من بين يديك ومن خلفك.

إن فعل الخير كالمسك ينفع حامله وبائعه ومشتريه، وعوائد الخير النفسية عقاقير مباركة تصرف في صيدلية الذين عمرت قلوبهم بالبر والإحسان.

إن توزيع البسمات المشرقة على فقراء الأخلاق صدقة جارية في عالم القيم «**ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» وإن عبوس الوجه إعلان

حرب ضروس على الآخرين لا يعلم قيامها إلا علام الغيوب.

شربة ماء من كف بغي لكلب عقور أثمرت دخول جنة عرضها السموات والأرض لأن صاحب الثواب غفور شكور جميل، يحب الجميل، غني حميد.

يا من تهددهم كوابيس الشقاء والفزع والخوف هلموا إلى بستان المعروف وتشاغلوا بالغير، عطاءً وضيافة ومواساة وإعانة وخدمة وستجدون السعادة طعمًا ولونًا وذوقًا ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢١].

سعيد بن المسيب

في سعيد ثلاث خصال، كل خصلة خير من الدنيا وما فيها.

أولها: المحافظة على تكبيرة الإحرام مع الإمام فلم تفته ستين سنة.

ثانيها: أكل الحلال، فما أكل لقمة إلا علم من أين مصدرها.

ثالثها: صرامته في الحق ولو غضب من غضب ولام من لام.

سعيد بن المسيب: الصمت عن كل لغو، والكف عن كل لهو، الزهد في كل فان.

تفقه في الدِّين، وعرف رب العالمين، فأنفق ساعاته في رضى مولاه وفي طاعة خالقه، لما عرف ربه طرح الناس، وجانب الخلق.

عرضوا عليه المال فأبى، هددوه بالسيف فرفض، ساوموه بكل حيلة فقاوم.

أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، حتى أصبح الموت من روحه قاب قوسين أو أدنى، قام الليل حتى احدودب ظهره ورق جسمه.

من الفجر إلى الظهر جلسة واحدة مستقبلاً القبلة في المسجد، يتلو، ويسبح، ويتفكر، ويعلم، ويفتي.

أُوذي في سبيل الله فما نكص، وهُدِّدَ في الحقِّ فما هاب، ورُغِّب فما رَغِب.

قال واصفوه: كانت نفسه عنده كالذباب، مراد الله أعظم من مراده، وزاد الآخرة كل زاده، وهمه نفع عباده.

ضعف بصره فما ترك صلاة الجماعة حتى في شدة الظلمة، لأنه عرف حديث: «**بشِّر المشَّائين في الظُّلَمِ بالنورِ التام يوم القيامة**».

تاجر في الزيت ليصون وجهه عن السؤال، وعرضه عن النوال، ولا يخضع للرجال.

سعيد بن المسيب: التراث المحمدي، يوم سقى الفطرة الطاهرة في كيان عبد صالح.

سعيد بن المسيب: الرقابة على المنهج، والمحافظة على الملة، والترقي بالعمل الصالح.

العلم عنده نص صحيح، وآثارٌ من سلــف، وفهــم للدليــل،

والزهد عنده طرح التبذل والاستعلاء على الاستخداء.

قرن العلم بالعمل، والخوف بالرجاء، والرغبة بالرهبة، والتواضع بعزة النفس.

لم يجد إليه الشيطان سبيلاً لأنه تحصن منه بتوحيد خالص، وذكر دائم، وطهارة مستمرة، وعمل دائب في الخير.

ذهبت عينه من كثرة البكاء، فأرادوا أن يخرجوه إلى وادي العقيق ليرىٰ الخضرة قال: كلا إذا خرجت فاتتني صلاة الجماعة.

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معاً

كان يعبر الرؤيا لأنه صدق في اليقظة، أفتى الناس في شؤون نهارهم، وأخبرهم بما يرون في منامهم.

سعيد بن المسيب: ضعيف البنية، ومع ذلك قاوم تلك السياط، وصبر على ذلك الحبس، ونازل تلك المنازلة، عرف حقيقة الدنيا، فحزن لهذا المقام، وقلق من هذه الأيام.

ينام متعباً فإذا أمعنت نفسه في نوم عميق، صاح بها وسط الليل، قومي يا مأوىٰ كل شر، فيباشر الماء البارد، ويصف قدميه، ويترك التعبير لعينيه، لتتحدَّث عن ذكريات القلب وشجون النفس، وخلجات الضمير.

أحلى جلسة عند سعيد بن المسيب جلسة الثلث الأخير، يوم ينادي الحق: «**هل من سائل فأعطيه، هل من داع فأجيبه، هل من**

مستغفر فأغفر له»، حينها تجد كفي سعيد بن المسيب ترتعشان، وعينيه تذرفان، وهو دائم الخفقان.

وداع دعا إذْ نحن بالخيف من منى فهيج أشواق الفؤاد وما ندري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلي طائر كان في صدري

سعيد بن المسيب: قدوة، والقدوة تملؤ المكان حضوراً، والزمان حبوراً، والنفوس سروراً، وقر الإيمان في قلبه فتحول إلى أعمال نافعة، وسجايا طيبة، ومعانٍ جميلة، وسعيد بن المسيب حُجة، والحجة يقول بالبرهان، ويفتي بالدليل، ويعرض عن القال والقيل، وسعيد بن المسيب مجتهد مطلق، وبحر متدفق.

افتح صفحات الفقه، تجد اسمه يزين تلك الصفحات، انثر مؤلفات الحديث تجد ابن المسيب في السند بعد أبي هريرة مباشرة، فهو صهره وصاحبه وتلميذه.

طالع التفسير تجد سعيد بن المسيب يصاول ويجاول، يحسن حتى لا يترك للإحسان موضعاً.

في سعيد بن المسيب: آيات للسائلين.

إن سيرته ملحمة للمثابرة، وعلو للهمة، وقتل للفراغِ بالعملِ، واللهو بالجد، والفتور بالعزم.

ما أحوجنا إلى سيرة سعيد، وأخلاق سعيد، وسجايا سعيد.

لنأخذ الكتاب بقوة، ونحمل الرسالة بأمانة، ونؤدي الواجب بصدق: صدق مع الله يطهر الضمير من أدران الانحراف، وإخلاص له

يغســـل القلــــب من أوضار الرياء، ومحبة له تزكي النفس بأطيب الأعمال.

في سيرة سعيد بن المسيب انتصار القلب على البدن، والآخرة على الدنيا، والفضيلة على الرذيلة ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

في سيرة سعيد بن المسيب أن العبد بهمته، والإنسان بعزيمته، فما سبق من سبق إلا بالعزيمة والمثابرة، وما فاز من فاز إلا بالهمة والمصابرة.

فهنيئاً للناجحين في مضمار الحياة، وقرة عين للفائزين في حلبة الدنيا.

* * * *

هل تحبس الشمس

أحد السلف أراد أحدهم أن يلهو معه فقال: احبس الشمس وكلمني. والمعنى أن الشمس تجري لمستقرٍ لها، لا تقف، فما لنا نقف، ما لنا لا نسير كما تسير الشمس. خفَّ علينا الحديث الرخيص وثقل العلم، لذَّ لنا الوقوف على الأقدام لمشاهدة حفلة أو اجتماع، وصعبت علينا صلاة القيام، لأن في القلوب مرضًا وفي الأرواح خورًا.

هذه الكلمة **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»** لا تأخذ من وقتك دقيقة واحدة، لا تزيد إن لم تنقص، لكنك قليلاً ما تقولها، لأنك ما عرفت نفعها، وما علمت ثوابها علم اليقين. نحن مبدعون في هذر القول ورخيص الكلام، لكننا مخفقون إلا مَنْ رحم ربك في الذكر والتلاوة والدعاء.

اجن العسل ولا تكسر الخلية

الرفق ما كان في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه، اللين في الخطاب، البسمة الرائقة على المحيا، الكلمة الطيبة عند اللقاء، هذه حلل منسوجة يرتديها السعداء، وهي صفات المؤمن كالنحلة تأكل طيبًا وتصنع طيبًا، إذا وقعت على زهرة لا تكسرها لأن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، إن من الناس من تشرئِب

لقدومهم الأعناق، وتشخص إلى طلعاتهم الأبصار، وتحييهم الأفئدة وتشيعهم الأرواح، لأنهم محبوبون في كلامهم في أخذهم وعطاءهم، في بيعهم وشرائهم، في لقاءهم ووداعهم.

إن اكتساب الأصدقاء فن مدروس يجيده النبلاء الأبرار، فهم محفوفون دائمًا وأبدًا بهالة من الناس إن حضروا فالبشر والأنس، وإن غابوا فالسؤال والدعاء.

إن هؤلاء السعداء لهم دستور أخلاق عنوانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤] فهم يمتصون الأحقاد بعاطفتهم الجياشة، وحلمهم الدافىء، وصفحهم البرىء، يتناسون الإساءة ويحفظون الإحسان، تمر بهم الكلمات النابية فلا تلج آذانهم بل تذهب بعيدًا هناك إلى غير رجعة. هم في راحة والناس منهم في أمن والمسلمون منهم في سلام **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أَمِنَه الناس على دماءهم وأموالهم» «إن الله أمرني أن أصل من قطعني وأن أعفو عمَّن ظلمني وأن أعطي من حرمني»** ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] بشر هؤلاء بثواب عاجل من الطمأنينة والسكينة والهدوء.

من سالم الناس يسلم من عوائلهم ونـام وهـو قـريـر العيـن جـذلان

وبشرهم بثواب أخروي كبير في جوار رب غفور في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

اقبل الحياة كما هي

طبعت على كدر وأنت تريدها صفـوًا مـن الأقـذاء والأكـدارِ

هذا حال الدنيا منغصة اللذات، كثيرة التبعات، جاهمة المحيا، كثيرة التلون، مزجت بالكدر، وخلطت بالنكد، وأنت منها في كبد.

ولن تجد ولدًا أو زوجة، أو صديقًا، أو نبيلاً، ولا مسكنًا ولا وظيفة إلا وفيه ما يكدر وعنده ما يسوء أحيانًا، فاطفيء حر شره ببرد خيره، لتنجو رأسًا برأس والجروح قصاص.

أراد الله لهذه الدنيا أن تكون جامعة للضدين والنوعين والفريقين والرأيين، خير وشر، صلاح وفساد، سرور وحزن، ثم يصفو الخير كله والصلاح والسرور في الجنة ويجمع الشر كله والفساد والحزن في النار. وفي الحديث: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم**»، فعش واقعك ولا تسرح مع الخيال وتحلّق في عالم المثاليات، اقبل دنياك كما هي، وطوع نفسك لمعايشتها ومواطنتها، فسوف لا يصفو لك فيها صاحب ولا يكمل لك فيها أمر، لأن الصفو والكمال والتمام ليس من شأنها ولا من صفاتها.

لن تكمل لك زوجة وفي الحديث: « **لا يفرك مؤمن مؤمنة إن**

كره منها خلقاً رضي منها آخر».

فينبغي أن نسدد ونقارب، ونعفو ونصفح، ونأخذ ما تيسر، ونذر ما تعسر، ونغمض الطرف أحيانًا، ونسدد الخطى، ونتغافل عن أمور.

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسمِ

حسبنا الله ونعم الوكيل

تفويض الأمر إلى الله، والتوكل عليه، والثقة بوعده، والرضا بصنيعه، وحسن الظن به، وانتظار الفرج منه من أعظم ثمرات الإيمان، ومن أَجَلِّ صفات المؤمنين، وحينما يطمئن العبد إلى حسن العاقبة، ويعتمد على ربه في كل شأنه يجد الرعاية والولاية والكفاية والتأييد والنصرة.

وإذا الرعاية لاحظتك عيونها   نم فالحوادث كلهن أمان

لما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، ورسولنا ﷺ وأصحابه لما هددوا بجيوش الكفار وكتائب الوثنية قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

إن الإنسان وحده لا يستطيع أن يصارع الأحداث، ولا يقاوم

الملمات، ولا ينازل الخطوب، لأنه خلق ضعيفًا عاجزًا، ولكنه حينما يتوكل على ربه ويثق بمولاه، ويفوض الأمر إليه، وإلا فما حيلة هذا العبد الفقير الحقير إذا احتوشته المصائب وأحاطت به النكبات ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة: ٢٣].

فيا من أراد أن ينصح نفسه توكَّل على القوي الغني ذي القوة المتين، لينقذك من الويلات، ويخرجك من الكربات، واجعل شعارك ودثارك حسبنا الله ونعم الوكيل، فإن قل مالك، وكثر دَيْنُك، وجفت مواردك وشحت مصادرك، فناد حسبنا الله ونعم الوكيل.

وإذا داهمك المرض، وألح عليك السقم، وتضاعف عليك البلاء، فقل حسبنا الله ونعم الوكيل.

وإذا خفت من عدو، أو رعبت من ظالم، أو فزعت من خطب فاهتف حسبنا الله ونعم الوكيل.

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان: ٣١].

العافيــــــة

عدت من المستشفى وقد رأيت بعيني المرض يصارع الناس، هذا شاب قوي البنية، مفتول العضلات بهي الطلعة، انكسر عموده الفقري، وأصيب بالشلل، وأصبح يستنشق الهواء بأنبوب، لا حي فيدعي، ولا ميت فينعى، يبكي على أيام العافية، وساعات السعادة

التي صرفت في غير طائل، يود أنه يمشي على رجليه بالدنيا وما فيها لو كانت له، وهذه فتاة بارعة الحسن، وافرة الجمال، في زهرة فتوتها نكل بها السرطان فأسقط شعرها، وأزال حواجبها، وأذاب وجنتيها، ترى الناس في عالم آخر، تود أن يعود لها يوم واحد من أيام العافية، وهذا طفل بريء وادع النظرات، هادىء الحركات، تلوثت كبده فأصبح يتلوى من الألم ويعصر بطنه الأسى.

هذا المستشفى عالم آخر من الأوجاع والآلام والمصائب والحوادث والكوارث، أنين وعويل، وبكاء ونواح.

ما أجمل العافية ما أغلاها، ما أثمنها عند من يقدرها حق قدرها، ما أقل شكرنا لخالقنا على العافية، ما أشد تقصيرنا، هل هو أمر سهل أن نمشي على أقدامنا في عافية، نستنشق الهواء، ونشرب الماء، ونأكل الخبز الدافىء، ونملؤ العين من النوم الهنيء، اسألوا الله العافية أيها الناس، اشكروا الله أيها الناس على العافية، اعبدوه اسجدوا له اذكروه كما ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، اللهم إنا نسألك العفو والعافية.

فصــــبرٌ جميـــلٌ

التحلي بالصبر من شيم الأفذاذ الذين يتلقون المكاره برحابة صدر وبقوة إرادة وبمناعة أبيّه. وإن لم أصبر أنا وأنت فماذا نصنع؟

هل عندك حل لنا غير الصبر؟ هل تعلم لنا زادًا غيره؟

كان أحد العظماء مسرحًا تركض فيه المصائب وميدانًا تتسابق فيه النكبات كلما خرج من كربة زارته كربة أخرى، وهو متترس بالصبر، متدرع بالثقة بالله، يقول عن حاله.

هكذا يفعل النبلاء، يُصارعون الملمّات ويطرحون النكبات أرضًا.

دخلوا على أبي بكر وهو مريض، قالوا: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيب قد رآني. قالوا: فماذا قال؟ قال: يقول: إني فعَّال لما أُريد.

ومرض أحد الصالحين فقيل له: ماذا يؤلمك؟

فقال:

تمــوت النفــوس بــأوصــابهــا ... ولــم يــدر عــوّادهــا مــا بهــا
ومــا أنصفــت مهجــة تشتكــي ... أذاهــا إلــى غيــر أحبــابهــا

واصبر وما صبرك إلا بالله، اصبر صبر واثق بالفرج، عالم بحسن المصير، طالب للأجر، راغب في تكفير السيئات، اصبر مهما ادلهمت الخطوب، وأظلمت أمامك الدروب، فإن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا.

قرأت سير عظماء مرّوا في هذه الدنيا وذهلت لعظيم صبرهم وقوة احتمالهم، كانت المصائب تقع على رؤوسهم كأنها قطرات ماء

باردة، وهم في ثبات الجبال، وفي رسوخ الحق، فما هو إلا وقت قصير فتشرق وجوههم على طلائع فجر الفرج، وفرحة الفتح، وعصر النصر. وأحدهم ما اكتفى بالصبر وحده، بل نازل الكوارث وتحدى المصائب وصاح في وجهها منشدًا:

إن كــان عنــدك يــا زمــان بقيــة　　ممــا يهــان بــه الكــرام فهــاتهــا

مع خالد بن الوليد

سل الإسلام عن سيفه، سله الله على المشركين.

خالد بن الوليد: سيف مسلول، ووجه مقبول، رمى الروم فطاش راميها، وافترس فارس وأدخل الذل مراميها، خالد واسع البطان، تزول بسيفه وساوس الشيطان.

خالد بن الوليد: الإقدام ساعة الفرار، الثبات في سكرات الممات، الشجاعة يوم يخاف الشجعان الاقتحام يوم يلتقي الجمعان.

خالد بن الوليد: الانتصار على زيف الوثن بمعول التوحيد، وهدم قلاع الباطل بفؤوس الحق، والإجهاز على فلول المرتدين بخيول الباسلين.

خالد بن الوليد: مهجة بيعت من الله عز وجل، طارت إلى كل ثغر، وسافرت إلى كل معركة ليقبضها خالقها، مهجة بيعت في مجلس البيعة الكبرى، بين رسول الله وسيف الله، ثم تفرقا والبيعان بالخيار ما

لم يتفرقا، فإذا تفرقا وجب البيع.

عرض نفسه في سوق المزاد، طلبًا لخير زاد، فلما غلى الثمن، تراجع المشتري وجبن.

خالد بن الوليد: إرادة إيمانية، همها إرغام أنوف الجبناء، وكسر خشوم الأعداء، طلب الموت فطالت حياته، تمنى الشهادة فأتته على فراشه، عرض روحه للمنايا، ففرت مِنَّةً منه إلى الزوايا.

أطـرد المـوت مقـدمًـا فيـولـي والمنـايـا اجتـاحهـا وهـي نعسـا

خالد بن الوليد: تصدق بجسمه على أطراف السيوف، وتبرع ببدنه على رؤوس الرماح، طعن ووخز وجرح، أشلاء ودماء، حبس نفسه وادرعه واعتده في سبيل الله.

خالد بن الوليد: لم تجب عليه الزكاة، لأنه أوقف لربه ماله، وسكب في مرضاته جماله، وأتعب لأجله حاله، ومزق في ذاته أسماله.

يقـولـون معـن لا زكـاة لمـالـه وكيف يزكي المال من هو باذله

خالد بن الوليد: إنكم تظلمون خالداً، لأنه هجر الفراش الوثير، إلى الغبار المثير، وجافى النوم الهنيء إلى السفر الوبيء، وترك الراحة الوارفة إلى المنية الخاطفة.

كشر له الموت أنيابه، فألبسه النصر ثيابه.

تسعـون معـركـة مـرت محجلـة من بعد عشر بنان الفتح يحصيها

وخـالـد فـي سبيـل الله مـوقـدهـا   وخـالـد فـي سبيـل الله مـذكيهـا

خالد بن الوليد: سيف الله، وسيف الله لا تثلم مضاربة، ولا تسلم معاطبة، سيف الله منصور، وخصمه مدحور، سيف الله يفلق الهامات، فكم من عنيد بسلته قد مات.

وقفت وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تمـر بـك الأبطـال كلمـى هـزيمـة   ووجهـك وضـاح وثغـرك بـاسـم

خالد بن الوليد: الاستبسال يوم الشح بالأرواح، وارخاص النفس يوم غلاء المبادىء، والتخلي عن الحياة إذا كان في ذلك حياة العز.

خالد بن الوليد: النهج أحمدي، والهتاف مكانك تحمدي، والشعار عند الداعي، ويحك لن تراعي، سُل خالد من غمد الدين، فوقع في رقاب المرتدين، واهتز في أيدي المتقين، فتساقطت به رؤوس المارقين.

فزع منه الأعراب والأعاجم، لأنه لا يقع إلا في الجماجم.

أحسن ساعات خالد، إذا تطايرت الرؤوس، وتناثرت النفوس، ودارت للمنايا كؤوس.

وننكــر يــوم الــروع ألــوان خيلنــا   من الضرب حتى نحسب الجون أشقرا

أروع وقفات خالد يوم يطاعن لبات الخيول، وحين يجول بين الكتائب ويصول، ولحظة ينحر الخصوم فتنخلع قلوبها، ويذبح بدن

البغي، فإذا وجبت جنوبها، إذا احمرت الحدق، وبدا صبح الحرب وانفلق، وجدت خالداً يقدم صدره للكماه، ويبرز ظهره للرماة.

خالد بن الوليد: جرح في كل بقعة من جسمه، فلو أنكرته عرفته بوسمه.

تركت فيه السيوف آيات بينات، وأبقت به الرماح علامات، ووقعت السهام في نحره فما مات.

موت خالد على الفراش تصديق للقضاء، وفرح للجبناء، وهلاكه عيد للباطل، وعُرسٌ للكفر، ومهرجانٌ للمهزومين.

لقد مات بين الضرب والطعن ميتةً　　تقوم مقام النصر إن فاته النصرُ

وما مات حتى مات مضرب سيفه　　من الضرب واعتلت عليه القنا السمرُ

خالد بن الوليد: لا يشق له غبار، وقل مثله في الديار، لأنه لا يرى الفرار.

يدوس الأفاعي برجليه، ويلوي الأعناق بيديه، ويتطاير شرار الشجاعة من عينيه.

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر　　وحيدًا وما قولي كذا ومعي الصبر

وأشجع من كل يوم سلامتي　　وما ثبتت إلا في نفسها أمرُ

تمرست بالآفات حتى تركتها　　تقول أمات الموت أم ذعر الذعرُ؟

لا تحمل الكرة الأرضية على رأسك

نفر من الناس تدور في نفوسهم حرب عالمية، وهم على فرش النوم، فإذا وضعت الحرب أوزارها غنموا قرحة المعدة، وضغط الدم والسكَّري. يحترقون مع الأحداث، يغضبون من غلاء الأسعار، يثورون لتأخر الأمطار، يَضجُّون لانخفاض سعر العملة، فهم في انزعاج دائم، وقلق واصب ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

ونصيحتي لك أن لا تحمل الكرة الأرضية على رأسك، دع الأحداث على الأرض ولا تضعها في أمعاءك. إن البعض عنده قلب كالأسفنجة يتشرب الشائعات والأراجيف ينزعج للتوافه، يهتز للواردات، يضطرب لكل شيء، وهذا القلب كفيل أن يحطم صاحبه وأن يهدم كيان حامله.

أهل المبدأ الحق تزيدهم العبر والعظات إيمانًا إلى إيمانهم، وأهل الخور تزيدهم الزلازل خوفًا إلى خوفهم، وليس أنفع أمام الزوابع والدواهي من قلبٍ شجاع، فإن المقدام الباسل واسع البطان، ثابت الجأش، راسخ اليقين، بارد الأعصاب، منشرح الصدر، أما الجبان فهو يذبح نفسه كل يوم مرات بسيف التوقعات والأراجيف والأوهام والأحلام، فإن كنت تريد الحياة المستقرة فواجه الأمور بشجاعة وجلد ولا يستخفنك الذين لا يوقنون، ولا تك في ضيق مما

يمكرون، كن أصلب من الأحداث، وأعتىٰ من رياح الأزمات، وأقوىٰ من الأعاصير، وارحمتاه لأصحاب القلوب الضعيفة كم تهزهم الأيام هزًا ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] وأما الأُباة فهم من الله في مدد، وعلى الوعد في ثقة ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨].

لا تحطمك التوافه

كم من مهموم سبب همه أمرٌ حقير تافه لا يذكر.

وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

انظر إلى المنافقين، ما أسقط هممهم وما أبرد عزائمهم. هذه أقوالهم: لا تنفروا في الحر، ائذن لي ولا تفتني، بيوتنا عورة، نخشى أن تصيبنا دائرة، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا. يا لخيبة هذه المعاطس يا لتعاسة هذه النفوس.

هممهم البطون والصحون والدور والقصور، لم يرفعوا أبصارهم إلى سماء المُثُل، لم ينظروا أبدًا إلى نجوم الفضائل. همُّ أحدهم ومبلغ علمه: دابته وثوبه ونعله ومأدبته، وانظر لقطاع هائل من الناس، تراهم صباح مساء سبب همومهم خلاف مع الزوجة أو الابن أو القريب أو سماع كلمة نابية أو موقف تافه. هذه مصائب هؤلاء البشر، ليس عندهم من المقاصد العليا ما يشغلهم، ليس عندهم من الاهتمامات الجليلة ما يملأ وقتهم، وقد قالوا: إذا خرج الماء من الإناء ملأه

الهواء، إذًا ففكر في الأمر الذي تهتم له وتغتم، هل يستحق هذا الجهد وهذا العناء، لأنك أعطيته من عقلك ولحمك ودمك وراحتك ووقتك، وهذا غبن في الصفقة وخسارة هائلة ثمنها بخس، وعلماء النفس يقولون: أجعل لكل شيء حدًا معقولاً، وأصدق من هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٣] فاعط القضية حجمها ووزنها وقدرها وإياك والظلم والغلو.

هؤلاء الصحابة الأبرار همهم تحت الشجرة الوفاء بالبيعة، فنالوا رضوان الله ورجل معهم أَهَمَّهُ جَمَلُة حتى فاته البيع فكان جزاءه الحرمان والمقت.

فاطَّرِح التوافهَ والاشتغالَ بها تجد أن أكثر همومك ذهبت عنك وعدت فرحًا مسرورًا.

من يعرف المقصود يحقر ما بذل

النفس أمارة بالسوء تحب الشبع، والنوم، والخلود إلى الأرض، وتتبع الرخص والرضا بالدّون، لكن الألمعي الأريب لا يطاوعها، ولا يصغي لكلامها بل يزجرها ويحدوها ويخالفها، إن دعته إلى ترك الواجب ذكَّرَهَا فرحةَ النجاح، وسرورَ التفوق، وحسنَ الذكر، وجميلَ العاقبة.

وما أجمل تبويب البخاري على قصة موسى مع الخضر بقوله:

«باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر» قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم، لأن ما يغتبط به تحتمل المشقة فيه، ولأن موسى عليه السلام لم يمنعه بلوغه من السيادة المحل الأعلى من طلب العلم وركوب البحر لأجله.

وفي الحديث: ركوب البحر في طلب العلم، بل في طلب الاستكثار منه، ومشروعية حمل الزاد في السفر، ولزوم التواضع في كل حال، وخضوعُ الكبيرِ لمن يَتَعَلَّمُ منه، ولهذا حرص موسىٰ على الالتقاء بالخضر عليهما السلام، وطلب التعلم منه، تعليمًا لقومه أن يتأدبوا بأدبه، وتنبيهًا لمن زكَّى نفسه أن يسلك مسلك التواضع، وفيه فضل الازدياد من العلم ولو مع المشقة والنصب بالسفر» انتهى.

قلت: هذه همة كليم الله موسى عليه السلام، اصطفاه الله على الناس برسالاته وكلامه وكتب له التوراة بيده ثم ذهب يلتمس العلم مضانه، ويطلب الفائدة من أهله، والواحد منا قاصر في إدراكه، كالٌّ في مصلحة نفسه، عالة على غيره، يظن أنه بجمل من العلم متفرقة قد وصل المنتهىٰ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال علي رضي الله عنه: «كفىٰ بالعلم شرفًا أن يدَّعيه من ليس من أهله».

وقال الخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث» بعد حديث موسى والخضر عليهما السلام: قال بعض أهل العلم: إن فيما

عاناه موسى من الدأب والسفر، وصبر عليه من التواضع والخضوع للخضر، بعد معاناه قصده، مع محل موسى من الله عز وجل وموضعه من كرامته وشرف نبوته، دلالة على ارتفاع قدر العلم، وعلو منزلة أهله، وحسن التواضع لمن يلتمس منه ويؤخذ عنه. ولو ارتفع عن التواضع لمخلوق أحدٌ، بارتفاع درجته وسمو منزلة، لسبق إلى ذلك موسى. فلما أظهر الجد والاجتهاد والانزعاج عن الوطن والحرص على الاستفادة منه، مع الاعتراف بالحاجة إلى أن يصل من العلم إلى ما هو غائب عنه: دلَّ على أنه ليس في الخلق من يعلو على هذه الحال ولا يكبر عنها.

وقال الحافظ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «مفتاح دار السعادة» وهو يعدد فضائل شرف العلم وأهله: «الوجه الرابع والثلاثون: أن الله سبحانه أخبرنا عن صفيِّه وكليمه، الذي كتب له التوراة بيده، وكلَّمه مِنَّةً منه إليه: أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه، ويزداد علمًا إلى علمه، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف: ٦٠] حرصًا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه.

فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه، وقال له: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦٦]. فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته، وأنه لا يتبعه إلا بإذنه، وقال: ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦٦]، فلم يجيء ممتحنًا ولا متعنتًا، وإنما جاء متعلمًا مستزيدًا علمًا إلى علمه، وكفى بهذا فضلاً وشرفًا للعلم،

فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل حتى لقي النصب في سفره، في تعلُّم ثلاث مسائل من رجل عالم، ولمَّا سَمِع به لم يقرَّ له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه، وفي قصتهما عبرٌ وآيات وحِكَم، وليس هذا موضع ذكرها.

يا ليتني كنت معهم

من السلف من سافر الليالي والأيام على قدمه في طلب الحديث، لا يكل ولا يمل، يلتحف السماء، ويفترش الغبراء، ويشرب من الغدران، ويتوسد كثيبًا من الرمال، ويتكيء على الحجارة، ضامر البطن، ظاميء الكبد، حتى قدَّم لأمة الإسلام تراثًا مباركًا يجد ثوابه يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ومنهم من كان يكتب على ضوء القمر، فإذا غاب عنه قام يصلي إلى الفجر، فإذا أصبح دار على مجالس العلم ينهل ويكتب ويسأل ولا ينام إلا ضرورة.

النووي كان يحفظ بعد الفجر ويعيد بعد المغرب، ويَدْرُس أول النهار اثني عشر درسًا، ويؤلف في أخر النهار، ويقوم الليل، ويصوم النهار، ومات وهو في الأربعين، فأبقى الله ذكره ورفع قدره، ونشر علمه في العالمين.

فماذا فعل كثير ممن بلغ السبعين والثمانين والتسعين. حياة

واحدة أولها كآخرها، مكررة ولا جديد فيها، حياة ثقيلة مملة ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦].

حتى من المعاصرين

أعرف أناسًا عاصرتهم وقليل ما هم. منهم من كان يختم القرآن في ثلاث، ويتهجد ويصوم، ويحمي نفسه من الغيبة، وله ورد من الذكر لا يخل به.

وأعرف من مهر في القراءة بصبر ودأب، وكرر [فتح الباري] و[المغني] و[ابن كثير] و[القرطبي] مرات كثيرة.

ومنهم من حفظ أحاديث الصحيحين، وبعضهم حفظ آلاف الأحاديث، وعشرات المنظومات، لكن هؤلاء الصنف كالشعرة البيضاء في الثور الأسود.

والكثير طلبة علم في الظاهر، وعوام في الباطن، زي المشيخة في الثياب والهيئة والجلوس والقيام والكلام، لكن لا يحفظون أكثر القرآن، ولا يتذكرون جملة من الحديث، وما أتقنوا مرجعًا من مراجع العلم، ثقل عليهم إعادة الدرس، ومراجعة القرآن، وحفظ الحديث، وخف عليهم القيل، والقال، والغيبة والنقد البنَّاء المزعوم، والزيارات على المرطبات، والسمر على رخيص الحديث. اللهم عفوك يا رب.

هنيئـًـا لهـــم

ما غبطت في حياتي إلا ثلاثة: عالم عامل يعلم الناس ويصبر على آذاهم، معه ما يكفيه، ما مدَّ يده إلى أحد. وعابد يلازم المسجد، كالحمامة لا يفتر من ذكر وتلاوة، ورجل ضعيف زاهد مسكين لا يؤبه له. يطيع ربه، سلم من الناس وسلمهم من أذاه.

نصيحتي لك لا ترضى بالدون. هل يقر قرارك ويرتاح بالك إذا رأيت أقرانك وأصحابك الواحد منهم كالكوكب الدري في جنات النعيم، وأنت إما محروم أو في ربضها. أين الهمم؟ أين العزائم؟ أين الصولات والجولات؟ تسبيحة في صحيفة خير لك من مزرعة في الدنيا فيها نهر مطرد وقصر مشيد، آية تتلوها خير لك من دار واسعة رحبة طيبة الظل. قولك لا إله إلا الله أصلح لك من منصب تلمحك به العيون، وتشير إليك بسببه الأصابع. فهل عقلت؟!..

أولئـــك الرجـــال

قال البخاري: ما اغتبتُ مسلمًا منذ احتلمت.

وقال الشافعي: ما حلفت بالله صادقًا ولا كاذبًا. وقال: لو أعلم أن الماء يفسد عليَّ مروءتي ما شربته. وقالوا لمحمد بن واسع: ألا

تتكيء. قال: إنما يتكيء الآمن، وأنا لازلت خائفًا، وقرأ على عبدالله بن وهب: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]. فسقط مغشيًا عليه.

وحج مسروق فما نام إلا ساجدًا.

وقال أحدهم: ما كذبت منذ علمت أن الكذب يضر أهله.

وقال أبوسليمان الداراني: كل يوم أنا أنظر في المرءاة هل اسودّ وجهي من الذنوب؟!!

هذا حالهم... فكيف حالي وحالك، لبسنا الجديد، وأكلنا الثريد، ونسينا الوعيد، وأمّلنا الأمل البعيد، رحمتك يا رب! لماذا تريد الحياة، لماذا تعشق العيش إذا لم تدمع عينك من خشيته جل في علاه، إذا لم تمدحه في السحر، إذا لم تزاحم بالركب في حلق الذكر، إذا لم تصم الهواجر، وتخفي الصدقة.

هل العيش إلا هذا؟! هل الحياة إلا هكذا؟! ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر: ٣٧].

مع مالك بن أنس

دار مع الإمامة، وهجر الدنيا، لأنه إمام دار الهجرة، أبدع في الأثر، فثار على البدع.

العقلُ الغزيرُ علمّه أن الوقار مُلك، وأن العلم نور، وأنَّ الإمامة مطلب.

أسرتُه يمانية، ونشأتهُ حجازية، وخلافته عراقية، ومدرسته مغربية.

مالكُ بن أنس في خدمة العلم كأنس بن مالك في خدمة المعلم، تشابهت قلوبهم.
لبى نداء الواجب فما أبطأ، ونطق بالحكمة فما أخطأ، ثم قدم للأمة كتاب الموطأ.

خافه أعداء الملة، وخصومُ الشريعة، فنادوا: يامالك ليقضِ علينا ربك.

سكن الدار، وجاور الأنصار، ونشر الآثار. أرسل الى العالم الموطأ، فنشر في التمهيد، ورتب في الاستذكار، ونثُر في المدونة، وضُبط في الموافقات، علومه باسقات لها طلع نضيد. جادل أبا حنيفة، وعلَّم الشافعي، وورث علمَه أحمدُ.

أما العقيدة: فالإستواءُ معلوم، والكيف مجهول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وأما الحديث: فثقة الراوي، وعدالة الشيخ، وشهرة المتن.

وأما الفقه: فموافقةُ الأصل، واطراح الشواذ، واتباعُ المشهور.

وأما الزهدُ: فاظهارُ النعمة، واجتنابُ الحرام، ومخالفة الهوى، واطراحُ الدنايا.

مالكُ بنُ أنس: هو الإيجازُ في بلاغه، والبساطة في عمق،

والتواضع في هيبة، رآه أبوجعفر فكبر، وقال: وطيء لنا العلم، فقال له: وسهل لنا الحكم.

قال له القضاء هيت لك، قال معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي، وأتته الدنانير فصاح: وقرن في بيوتكن، وطلبهُ المنصـــب فنـادي: ما آتاني الله خيرٌ مما أتاكم.

يحرص على رفعة الملة فثوبه جميل. وطعامه لذيذ، وفراشهُ وثير: قل من حرم زينة الله، وعلمهُ نور، وكلامه در، ورائحتهُ مسك. يجالس الملوك في سمو، ويواكل المساكين في تواضع، ويصاحب العامة بأدب، ويعلِّم الطلاب في هيبة.

جمد في السائل فأفتى بتحريم النبيذ، وسال في الجامد فتساهل في لحوم الحمر.

إن حضر خطف الأضواء، وإن غاب أضاء الأرجاء، غلطاته نوادر، وتبسمه في النادر.

لبس النفيس، ليظهر للمترفين عزة الدين، ورفض الولاية ليلقن الناس تفاهة الدُنيا، أبوهُ في اليمن لأن الحكمة يمانية، وهو من المدينة من الذين تبوءوا الدار والإيمان.

أكثر أهل الأندلس مالكية إلا أهل الظاهر، وأكثر أهل المغرب مالكية إلا أهل الباطن.

علمـه فـي نيجيـريـا والنيجـر، وروانـدا وأوغنـدا، وداهـوم،

والخرطوم، في السنغال والبرتغال، في الحجاز بلاد الآثار، وفي الأندلس فرجة الأبصار، وفي إفريقيا رحبة الأقطار.

إن تيقن النقل عظمه، وإن شك في الراوي طرحه، وإن ظهر له البرهان اقتفاه، وإن سمع الهذيان جفاه

أريد مدحه لكن القوافي تزدحمُ في فيّ.

هاجرت روحه إلى دار الهجرة، ونصر الشريعة في أرض الأنصار، وطابت أنفاسه في طيبة. وهو اليوم يرقد، في صدق مقعد، في بقيع الغرقد.

أمـــا القبـــورُ فـــإنَّهُـــنَّ أوانـــسٌ بجـــوار قبـــرك والـــديـــارُ قبـــورُ

جلـــت مصيبتـــه فعـــم مصـــابـــه فـــالنـــاس فيـــه كلهـــم مـــأجـــورُ

يامالكُ أنت سلفُنا، ونحن بالأثر، وأنت عبرةُ فهل من معتبر، هنيئاً لك الرضوانُ عندَ مليكٍ مقتدر.

انفروا خفافاً وثقالاً

والله ما يوقظ النفس إلا سوط عزم، ولا ينبّه القلب إلاّ صيحة النذير العريان، ومصيبة الكثير أنهم رضوا بأن يكونوا مع الخوالف. جبنٌ في مواجهة المسئولية، خورٌ في تحمّل الواجبات، نكثٌ لعهد نصرة المبادىء، فتورٌ في طلب الخير، كسلٌ في البحث عن الحق، استسلامٌ للمغريات، خلود إلى الأرض، اتباع للهوىٰ.

قل لهؤلاء اللاّهين لو حفظ كلٌّ منكم كل يوم آية وحديثاً لصرتم في سنوات معدودات من حملة الميراث ووعاة الشريعة، لكنها أماني النفس الأمارة بالسوء وخداع الطبع الثخين، سواءً وعظت أم لم تكن من الواعظين. إن الأئمة الكبار، والصالحين الأبرار لم يؤيدوا بملائكة يمشون معهم في الأرض، ولم يكن لهم سلّم إلى السماء ولكنهم جدّوا وواصلوا وصبروا وثابروا:

هو الجدُّ حتى تفضل العينُ أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيّداً

كل بليد لا يلوم إلاّ نفسه، الشمس تجري لمستقر لها، لا تنتظر أحداً، والقمر قدّر منازل لكنه لا يلتفت إلى مخذل أو مسوّف: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

على الله ربنا توكلنا

الذهن مع الفراغ يجلب الهموم والأحزان، ويمده الشيطان الرجيم بالمخاوف، لأن الشيطان يخوف بأولياءه عباد الله، ويسعى في إدخال الحزن عليهم من كل باب، فيخيل لهم المخاطر، ويجسم لهم المخاوف، وينصب أمامهم الأهوال، مع أنها في الغالب لا تقع، فحق على المؤمن أن لا يسعد الشيطان بالوقوع في حبال الخوف والحزن، بل يكل الأمر إلى الله العلي القدير، ويعدد النعم التي لله عليه، ويستعين بإحصائيات السلامة التي يعرفها في حياته، فإنه في الغالب

ينجو مما يخاف، ويسلم مما يتوقع ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

القرآن يدعوك للسعادة

القرآن يدعو إلى حسن الظن بالله، والتوكل عليه، والفأل الحسن، والثقة بموعود الحق سبحانه، وانتظار الفرج منه وتيقن اليسر بعد العسر، ويحذر من الحزن على ما مضى لأنه مكتوب، والخوف من المستقبل لأنه غائب، ويعد بالغنى بعد الفقر، والعزة بعد الذلة، وينهى عن اليأس والقنوط والإحباط وسوء الظن والشك، ويأمر بإخراج دغائل النفس وأمراض القلوب، من حسد وحقد وغل وشحناء واجتناب التجسس وتتبع العثرات والفرح بالزلات، ويأمر بالصفح والعفو والصبر والإحسان والغفران، وكتم الغيظ وحبس الغضب، وحسن الخلق.

إن هذا الكتاب الكريم أعظم كتاب يدعوك للسعادة والفرح والسرور والحبور والبشر، إنه يبشرك أن اهدأ واثبتْ وأسعد وتفاءل وتقدم وافرح واستبشر فإن وراء الليل صباح، وخلف الأكمة روضة، وبعد المفازة نهر، وعند الصخرة عين باردة، ومع الشمس ظل، ولدى التعب نوم هادىء عميق مريح. ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾.

توظيف المعلومة

المطلع الواعي يوظف كل معلومة يسمعها أو يقرأها في منهجه الصحيح فهو يستفيد من كل معلومة، فعنده من قوة النظر وجلال التمحيص ما يميز بين النافع والضار، وربما طالع علوماً عقيمة، وأفكاراً غير مستقيمة فأثارت في نفسه البعد عن الشر وأهله، وحببت إليه الخير وحامليه.

ولأمر ما قص علينا ربنا جل وعلا قصة الشيطان الرجيم وإنحرافه العدواني، ومسيرة الهدم التي يتزعمها هذا الآثم، ومخطط الدمار الذي ينهجه هذا المارد، ثم قصص أتباعه المتهوكين معه في سراديب البغي والعدوان، فمن ظالم أحرق أكباد البؤساء بظلمه، وانزف دموع الضغفاء بعتوه، ومن ملحد أنكر البرهان، وألغى الدليل، وكذب بالكتاب، ونقض الميثاق، ومن منافق أعلن المسالمة وكتم العدوان، وأظهر البر وأخفى الحقد الدفين.

إذاً فكلما طالعت أو سمعت أو رأيت فاجعل هذا المسموع والمقروء والمشهود تحت محاكمة دين الفطرة، ثم وظف هذه المعلومة في بناءك العلمي، وفي سعة مداركك وفضاء فهمك، فكلما غزرت مادتك، وتعددت مواهبك وكثرت مطالعاتك، دق نظرك، ولطف فكرك، وانطلق لسانك، وانشرح صدرك.

إن القرآن محور الدائرة، وفي فلك هذه الدائرة علوم وفنون وثقافات وحضارات ونتاج، فما قبله القرآن فهو المجند المرغوب فيه المعتبر، وما ردَّه فهو المردود الضار الذي لا نفع فيه.

أجمل الكتب

بعد عمرٍ تصفحت فيه الكتب، وخبرت فيه المؤلفات، رأيت أن فيها ما يكفي عن بقيتها إذا كرر وفهم، فجمعت لنفسي مكتبة صغيرة تصلح للحضر والسفر، وتكون شاملة لأكثر فنون العلم، وراعيت فيها الإبداع والجودة والطرافة، وتناسب الحجم متجافياً عن المتون المختصرة، فلي في حفظها وجهة نظر، وأعرضت عن المطولات لأن تكرارها صعب، والكتاب إذا لم يكرر بقيت فوائده أسرار، ولم تزل علومه مخبآت، فجمعت بعد كتاب الله رياض الصالحين، وبلوغ المرام، وصيد الخاطر، ومقدمة ابن خلدون، ورسالة الشافعي، وإرشاد الفحول، وفقه اللغة، ومقامات الحريري، وجامع العلوم والحكم، والعزلة للخطابي، وصفحات من صبر العلماء، وديوان أبي تمام والمتنبي، ومفردات القرآن للراغب، مع حصن المسلم والدعاء من الكتاب والسُّنة، وتاريخ الخلفاء للسيوطي.

وسوف أتأمل المكتبة مرة أخرى، فربما صلح كتاب للترشيح في هذه القائمة، فإنني لا أختار الكتاب إلا بعد رويّة وتأمل، لأن الأصيل

العميق في التأليف قليل، والعبرة بالحسن لا بالكثرة، وبالضبط لا بالجمع والمهم من الجميع، العمل بما علمنا، نسأل الله علماً نافعاً يهدينا إلى صراطه المستقيم، ونعوذ بالله من علم لا ينفعنا.

المختصرات العلمية

حذار على طالب العلم من عكوفه فقط على المختصرات العلمية واشتغاله بها فحسب، وتضييع العمر في حل رموزها، وشرح مغلقها، فهذه لمْ تكن طريقة القرون المفضلة في العلم وتحصيله وكثير من طلبة العلم وقف على هذه المتون، وأذهب ليله ونهاره في مدارستها وحل عويصها، وهذا تصعيب للعلم، وتعسير في المعرفة، وإلا فإن قراءة المطولات ولو لم تحفظ أنفع بكثير من إنفاق العمر في هذه المتون الشحيحة في العبارات، المقفلة في المعاني، لأن المطولات طريق واسع سهل تكثر فيها الفوائد، وتبسط المعاني، وتكرر الجمل، فكلما صعبت مسألة سهلت مع كثرة الإيراد والشرح والأمثلة، بخلاف المختصرات فإن كثيراً من طلبة العلم يحفظ بعض الجمل دون أن يعي معناها ويدري بمحتواها، ويأخذ في حفظ هذه العبارات أضعاف ما يأخذه في دراسة المطولات.

وهذا الرأي قد أشار إليه ابن خلدون في المقدمة لكنني بسطته هنا، وهذه المتون المختصرة إنما أتت في القرون المتأخرة عند فتور

العزائم وضعف الهمم، وكساح القرائح فظن مصنفوها أنهم سوف يزجون للطلبة خيراً، ويقدمون نفعاً، فاختزلوا المسائل في رموز، وعصروا العلوم في نتف، فصارت بعض الجمل كالطلاسم، وأصبحت بعض المقولات كالألغاز، فاحتيج في شرحها إلى مطولات، فرجعنا من حيث بدأنا، وضاعت الأعمار في اكتشاف مراد صاحب المتن، والإطلاع على مغزى كلامه، وهذا خلاف المنهج الصحيح في طلب العلم، والذي سار عليه الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام، فإنهم استغرقوا أوقاتهم في فهم النصوص كتاباً وسُّنة، فكانوا يحفظون القرآن، ويتدبرون معانيه، ويتدارسون الحديث، وعندهم من علم الآلة ما مكَّنَهم من هذا الفهم دون أن يغرقوا في الوسائل أو أن يشغلوا أنفسهم بالمختصرات، وقل لي بربك كيف يطلب العلم من يريد حفظ مختصر في الفقه والنحو والأصول والمصطلح والفرائض والتوحيد واللغة وغيرها؟!!.

دراسة التاريخ

التاريخ لمن طالعه بتدبر ثروة من العظات، وكنز من التجارب وحشد هائل من العجائب. ويرى غوستاف لوبون: أن التاريخ عرض بسيط للنتائج الصادرة عن مزاج الأمم. ويرى ابن خلدون: أنه سجل لإبداعات البشر وسقوطهم. أما ابن مسكويه فيرى: أنه كتاب لتجارب الأمم. والصحيح أن التاريخ: حسب قارئه، فإن قرأه للمتعة والتسلية

فهو حكايات ومغامرات وقصص رائعة. وإن قرأه بإمعان لأخذ العبرة وطلب العظة والغوص على الحقيقة وكشف السُّنة الربانية، فهو جامعة كبرى، يتعلم فيها الإنسان الحكمة، ويستخلص منها النصحية، ويتعلم فيها الخبرة، ويعود منها بنظر دقيق، ورأي عميق، وبصر نافذ ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وفي التاريخ أمان للنفس المصابة عند قراءة أخبار المصابين، وسلوة للقلب المفجوع عند سماع أنباء المفجوعين ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾. وفي التاريخ الاعتبار بمصارع الغابرين وأخذ الحيطة من خطأ المخطئين ومصائب قوم عند قوم فوائد. وفي التاريخ فرجة للنفس في ميدان العبر ومسرح للروح في ساحة الدنيا، وجولة للفكر في فضاء الدهر ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

والتاريخ مطرقة إنذار للأمم، وصيحة بعث للأجيال، وسوط تأديب للشعوب، والتاريخ لسان ناطق بالثناء والهجاء لمن عبره من عالم وسلطان، وقائد وثري، ومؤلف ووزير، وخطيب وشاعر. ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾.

والتاريخ لا يقرأ لتحفظ جمله، وإنما يطالع لتتدبر عظاته وعبره، وليعلم سُنة الله في الأمم، وكيف نصر أولياءه ومحق أعداءه، وأكرم رسله، وأهان محاربيه ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾.

وفي القرآن أصول التاريخ، فإنه يورد الزبد من القصص والعبر من الوقائع والمحصلة من المثلات، والخلاصة من الأحداث في قانون

ثابت، وسُنة مطردة لن تجد لها تحويلاً ولا تبديلاً، وفق ناموس إلهي حكيم، فسبحان المدبر. ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾.

اعرف عصرك

طالب العلم يعرف عصره الذي يعيش فيه، فيقرأ لمشاهير علماء العالم ومثقفيه، ويعرف أسلوب الكتاب، ويطلع على أهم الأحداث اليومية في العالم، وماذا يجري في الكون، ويحيط بالدعوات والأفكار المعاصرة ولو على وجه الإجمال، ويعرف عامة الملل والنحل ولو على وجه الإيجاز، ولابد له من تخصيص وقت لقراءة شيء مما يكتب وينشر من المعاصرين، فيعرف الغث من السمين والطالح من الصالح ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥].

معـــانـــاة

أعاذنا الله وإياك من الهموم، ونجانا من الغموم، فإنها عدو قوي، وداء دوي، وهي تخترم الجسيم، وتمرض الجسم السليم، وتكدر البال، وتكسف الحال، غير أنها تزول بالدواء، وتذهب بالدعاء، فعليك بدعوة ذي النون، واعلم أن ما قضى سوف يكون، فلا تذهب نفسك على ما مضى حسرات، فما فات مات، ولا تبتئس من كلام الحساد، فما يعادىٰ إلا من ساد، ولا تتوقع الحوادث، ولا تنتظر

الكوارث، بل ثق بالجليل، وقل: حسبنا الله ونعم الوكيل، ونظف ثيابك، وعش يومك، وارض بالكفاف، ولو أنه رغيف جاف، واقرأ المثاني، وتدبر تلك المعاني، واطلب العلوم، واحذر أن تكون كبلعوم، وتهيأ للرحيل، فما أبطأك، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وملك كسرى يغني عنه كسرة، وكثرة المال حسرة، ولا تخش المكاره، فربما خير لك وأنت كاره، والزم المنزل، فحق للقلب أن يعزل والقرآن ينزل، واجعل لنفسك من العبادة غذاءها، ودعها فإن معها حذاؤها، وتقلل فإن الموت قريب، وكن في الدنيا كأنك غريب، وإذا رأيت أهل الدنيا وهم فيها مغرقون فقل أيتها العير إنكم لسارقون. وإذا وعظت القلب فأبى فقل جئتك من سبأ بنبأ. وقل لمن نهب وما وهب وتشاغل بالذهب، تبت يدا أبي لهب. وإن دهمك هم يهد الجبال فصح ارحنا بالصلاة يا بلال، وإذا زاغ طرفك فأنت مفتون، فاعلم أن قلبك أكله الذئب. وأنت عنه غافل.

أفضل العبادة انتظار الفرج

لأن فيه ثقة بالباري، وحسن ظن بالخالق، وقوة رجاء بالحق، فانتظار الفرج انتصار على البأس، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧]وقهر للقنوط، ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجرات: ٥٦]. وفيه تصديق للخبر ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٦]، وتسليم للوعد، إن الفرج بعد الكرب، واطمئنان

لسنة الله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٢١]، وتطلع إلى لطفه ورحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٦]، وركون إلى كفايته، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

واعتماد على رعايته وولايته: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

انتظار الفرج: ترقب نظرة الرحمة من الرحمن، ونفحة اللطف من الديان، وغوث الملهوف من المنان.

انتظار الفرج: الصبر حتى يكشفَ الربُّ الكرب، ليس لها من دون الله كاشفة. وحبس المضطر أنفاسه حتى يجيبه ربه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]. انتظار الفرج: طلب المدد من الأحد، والصبر والجلد حتي يغيث الصمد. والفرج للجائع إطعامه من الذي يُطعِمُ ولا يُطعَم.

وفرج المريض شفاء من الشافي، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝﴾ [الشعراء: ٨٠].

وفرج الفقير غنى يستره، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝﴾ [فاطر: ١٥]، وفرج المحبوس إنطلاقه من حبسه، وخروجه من سجنه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وفرج الضال هدايته من الرحمن ترده إلى صوابه: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧].

سير الرجال

أوصيك بمطالعة سير الصالحين من الصحابة والتابعين والعلماء والعباد والزهاد من أهل السُّنة، والوقوف على أخبارهم وقراءة أحوالهم، فإنها تشحذ همتك وتقدح في قلبك زناد الإقتداء بهم أو على الأقل تخجل من نفسك وتستحي من ربك إذا نظرت إلى حالتهم وحالتك، فعليك بتدبر أخبارهم وعش معهم في زهدهم وورعهم وعبادتهم وخوفهم من ربهم، وتواضعهم وحسن خلقهم، وصبرهم.

أما أبناء عصرك فهم مثلك فقلَّ أن تجد الزاهد العابد الورع المتعفف، ولله في خلقه شئون.

الطنطــــــاوي

جلست مع الشيخ علي الطنطاوي في بيته مرتين بعدما أقعد عن الحركة وكانت دموعه تسابق كلماته كلما ذكر قصة أو ذكرى أو حدث بكى، وأخبرنا أنه لا يريد الآن إلا مغفرة الله ورحمته، وهذه هي النتيجة التي يصل إليها كل عاقل، لا مال يبقى، لا شباب يدوم لا صحة تستمر، لا ولد ولا جاه يعتمد عليه.



ابن باز

عرفت الشيخ عبدالعزيز بن باز في دروسه ومجالسه ومكتبه، فعجبت لجمعه خصال الخير، من الصدق والإخلاص والتواضع والعلم والرحمة بالناس وحب نفعهم والحرص على الوقت، فقلت بمثل هذه الطريقة تحفظ الأعمال، وتجمع الحسنات، ويسعى للآخرة فهنيئاً له هذا التوفيق من ربه.

الألبانـــي

قابلت محدث عصرنا الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في مكة عام ١٤١٢هـ فوجدت الرجل زاد على الثمانين من العمر، وهو حي الذاكرة، قوي الإدراك لبركة حديث الرسول ﷺ، ثم إنه جعل ليله ونهاره وحله وترحاله ومجالسه مع الحديث، فتوى ومذاكرة وتأليفاً، ولذلك رفع ذكره، ونفع علمه، وخلد اسمه، فمن أراد علم السُّنة فعليه بالعكوف عليه، وإعطاءه جل الوقت والإنصراف إليه إنصرافاً تاماً.

عبدالله بن المبارك

أقضي نهارك مع ابن المبارك، لترى كيف يصبح الرجل أمة والفرد جيلاً، والإنسان جماعة. ولتعلم أن من النفوس من شعت بالفضيلة كالشمس، وسحت بالخير كالنهر، وفاضت بالعلم كالبحر.

ابن المبارك: الإنسانية الصادقة التي تعطي ولا تأخذ، وتؤثر ولا تستأثر، وتجود ولا تستجدي، الطهر في هيكل، والمثل في شخص، وخشية المولى في مولى.

ابن المبارك: صور كثيرة من النبل، ومواقف عديدة من الشهامة، ومقامات متنوعة من الصفات. تعلم العلم فأضاء به جوانبه، وصقل به روحه، وزكي به نفسه.

جمع المال فوصل به الجيران، وأغنىٰ به الفقراء، وعاد به على المساكين، وكف به وجهه، وصان به عرضه.
طلب الحديث فأحله الى فضائل شاخصة، وصوره الى صفات ماثلة، وشكله في قوالب من العفة والصدق والشجاعة والزهد.

ابن المبارك: رافق العلماء فبزهم بالعلم، وفاقهم بصدق السريرة، وتميز عليهم بالجلالة في النفوس ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ ﴾.

ورافق الزهاد فكان أعظمهم لأنه يملك مالاً وهم لا يملكون،

وينفق صدقات وهم لا ينفقون، ويعطي ذوي الحاجات وهم لا يعطون.

وصحب الناس فاحبه الجميع، وتعلق به الكل خلقه خلاب، وجوده جذاب.

فم باسم وقلب راحم، يد ضارعة وعين دامعة.

ابن المبارك: إن قرأ في الأثر سابقت عبراته كلماته، فما تسمع إلا نشيجاً وعويلاً، وإن سافر مع قوم، صعب عليهم فراقه، وجل عليهم وداعه، وإن حضر المعركة، استبسل استبسال من عاف نفسه وهانت عليه روحه في ذات الله.

أخلاق ابن المبارك يمثلها بقوله:

وإذا صاحبت فاصحب ماجداً ذا عفـــاف وحيـــاء وكـــرم
قـولـه للشـيء لا إن قلـت لا وإذا قلـت نعـم قـال: نعـم

جهاده يصوره بنشيده الرائع:

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا لعلمـت أنـك بـالعبـادة تلعـب

لقد كان لابن المبارك حوادث مؤثرة في حياته وفي النفس، صدق مع النفس لا يترك لها العنان، وخشية لله تملأ الوجدان، وحسن صحبة للناس تعطف عليه الإخوان.

يصوم الأيام والناس مفطرون، فيقوم بخدمتهم وضيافتهم.

يسافر مع الناس فينفق عليهم من ماله، ويطعمهم من حلاله.

يذكر عنده أصحابه فيثني عليهم ويمجدهم، ويذب عن أعراضهم.

يسمع بالحقوق فيقوم بقضائها، ويبادر لأدائها.

تعرض له فرص الخير فيقتنصها، تمر به طيور اليمن والفلاح فيصطادها، يقرأ الفضائل فيعملها ويعتادها.

إن رافق قوم لم يتركهم حتي يبكوا على فراقه من حسن صحبته وإن حل بين قوم لا يرتحل حتى يعزي بعضهم بعضاً على كريم سجيته.

جاور يهودياً فأحسن إليه ووصله وأطعمه وكساه حتى أسلم اليهودي، وقال: إن دينا أخرج مثل ابن المبارك لهو دين حق وصدق.

ذهب بقافلة إلى الحج محملة بكل ما لذ وطاب، فمر بقرية في الطريق أشرف أهلها على الموت حتى أكلوا الميتة، فوزع القافلة كلها، وعاد إلى دياره بعدما أرضى نفسه.

إذا قدم بلدته تباشر الناس كأنه الغيث هلَّ، والعيد حلَّ.

إذا سافر عم البكاء أرجاء بلدته مرو حتى قال قائلهم:

إذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

إذا ذكر الأحباب في كل بلدة فهم أنجم فيها وأنت هلالها

دخل ابن المبارك غرفته فانطفأ السراج، فتذكر بظلمة الغرفة ظلمة القبر، فبكى حتى انتحب.

نسي ابن المبارك قلماً لأحد الناس عنده، وسافر ثلاثة أيام فتذكر القلم فعاد بالقلم إلى صاحبه.

ألف ابن المبارك كتاب الزهد، فأتى ليقرأه على الناس في المسجد، فما استطاع من كثرة البكاء.

جعل ابن المبارك ثياباً خاصة لقيام الليل، فلما حضرته الوفاة، أمرهم أن يكفن فيها.

خذا من صبا نجد آمانا لقلبه فقـد كـان ريـاهـا يطيـر بلبـه

قام ابن المبارك ليلة كاملة يردد ويبكي: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ حتى الصباح، وقد لانت أجفانه من الدموع.

قال ابن المبارك بحضور الناس: أكره العصاه وأنا شرٌ منهم، وأحب الصالحين ولست منهم.

لما حضرت ابن المبارك الوفاة، تبسم وتلى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١].

فتح داره للناس يأوون إليها، وفتح كيسه ينفق عليهم منه، وعرض جفنته يأكلون منها، وعرض عليهم علمه ينهلون منه، وأفاض عليهم بحسن خلقه يقتدون به.

لا يسمح لنفسه أن تغلبه، ولا يسمح لأحد أن يغتاب في مجلسه، ولا يرضى لعرض أن ينال في حضرته عنده صيانة وديانة وأمانة ورزانة.

التواضع عنده: التكبر على الجبابرة، والذل عنده الاستخذاء للبخلاء.

أحبه العامة والخاصة، فطرزوا فيه أسمى آيات الثناء، وأجل أبيات الرثاء، وأنبل كلمات العزاء. بادلوه حباً بحب، ووداً بودٍّ، ووفاء بوفاء.

عاش في ضمائر معاصريه وبقي ذكره لمحبيه.

رحم الله تلك الروح ورضي عن تلك النفس، وجمعنا به عند مولاه.

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

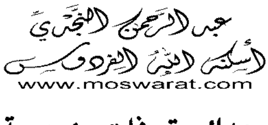
من الذي يفزع إليه المكروب، ويستغيث به المنكوب، وتصمد إليه الكائنات، وتسأله المخلوقات، وتلهج بذكره الألسن، وتَألهُهُ القلوب إنه **الله** لا إله إلاَّ هو.

وحقٌّ عليَّ وعليك أن ندعوه في الشدة والرخاء، والسراء والضراء، ونفزع إليه في الملمَّات، ونتوسّل إليه في الكربات، وننطرح على عتبات بابه سائلين باكين ضارعين منيبين، حينها يأتي مدده ويصل عونه ويسرع فرجه، ويحل فتحه ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ فينجي الغريق ويرد الغائب، ويعافي المبتلىٰ، وينصر المظلوم، ويهدي

الضال، ويشفي المريض، ويفرّج عن المكروب ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ .

ولن أسرد عليك هنا أدعية إزاحة الهم والغم والحزن والكرب، ولكن أحيلك إلى كتب السُّنة لتتعلم شريف الخطاب معه فتناجيه وتناديه وتدعوه وترجوه، فإن وجدته وجدت كل شيء، وإن فقدت الإيمان به فقدت كل شيء.

إن دعائك ربك عبادة أخرى، وطاعة عظمى ثانية فوق حصول المطلوب، وإن عبداً يجيد فن الدعاء حري أن لا يهتم ولا يغتم ولا يقلق، كل الحبال تتصرم إلاَّ حبله، كل الأبواب توصد إلاَّ بابه، وهو قريب سميع مجيب، يجيب المضطر إذا دعاه. يأمرك ـ وأنت الفقير الضعيف المحتاج، وهو الغني القوي الواحد الماجد ـ بأن تدعوه ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ . إذا نزلت بك النوازل وألمت بك الخطوب، فالهج بذكره، واهتف باسمه، واطلب مدده واسأله فتحه ونصره، مَرِّغ الجبين لتقديس اسمه، لتحصل على تاج الحرية، وأرغم الأنف في طين عبوديته لتحوز وسام النجاة. مُدَّ يديك، ارفع كفيك، أطلق لسانك، أكثر من طلبه، بالغ في سؤاله، أَلِحَّ عليه، إلزم بابه، انتظر لطفه، ترقب فتحه، أُشدُ باسمه، أحسن ظنك فيه، انقطع إليه، تبتل إليه تبتيلاً حتى تسعد وتفلح.



الصلاة .. الصلاة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

إذا داهمك الخوف وطوّقك الحزن، وأخذ الهم بتلابيبك، فقم حالاً إلى الصلاة، تثوب لك روحك وتطمئن نفسك، إن الصلاة كفيلة بإذن الله باجتياح مستعمرات الأحزان والغموم ومطاردة فلول الاكتئاب.

كان ﷺ إذا حزَبَه أمرٌ قال: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**» فكانت قرة عينه وسعادته وبهجته.

وقد طالعت سير قوم أفذاذ كانت إذا ضاقت بهم الضوائق وكشرت في وجوههم الخطوب، فزعوا إلى صلاة خاشعة فتعود لهم قواهم وإراداتهم وهِمَمُهم.

إن صلاة الخوف فرضت لتؤدى في ساعة الرعب، يوم تتطاير الجماجم، وتسيل النفوس على شفرات السيوف، فإذا أعظم تثبيت وأجل سكينة صلاة خاشعة.

إن على الجيل الذي عصفت به الأمراض النفسية أن يتعرّف على المسجد، وأن يمرّغ جبينه ليرضي ربَّه أولاً ولينقذ نفسه من هذا العذاب الواصب وإلا فإن الدمع سوف يحرق جفنه والحزن سوف يحطم أعصابه وليس لديه طاقة تمده بالسكينة والأمن إلاَّ الصلاة.

من أعظم النعم لو كنا نعقل هذه الصلوات الخمس كل يوم وليلة

كفارة لذنوبنا، رفع لدرجاتنا عند ربنا، ثم هي علاج عظيم لمآسينا ودواء ناجع لأمراضنا، تكسب في ضمائرنا مقادير زاكية من اليقين وتملؤ جوانحنا بالرضا. أما أولئك الذين جانبوا المسجد وتركوا الصلاة، فمن نكد إلى نكد، ومن حزن إلى حزن ومن شقاء إلى شقاء ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨﴾.

استثارة النفس

النفس بحاجة إلى استثارة وإغراء، لتخرج من جحر البلادة والتخلف، والاستخذاء. إن أكثر النفوس قابعة في وهمها، راتعة في شهواتها، سادرة في غيِّها. ولذلك أزرى سبحانه على رجل آتاه الآيات، ومفاتيح المعرفة، ولكنه للأسف أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فهل آن للإنسان أن يحرر روحه من رق الإنغلاق والانحسار وأن يثابر، وأن يجد وأن يبحث لأنه تارك غير متروك، وناسٍ غير منسي عنه ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: ٣٦].

إن قيمة النفس إحسانها، وإبداعها، وإنتاجها، وإن تدهورها يكمن في هذا الركود المطبق المخيف، وهو ركود يثمره نعاس الروح، ونوم القلب، وكم من صائح، وكم من نذير، وكم من عظة، وهم عنها غافلون. ولقد كان بعض الفضلاء يلوم نفسه على التقصير ويحاسبها ويوسعها تحقيراً على صنيعها. فهي تكره العمل وتؤثر رخاء المعصية على شدة الطاعة، ونزهة التلفت على سياج الالتزام، وهدوء

الفتور على حرارة العمل، فمن طاوعها رسب في وحل الضالين، وانحدر في حضيض الساقطين. فياأيها الأحرار المتيقظون هيّا لاستثارة النفس، والصعود بها إلى أعلى، حيث العطاء، والبذل، والتفوق، ولو كان الجود يفقر، والإقدام قتال.

والسابقون السابقون

إلحق الركب.. أدرك القافلة.. إركب معنا في سفينة النجاة..، حث الخطىٰ، أسرع في السير علّك أن تنجو من الهلاك.

منذ أن تستيقظ من النوم وأنت في مصارعة مع الشيطان، ومطاردة مع قرناء السوء من الدنيا، والهوىٰ، والأمل الكاذب، والخيال المجنّح.

إفتح دفترك بعد الفجر، ونظم ساعات اليوم، ملازمةً للصف الأول، وهو رمز العهد والميثاق، وحفظ آية من القرآن أو آيتين أو ثلاث، وهو دليل الحب والرغبة، وتجديد التوبة والاستغفار، وهما بريد القبول والدخول، وطلب مسألة نافعة، وهي علامة الحظ السعيد، وصدقة لمسكين، وركعتان في السحر، وركعتان في الضحى زلفى إلى علّام الغيوب، والزهد في الحطام الفاني، وطلب الباقي شاهد على علو الهمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٨﴾.

الإمام الشافعي

إمام العباقرة، وعبقري الأئمة، له في العلم سبب، وفي البيت نسب، وفي المروءة حسب.

سالت قريحته فتفجرت أنهارُ الحكمة من على لسانه، وساقت رياح التوفيق سحب علمه فسالت أودية بقدرها. ذاكرته أصابها وابل فآتت أكلها ضعيفين.

الشافعي أخذ من الأثر روحه، ومن الفقه خلاصته ومن البيان ناصيته، ومن الشعر حلاوته، ومن المجد ذروته.

قعَّد للعلماء القواعد. فغضب عليه أعداء الشريعة لأنهم رضوا بأنوا يكونوا مع القواعد. فَخُرتْ به قريش، وتبجحت به العراق، وخرجت إليه مصر، حاور محمد بن الحسن فقطع أزراره، وردَّ علىٰ المريسي فأطفأ ناره، وجاور أحمد فشكر جواره.

الشافعي لدنيا العلوم شمس، ولأبدان الأخبار عافية، ولليل المدلهمات قمر، في الشرع شعرهُ، في الحق بذله، للآخرة طلبه، لله سعيه، لما خرج إلى البلاد لبست بغداد الحداد وأمست في سواد. الألفاظ سكر، والقصيد در نضيد، حفر لحداً للملاحدة، وعزل في زنزانة الإحباط المعتزلة، ورد الأباطيل في وجوه أهل التعطيل، إن سألناه عن:

أهل الكلام: فبالجريد والنعال.

وأهل السُّنة: روادُ الجنة.

والفلاسفة: أهل سفه.

ومالكُ: نجمُ الممالك.

وأحمد بن حنبل: زرع سنبل.

أتاه المالُ ففرَّ منه إلى العلم، وأتته الدنيا فهرب إلى الآخرة.

تعلم الفراسة في اليمن، فكشف أهل الزيغ والأفن، تدجج بالحجج فألجم الدجاجلة، وصال بالأصول على أعداء الرسول.

درس الطب فمرض جسمه، وداوي الناس فزاد غنمه.

المروءة عنده: ولولا الشعرُ بالعلماء يزري، التواضع: أحبُ الصالحين ولست منهم.

ميزة الشافعي: التفرد، ومنقبتُه التجرد، تفردَّ في الفهم، فعصر من زهر الذهن رحيقاً، وتجرد للحق فنسج من بز الشريعة ثوباً سابغاً. فاح طيب ذكره في الأنوف، فيا فرحة من شم، وهزم الباطل فكأنه شم عطر منشم.

الشافعي شهابٌ ثاقب، أحرقت به شياطين الإنس، ولهم عذاب واصب.

يا ابن ادريس أيا الشهم الأجل أنت سيف الحق في العلياء سُل

مسكين من جادل الشافعي وناظره، مسكين من عارضه وكابره، مسكين من عرفه وما ذاكره.

درس محمد ابن إدريس علوم محمد ﷺ فترك علماً لا يغسله الماء، ولا تطفؤه الريح، ولا يلفه الظلام، ولا ينسيه الدهر، الرسوخ في يسر، العمق في سهولة، الأصالة في إشراق، البراعة في نصوع.

أهل فارس يعرفونه، وأهل الصين يذكرونه، وأهل الأندلس يمدحونه، وأهل الباطل يبغضونه.

إذا مرجت الآراء بزغَ رأيُ الشافعي كالنجم الثاقب، إن تكلم أسكت الخطباء، وإن أنشد صمت الأدباء، أحب الملة فأمهرها روحه، وعشق العلم فأعطاه عمره، وأخلص للرسالة ففاضت لها نفسه، فهو عاشق المثل، سامي المقاصد، رجل المروءات، ناشر السنة بين أهلها، وناصرها على أعدائها، وحافظها لمحبيها، وشارحها لناقليها.

إذا ارتحل بكى المحل، وإذا انتقل شيَّعَتْهُ المقل. أنار بالوحي عقله، وجمع علم من قبله، وقال معاصروه: ما رأينا مثله:

وإن تفـق الأنـام وأنـت منهـم ... فـإن المسـك بعـض دم الغـزالِ

ورث أنوار الرسالة، فألف للأمة الرسالة، مات أبوه فكفلته الأم، فقدم للناس كتاب الأم. إذا نطق الشافعي فكأن السيل أقبل، والفجر بزغ، والنور سطع، صحة مخارج، حلاوة لفظ، قوة حجة، براعه دليل، سلامة إنشاء، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

في الفقه إمام، في النقل حجة، في النسك عَلَم، في اللغة أستاذ، في الذكاء آية.

سرت به أمة من غزة فسبحان الذي أسرى، وعاش في مكة لينفع أمَّ القرى.

الشافعي لم يستند إلى النسب ولو أنه مُطَّلِبِي، ولم يتكل على الجاه فهو أبي، ولكنه أخذ بأسباب الخلود، وهجر أسباب الفناء، فأمات في حياته النفس الأمارة، وأحيا بوفاته النفس المطمئنة، فنوديت: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٨]

إذا كانت الحياة بالبساط والسياط والسلطة والسطوة فأين أصحابها بعد موتهم، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: ٩٨].

عاصر الشافعي خمسة ملوك، عاشوا أغنياء وهو فقير، هم في حشمٍ وخدمٍ وهو في غربةٍ وعزله، بقي وذهبوا، ذُكِرَ ونُسوا، عاش وماتُوا، لأنه أمات الدنيا في حياته، وأحيا الآخرة قبل وفاته، وهم أشربوا في قلوبهم عجل العاجلة، وأخروا في بطاقة أعمالهم الآخرة، ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف.

عند الشافعي: اتباعُ الأثر عبادة، الوقوف مع النقل عقل، توقير الصحابة عقيدة، رد الشبه جهادُ، تعليم الناس ربانية، ترك المعاصي هجرة، أهلُ الحديث: رؤوس، المبتدعةُ: سفلة، علمُ الكلام: غي، المنصبُ: ذُل، الدُنيا: دنيئة.

بدا إلى البادية فهذَّ شعر هذيل. كان رأساً وسواهُ ذيل. احتسى علم مالك، ومصَّ فهم أبي حنيفة، وجمع بين النثر والشعر، والرواية والدراية، والعقل والنقل.

الشافعي عروبةٌ حجازيةٌ، وفصاحةٌ عراقية، ورقة مصريَّة، أعجبُ ما فيه روحُ التجديد في المذهب القديم. وقدم التأصيل في مذهبه الجديد.

سخَّر الشعر للشريعة، والنحو للوحي، والرأي للرواية، والتعليل للتأويل، حملته الهمة فأضناه الطلب، وخلع الدنيا فلبس تاج القبول، خاف الدنيا والدنايا، وجانب الشيطان والشر والشهوة والشبهة.

إن خطب أطنب وأطرب، وأتى بكل أطيب. وإن أفتى شفى وكفى وأوفى.

فلج خصوم الإسلام، ونكس رايات الأقزام، وأبقى ذكره للأيام، دمغ الضلال، واكتسح الجهال، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال.

انكسر به ظهر الجبرية، وثلم به قِدرُ القدرية، واخرجت حججه شبه الخوارج، واهتز في يده سنانُ السُّنَّة.

* * * *

ذكِّر نفسك بجنة عرضها السموات والأرض

إن جعت في هذه الدار أو افتقرت أو حزنت أو مرضت أو بخست حقاً أو ذقت ظلماً فذكِّر نفسك بالنعيم والراحة والسرور والحبور والأمن والخلد في جنات النعيم، إنك إن اعتقدت هذه العقيدة وعملت لهذا المصير تحولت خسائرك إلى أرباح، وبلاياك إلى عطايا.

إن أعقل الناس هم الذين يعملون للآخرة لأنها خير وأبقى. وإن أحمق وأبله هذه الخليقة هم الذين يرون أن هذه الدنيا هي قرارهم ودارهم ومنتهى أمانيهم، فتجدهم أجزع الناس عند المصائب، وأندمهم عند الحوادث؛ لأنهم لا يرون إلاَّ حياتهم الزهيدة الحقيرة، لا ينظرون إلاَّ إلى هذه الفانية، لا يتفكرون في غيرها ولا يعملون لسواها، فلا يريدون أن يعكّر لهم سرورهم ولا يكدّر عليهم فرحهم، ولو أنهم خلعوا حجاب الران عن قلوبهم، وغطاء الجهل عن عيونهم لحدَّثوا أنفسهم بدار الخلد ونعيمها ودورها وقصورها، ولسمعوا وأنصتوا لخطاب الوحي في وصفها، إنها والله الدار التي تستحق الاهتمام والكد والجهد.

هل تأملنا طويلاً وصف أهل الجنة بأنهم لا يمرضون ولا يحزنون ولا يموتون، ولا يفني شبابهم ولا تبلى ثيابهم، في غرف يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر، يسير الراكب في ظل شجرة من أشجارها مائة عام لا يقطعها، طول الخيمة فيها ستون ميلاً أنهارها مُطَّردة، قصورها منيفة، قطوفها دانية، عيونها جارية، سررها مرفوعة، أكوابها موضوعة، نمارقها مصفوفة، زرابيّها مبثوثة، تم سرورها، عظم حبورها، فاح عرفها، عظم وصفها، منتهى الأماني فيها، فأين عقولنا لا تفكر، ما لنا لا نتدبَّر.

إذا كان المصير إلى هذه الدار فلتخف المصائب على المصابين ولتقر عيون المنكوبين ولتفرح قلوب المعدمين.

فيا أيها المسحوقون بالفقر، المنهكون بالفاقة المبتلون بالمصائب، اعملوا صالحاً لتسكنوا جنة الله وتجاوروه تقدست أسماؤه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].

وترجون من الله ما لا يرجون

هذا الشريف الرضي الشاعر يريد مجداً دنيوياً، ويقول:

أقسمت أن أوردها حرة — وقاحة تحت غلام وقاح

إما فتىً نال المنىٰ فاشتفىٰ — أو فارس زار الردىٰ فاستراح

فإذا جهده وعرقه وصبره وكفاحه من أجل إمارة ينالها أياماً معدودات.

وهذا المتنبيء الشاعر ينوه بهمته وإصراره:

سأطلب حقّي بالقنا ومشايخ   كأنهم من طول ما التثموا مردُ

فإذا حقُّه المزعوم ولاية قرية أو منصب بجانب ملك.

وهذا أبومسلم الخراساني كان لا ينام الليل من بعد همّته وجبروت قلبه وبعد أمله، فيحصل على علوٍّ قصير في الدنيا ثم يقتل بخنجر مخدومه.

ذلك مبلغهم من العلم، ولكن أين أولئك النجوم الزاهرة، والبدور الباهرة، الذين طلبوا غايات الغايات في الكرامة، يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً؟! فهذا أبوبكر الصديق يسبق المجاهدين بجهاده، ويتفوق على المتصدقين بماله، ويتعب الخلفاء بعده بِعَدْلِهِ، ويستولي على مكارم الأخلاق ومعالي الأمور وأفعال البر، ليدعىٰ يوم القيامة من أبواب الجنة الثمانية.

وهذا عمر الفاروق يضرب أعلى مثالٍ في جودة الصبر وجلال الخشية والإعراض عن الفاني والعدل في الحكم، ثم يسأل ربَّه شهادة في سبيله وميتةً في بلد رسوله ﷺ، فيعطيه ربه ما تمناه.

وعثمان ينفق ماله، ويُظمِىءُ نهاره، ويُسهر ليله، ثم يضرّج مصحفه بدمه، فيالله ما أحسنها من ضجعة.

ودونك علي، بسيفه في كل غزوة، ينافح عن الملّة، ويذبُّ عن الدين، ثم يصدف عن الدنيا صدوف من تاقت نفسه لموعود ربه ثم يذبح في المسجد على طهر وصلاح ونقاء.

فائـــــــدة

من تدبر القرآن انشرح صدره وذهب غمه وهمه وحزنه، لأن القرآن يدعوك إلى حسن الظن بربك، والرجاء في فضله وكرمه، وانتظار فرجه ومغفرته ورحمته، وأنا أنصح المطالعين لشعر الشعراء أن يتنبهوا، فإن الشعراء يرققون القلب ويضعفونه بذكر الفراق والغرام والهيام والعشق والهجر والوصل والعذاب والغربة والآهات فيبقى قلب المطالع خائفاً قلقاً محزوناً مهموماً، لأن هؤلاء الشعراء في كل واد يهيمون وهم مع الخيال، أما القرآن فهو مع الواقع يدعوك للتفاؤل والثقة بالله والرضا بقضاءه وقدره، وطرد الحزن والخوف، فنصيحتي لكل عاقل أن يقبل على القرآن.

فائـــــــدة

تدبر ما تقرأ من القرآن والأذكار والأدعية والحديث، فلا خير في قراءة إلا بتدبر، وإذا قرأت بغفلة وسهو وشرورد فعاقب نفسك بإعادة ما قرأت وتكرار ما غفلت عن تدبره، ليقع المقروء موقعه من القلب، ويستقر في سويداءه، فلا خيرفي قراءة الذهول والاعراض والله المستعان.

وصيـــــة محـــــب

أوصيك بالتركيز والاهتمام فهو روح العمل، فصلاة لا تركيز فيها ولا اهتمام ناقصة، وذكر لا إقبال فيه ولا تزمل تمتمة، وقراءة لا تأمل فيها تضييع للوقت فإن أردت أن تحفظ وقتك وتجيد عملك فأجمع طاقتك وصب اهتمامك وركِّز قدراتك على هذا العمل، لتجد الثمار اليانعة (**إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه**).

خاطـــــــــــرة

لا تيأس من عودة قلبك القاسي إلى الخشوع فعسى أن يلين مع مداومة الذكر، وأن تصبِّحه وتمسِّيه بالأوراد، وأن تشن عليه غارات من الدعاء في ميدان السحر، وساعة الإستجابة يوم الجمعة، وبين الأذانين وفي السجود وأدبار الصلوات، فأدمن اللهج بالاسم الأعظم، وابتهل إلى مولاك في إصلاح قلبك، واستعن بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة مع تدبر القرآن العظيم، فلعل آية منه تقع موقعها فتداوي جراح هذا القلب، وتخرج صدأه، وتزيل علته وتذهب عاهته.

الهم هم واحد

عند الحاكم في المستدرك: «**من جعل الهم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبته الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك**». والمعنى جمع الهم كله أوله وآخره لطاعة الله والتهيؤ للقاءه، فإن هذا أعظم الهموم، وهو القضية الكبرى، والقضية العظمى، ومن أجل هذا الأمر بعثت الرسل، ونزلت الكتب، وقام سوق الجنة والنار، ونصب الصراط، ووضع الميزان، فمن بصره الله وأيقظ قلبه، جمع شأنه، وجعل تفكره في لقاء مولاه وخالقه، فإن هذا الشأن يشغل عن ما سواه ويلهي عن غيره، بل كلما زادت الحياة في القلب زاد الهم والإعداد، ولاتجد رجلاً فقيهاً في دينه، كاملاً في عقله إلا وقد جمع لبه في هذا الهم وحده، فلا يفكر ولا يعمل ولا يقوم ولا يقعد إلا والله عز في علاه أجل شيء لديه، وأعظم واجب مذكور عليه، فجوارحه في خدمة مولاه ولسانه يلهج بذكره وقلبه ينبض بشكره، وعينه تخرج مكنون الحب بدمع صادق، أمّا من وزّع همّه في شئون الدنيا فلا تسأل عن شأنه كم من القلق والاضطراب والحيرة والحسرة والضياع في غير نفع، فهو في كدر متواصل، وحزن مستمر؛ لأن الدنيا حبيبها مقتول، وعاشقها معلول، وخادمها مخذول، فنسأل الله أن يجمع همنا لمرضاته وأن يجعل حياتنا لطاعته، وأعمارنا لعبادته.

حسن الطلب

طالب العلم بحاجة إلى همة عالية، وشهوة في الطلب عارمة، وحرص على الفائدة وسوف ينمو علمه مادامت همته متأججة، وسوف يغزر فهمه مادامت رغبته في العلم ملحة، فهو دائماً في صعود لا يرضى بالدون، كلما عرف شيئاً تاق إلى ما فوقه، لأن العلم لا نهاية له. ومن ظن أنه علم فقد جهل، ومن فضل العلم أنه يعرف به الجهل، ومن رذالة الجهل أنه لا يعرف به العلم. فياطالب العلم اللهَ اللهَ في الحرص والنهم الشديد فربما نجوت بحرف تعلمته. وطالب العلم يحتاج إلى صبر عظيم على الطلب، فلا تثنيه ظروف الحياة من شدة فقر أو طغيان غنى أو هجوم مرض أو موت حبيب، لأن له غاية يسعى من أجلها، وقد عاهد نفسه على بلوغها، فإن تأخر أو تقهقر فقد نكث عهده، وخسر صفقته.

ويصبر طالب العلم على تغير الزمان من حر صيف إلى برد شتاء إلى لهو ربيع إلى ذيول الخريف، فهو على حالة واحدة، يعكف على كتابه ويعيد درسه، ويحفظ أوراده، وينمي مواهبه، ويصبر على تقلبات النفس من هم جاثم، وحزن جارف، وفرح مطرب، وأمانٍ لاهية، ووعود كاذبة، فكلما جمحت نفسه عن الطلب سايسها حتى تعود إلى رشدها.

ومن أحسن صفات طالب العلم الزهد في الدنيا، والقناعة بما

عنده ولو قل، والاقتصاد في المعيشة، لأن الذهاب وراء طمع النفس لا حد له، فيضيع العمر ويذهب الحياء ويسيل ماء الوجه وتنتهي الكرامة، ومن قر عينا بعيشه نفعه تاركاً الفضول، يعيش في بساطة، ويرضى بما قسم له، وهذا دأب السلف، ونهج الأبرار، ومسلك صفوة العباد. والله الموفق.

احذرك سوف

أعرف كثيراً من الناس يحبون كلمة: سوف. فدائماً آمالهم بعيدة، وكلما طلبت منهم شيئاً أو أرشدتهم لعمل، أو دعوتهم لفضل أجابوك بسوف. وهذه كلمة الخذلان والندم والخسارة. تقول له أبدأ في حفظ القرآن، فيقول لك: سوف أحفظه، ولكن عندي بعض الأمور سوف أنهيها. كأن الدهر ضمن له الدوام، وكأن الليالي أعطته عهداً بالبقاء.

فيامن أشغلته سوف عن العمل، وعلقته بالأمل، أنذرك وأحذرك من هذه الكلمة، فإنها أنشودة الفاشلين، وشعار الخاسرين، ونغمة الكسالى، وعذر البطالين. ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾.

قارورة بقراط

نقل الماوردي أن بقراط الطبيب قال: إذا فاتك الأمر المحزن فلا

تأسف عليه، واجعله كزجاجة انكسرت ولن تعود سليمة، والأمر الماضي قد فرغ منه. وفي القرآن ـ أن تذكّر الأمر الماضي يورث الأسى والحسرة والحزن ـ قال تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ ﴾ وقال: ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ ﴾ وقال: ﴿ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْۗ ﴾. هذه ثمرات مرة للعيش تحت شبح الماضي. قال الشاعر:

فإذا اقتنيت من الزجاجة قابلا للكسر فانكسرت فلاتك مكمداً

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

مما يشرح الصدر ويزيح سحب الهم والغم؛ السفر في الديار وقطع القفار، والتقلب في الأرض الواسعة، والنظر في كتاب الكون المفتوح لتشاهد أقلام القدرة وهي تكتب على صفحات الوجود آيات الجمال، لترى **حدائق ذات بهجة**، ورياضاً أنيقة وجنات ألفافا، أُخرجْ من بيتك وتأمل ما حولك وما بين يديك وما خلفك، اصعد الجبال، إهبط الأودية، تسلّق الأشجار، عب من الماء النمير، ضَعْ أنفك على أغصان الياسمين، حينها تجد روحك حرة طليقة، كالطائر الغرّيد تسبح في فضاء السعادة، أُخرج من بيتك، ألق الغطاء الأسود عن عينيك، ثم سر في فجاج الله الواسعة ذاكراً مسبحاً.

إن الإنزواء في الغرفة الضيقة مع الفراغ القاتل طريق ناجح للانتحار، وليست غرفتك هي العالم ولست أنت كل الناس، فلم

الاستسلام أمام كتائب الأحزان، ألا فاهتفت ببصرك وسمعك وقلبك: انفروا خفافاً وثقالاً، تعال لتقرأ القرآن هنا بين الجداول والخمائل بين الطيور وهي تتلو خطب الحب، وبين الماء وهو يروي قصة وصوله من التلِّ.

أيهـا الشـاكـي ومـا بـك داء كن جميلاً ترىٰ الوجود جميلاً
أترى الشوك في الورود وتعمىٰ أن تـرىٰ فـوقـه النـدىٰ إكليـلاً

إن الترحال في مسارب الأرض متعة يوصي بها الأطباء لمن ثقلت عليه نفسه، وأظلمت عليه غرفته الضيقة، فهيَّا بنا نسافر لنسعد ونفرح ونفكر ونتدبّر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾.

فائــــــــدة

يقول أبومعاذ الرازي، الواعظ الشهير: في الأثر: «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها**». قال: ياعجباً ممن لا يرى محسناً إلا الله كيف لا يحبه. وهذا من أحسن الكلام. والمعنى: أنه ليس هناك محسن حقيقة ولا منعم أصلاً إلا الله الواحد الأحد، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فإن الله ينعم على العبد تفضلاً وكرماً وجوداً لا لمصلحة من العبد مرجوة ولا لرهبة منه مخوفة. وفي الحديث الصحيح: «**ياعبادي: إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني، ياعبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب**

رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ياعبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً».

فائـــــــدة

قال أبومعاذ الرازي وهو يعظ الناس ويبكي: اللهم إن قلوبنا الآن مثل قلوب سحرة فرعون يوم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأعراف: ١٢١]، فاغفر لنا. وهذا كلام جليل، وتوسل إلى الله نبيل، لأن المعنى: أننا ولو كنا مذنبين مقصرين مخطئين فإننا نؤمن بأن لا إله إلا أنت. وهذا هو إيمان سحرة فرعون والذي غُفِرَ لهم به.

وقال بعضهم في دعائه: اللهم إني فعلت أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، واجتنبت أبغض الأشياء إليك وهو الشرك، اللهم فاغفر لي ما سوى ذلك. وهذا توسل بالعمل الصالح، كتوسل أهل الغار الذين أطبقت عليهم الصخرة، فأحدهم توسل ببر والديه، والثاني إعراضه عن الزنا، والثالث بحفظه لوديعة الأجير.

فائـــــــدة

من أحب الأعمال إلى الله عز وجل انكسار القلب وذلته وفقره وحاجته إلى مولاه وخالقه وربه، ولذلك يبتلي الله بعضهم بالذنوب

لينكسر عجبها وكبرها وتزول أنفتها، ويسلس قيادها لمولاها، وهذه من الحكم العظيمة في الذنوب، وهذا سر كون التائب يفرح الله بتوبته، فإن التائب محزون الفواء نادم منكسر أواه منيب. وفي الحديث الصحيح: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**». ولذلك اجتبى الله آدم وداود بعد الذنب، ورفع درجتهما لما تابا، فكم من ذنب أدخل صاحبه الجنة، وكم من طاعة أدخلت صاحبها النار، كما قال بعض السلف. وهذا معناه: إن صاحب الذنب تاب وندم وأقلع وانكسر قلبه لربه.

وفي مسند أحمد: «**لا يقضي الله قضاءه للعبد إلا كان خيراً له**».

قال ابن تيمية شيخ الإسلام: حتى قضاء المعصية على العبد إذا ندم وتاب واستغفر وأناب كانت تلك المعصية في حقه خيراً. قلت: يدخل هذا في عموم قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾. وعند مسلم: «**عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن**».

فائـــــــــدة

أقرب الطرق إليه سبحانه العبودية له. يقول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص: ٢٤]﴾. ويقول في

دعاء له مأثور: «اللهم لك الحمد، وأنت المستعان وبك المستغاث، وإليك المشتكى، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك». ومضمون هذا الدعاء عبودية ومسكنة وإذعان، وعن رسولنا صلى ﷺ أنه كان يدعو ويقول: «**اللهم إني أدعوك دعاء الخائف الضرير، دعاء من ذلت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه**» وهذا هو عين الفقر والتذلل.

وأبعد الطرق إليه سبحانه التكبر والتجبر والاستغناء عنه، يقول سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ وقال سبحانه: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ وقال سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وقال سبحانه: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾. فكلما ذللت له واذعنت وتواضعت وخضعت وأنبت وافتقرت كلما رفعك وأعزك وأعلاك وأكرمك واجتباك وتولاك وحماك فسبحانه لا إله إلا هو.

فائـــــــــدة

محبة الله عز وجل تتفاضل على حسب إيمان العبد وتصديقه وعبوديته فمن مقل ومستكثر، ولذلك أثبت ﷺ أصل المحبة لشارب الخمر لما جلدوه وسبه بعض الصحابة، فقال: «**لا تسبوه، أو لا تلعنوه، فما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**» وقرأت عن بعض علماء المعتزلة مع ما عنده من مخالفة السُّنة ينشد:

وحبك لو أدخلتني النار قلت للـــــذين بها قد كنت ممن يحبه

وغاية المحبة هي محبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لربهم وهي تقديم ما يرضيه وما يحبه على كل هوى للنفس.

ومن ادعى محبة الله فعليه الدليل، لأن البينة على المدعي. ومن البينات اتباع رسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١] ومنها القيام بالفرائض والتزود بالنوافل، وفي الحديث القدسي: **«وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»**. الحديث.

فائـــــدة

أعظمُ كتاب يتكلم عن أسمائه سبحانه وصفاته هو **«القرآن العظيم»** فإن من قرأه بفهم عرف ربه حق المعرفة بسهولة ويسر. حتى قال بعض العلماء: قرأنا الكتب، وطالعنا المصنفات وروينا الأمثال، وسمعنا الأخبار، فماعرفنا أحسن من كتاب الله، ولا ذقنا أحلى منه. حتى إنني رأيت في سيرة بعض الزهاد أنه سأل شاباً: هل تحفظ القرآن؟ قال: لا. قال: فكيف تتغنى؟ وكيف تترنم؟ وكيف تعرف ربك؟

اللهم أذقنا حلاوة معرفتك، ولذة مناجاتك، ومذاق عبوديتك، وروح طاعتك.

فائـــــدة

الله واحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتجد لفظ الواحد الأحد متميز في القرآن ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾، ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. وكذلك يرد نفي غير الإله الواحد الأحد سبحانه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

فالتجرد والتفرد هو سر التوحيد، فلا شبيه له سبحانه ولا مثيل ولا شريك ولا ضد ولا ند، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا، بل واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد، فأسماؤه سبحانه لا تشبه الأسماء. وصفاته لا تشبه الصفات، وأفعاله لا تشبه الأفعال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾.

فائـــــــدة

الله جل في علاه إذا أذنبت فاستغفرت غفر لك، وإذا شكرته زادك، وإذا سألته أعطاك، وإذا أخطأت سترك.

وإذا عدت إليه قبلك، وإذا تبت فرح بتوبتك، وإذا ذكرته ذكرك، وإذا ابلاك محّصك، وإذا أصابك طهرك.

فواجب عليك إخلاص العمل له، وصدق السر معه، ولزوم باب العبودية والانطراح على عتبة الذل له، ومناشدته آناء الليل وأطراف النهار، واللهج بذكره ودوام شكره والاعتراف بالتقصير معه، والنعمة منه وحفظ حدوده، والقيام بحقوقه، والتشرف بخدمته، والإنضواء تحت منشور ولايته، والانسلاخ من كل ما يسخطه، والتبرؤ من الحول والقوة إلا به، والاعتزاز بنسبة العبودية إليه، والحب والبغض فيه، والتوكل عليه، وتفويض الأمر إليه، وإدمان اللهج بتوحيـــده ومدائحـــه وحمده، وانتظار الفرج منه، وحسن الظن به.

ربنا أفرغ علينا صبراً

الصبر على طول الطريق ومشقة السير، وسرور النفس، من صفات الصالحين.

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولن يحصل خير في العاجلة والآجلة إلاَّ بالصبر ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ إذا دعتك النفس إلى طيب الكرىٰ، ولذة النعاس وراحة الفراش فاصبر على مجاهدة النوم ومغالبة الليل، فقد لاح الصبح، وانفجر الفجر، ودلف الضوء على التلال.

إذا دعاك جليس عاذل وصاحب مماطل إلى ترك الاشتغال بالعلم، وهجر الدفاتر، فاصبر على المصابرة، واعكف على المرابطة، وسوف يبين لك الربح من الخسران إذا وضع الميزان، وبان النقص من الرجحان.

إنما قعد من قعد عن المكارم، لأن نفسه مثقلة بديون الأرض، وعلائق التراب، وحبّ العيش، وطول الأمل وسكارى الهوىٰ:

استفـق يـانـاعـسَ الطـرف فقـد فاتك الركب وقد ضاق الزمن

أغلى دقائق العمر

اعلم أن أغلى دقائق العمر هي دقائق الليل، فإذا تهجدت فأطل صلاتك، وأكثر ذكر مولاك، وتبتل إليه تبتيلاً، وأحمده على أن أيقظك وأنام غيرك.

يـاليلـة الجـزع هـلا عـدت ثـانيـة سقى زمانك هطال من الديم



الحياة حياة القلب

كان معي زميل لي يدعى محمد سراج الرحمن من باكستان، ونحن في كلية أصول الدين، وكان نحيفاً هزيلاً صموتاً مهذباً متواضعاً رافقته في بعض الأسفار فكان إذا انتصف الليل قام كأنه سارية يصلي حتى الفجر، فيطيل القيام والركوع والسجود والدعاء والبكاء والتلاوة فتعجبت كل العجب، لأنه لحم على عظم، وغير بدين «سمين» لا يقوم إلا مع الفجر، فعلمت أن الحياة حياة القلب.

لن أنساه ما دمت حياً

درس معي في الكلية طالب من نيجيريا اسمه عبدالرشيد، كان رياضياً في بلاده، وأوتي قوة في الجسم فصرفها كلها في العبادة، ما رأيت أعبد منه، يواصل قيام الليل، ويطيل التهجد، ويكثر الذكر، ويذرف الدمع من الخشية، لن أنساه مادمت حياً، كان بيني وبينه ود وحب صادق، جمعني الله به في الجنة.

التوحيد والاستغفار

يقرن كثيراً في القرآن بين التوحيد والاستغفار لأن فيهما نفي النقص عن الخالق، والاعتذار من نقص المخلوق، فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ فيه الاعتراف والإقرار بوحدانية الله عز وجل وتنزيهه عن النقائص والعيوب، ثم الاعتراف بظلم العبد نفسه بالخطايا والذنوب، والاستغفار طلب وإنما يحصل الطلب بين يدي الثناء والمدح، وأعظم مطلوب هو الله عز وجل، وأعظم ما يمدح به التوحيد الخالص، وذكر وحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وأفعاله، فحسن تقديم هذا الثناء العظيم. وقد ورد في الحديث: أفضل الدعاء: لا إله إلا الله. فسئل بعضهم: كيف جعلها دعاءً، وهي إثبات وتقرير؟ فقال: إن من أثنى عليك فقد تعرض لك بالسؤال كما قال أمية ابن أبي الصلت:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حباؤك إن شيمتك الحباء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضه الثناء

وقال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، وقدم التوحيد الذي هو أصل الأصول، وأمر بالاستغفار الذي هو سبب لحصول المحبوب، ودفع المرهوب، فمن عرف سرّ هاتين الكلمتين، لا إله إلا الله واستغفر الله أحبهما وأكثر منهما، وتعلق بهما، وأدمن تكرارهما، وتعلم أسرارهما، وتفقه

في معانيهما، وقضى وقته بين اعتراف بالجميل وإقرار بالمعروف لصاحبه تبارك وتعالى، وثناء عليه، وإيمان بوحدانيته، وبين تبرؤ من الحـول والقـوة، والاعتـراف بظلـم النفـس وقلـة البضـاعـة، ورداءة المحصول، وإتهام النية، والانكسار عند تذكر الخطيئة، ومقت الذات غاية المقت، ولوم النفس غاية اللوم على ما فرطت في جنب الله واكثرت من مخالفة أوامر الله، وعندها يحصل عفو الله ومعرفته ورضوانه، فما هطلت سحائب الرضوان إلا برضا الرحمن، والانكسار بين يديه، وتفويض الأمر إليه، والتوكل عليه.

فوجب على العبد غاية الوجوب تجريد التوحيد، والاستغفار من الخطيئة، ومن تدبر النصوص وجد اقتران التوحيد بالتوبة والاستغفار، ولذلك ورد في حديث عند أبي يعلى مرفوعاً: «**يقول الشيطان: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار**». فما أسعد حال من داوم على لا إله إلا الله واستغفر الله، فغاية الكمال لرب العزة والجلال إفراده بالوحدانية. وغاية كمال العبد التبرؤ من الحول والقوة، والتطهر من الذنوب والسيئات.

إياك والرفاهية

عند النسائي وأبي داود أنه ﷺ كان ينهى عن كثير من الإرفاه. والإرفاه هو الإكثار من الزينة والتجمل، وتهيأة الإنسان كل وقت، والاغراق في التنعم. والرفاهية مفسدة لمعاني العصامية هادمة لكيان

الرجولة، ناقضة للحزم، داعية للمعصية، مضيعة للمال والعمر، وفيها من اشغال النفس بالتوافه وحجب العقل عن المهمات. فالعاقل من اقتصد في أموره، ومال إلى البساطة فإنه يريح النفس، ويتفرغ لطاعة مولاه وإصلاح أموره، وبناء حياته بناءً صحيحاً. وأكثر ما أفسد الناس الرفاهية فإنها عدو لدود للقيم، ومرض خطير فتاك بالأخلاق.

وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**البذاذة من الإيمان**» وهي التقشف والاقتصاد، والبعد عن الإنهماك في رعونة النفس من التصنع والتزين والتفنن في المأكول والملبوس ونحوها.

لابد من صقال السيف

لا تخش الشدائد فإنها غسل لك من الذنوب، وحط للخطايا وهي كالصقل للسيف، فإن الذي يعيش الشدائد تجد عنده من حياة النفس وقوة العزيمة وصرامة الهم في الغالب ما ليس عند المنعم المرفه الذي خمدت جذوة نفسه، وبردت روحه ونامت عزائمه، فهو مبنج بالنعيم، سكران بالراحة، وانظر إلى ما مر بأعداء الله من الرفاهية والتنعيم في الدنيا، والتمتع بلذائذها كفرعون وهامان والنمرود وأبي لهب وأبي جهل وأمية.

وانظر إلى أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام كم من مصيبة أصابتهم، وكم من شدة ألمت بهم، والحر ميزان، وأنت تدرك هذا لكنك تتناساه أحياناً.

«اللهم بارك لأمتي في بكورها»

أخذ النووي من هذا الحديث أن أفضل وقت وأبركه لعمل الصالحات أول النهار، كمن لديه ورد من الذكر، أو حزب من القرآن، وحفظ شيء من العلم، أو التأليف، أو طلب الرزق، أو السفر، أو العمل، أو الفلاحة، ووجوه الكسب. وهذا معلوم بالتجربة، ثابت بالاستقراء، محبذ بالشرع، محبب إلى النفس. فإن البكور انطلاق، فيه يتنفس الفجر، ويزول الهم، ويهب النسيم، ويبزغ النور، وتغدوا الطيور، وتتفتح الزهور، ويشدو الحمام، وتعود الحياة، وتهب الحركة.

فمن أراد إحراز تقدم في علم أو عمل أو كسب أو تجارة أو صناعة أو تأليف فالصباح الصباح، لأن الفكر مستجمع، والخاطر مرتاح والنفس نشيطة، والجسم مهيأ. وساعة بعد الفجر أفضل وأبرك وأسعد من ساعات في غيره، ولو لم يحصل للعامل إلا بركة دعاء الرسول ﷺ بقوله: «**بارك الله لأمتي في بكورها**» لكفى بها خيراً وفضلاً وبركة.

الأقربون أولى

السعي على العائلة والأطفال أفضل من نافلة العبادة، لأنهم أمانة في العنق، وكفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول، فحاول أن تبحث لهم عن لقمة الرزق فإنك في جهاد، ولا تشغلك الشواغل عنهم فإنهم كالطير، واعطهم من وقتك في التعليم والتربية، والقيام بالحقوق، والأقربون أولى بالمعروف.

وقفات تدبر

قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ الآية.

كلمات الله الشرعية الكونية عادلة صادقة، عادلة في الأحكام صادقة في الأخبار. وهاتان ميزتان لكلام الباري تقدس اسمه، فكلامه منزه في الحكم عن الظلم، وفي الخبر عن الكذب. وأساس فساد الكلام في العالم إنما هو من هاتين الخصلتين، ظلم الحكم في الكلام عند الأقضية، وكذب الأخبار في نقل المرويات. وأساس صلاح الكلام في الكون من خلتين جميلتين وهي: العدل في الحكم، والصدق في الخبر.

وإنما عاش في الدنيا من عاش بطريقين: طريق الحكم وطريق

الخبر. فالحكم الظالم سياسة الطواغيت الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، وهم أهل الجور والصادين عن سبيل الله بالسوط والسيف. والخبر الكاذب طريق علماء السوء الذين يكذبون على الله في فتاويهم، ويفترون على ربهم في أقوالهم كما فعل الأحبار والرهبان ومن شابههم من علماء السوء، فصار الفساد في نظام الكون من أهل الجور وعلماء السوء.

فكان شرع الله وحملة هذا الشرع من العلماء والقضاة والحكام أساس صلاح العباد، وسعادة البلاد، لأنهم صدقوا وعدلوا، ولا تتم سعادة الإنسان إلا بالصدق والعدل.

سخـــــروف

سخروف ـ المفكر الروسي ـ ألف مذكرة يثبت للملاحدة أن للكون إله، فغضبوا عليه، ونفاه برجنيف إلى جزيرة سيبريا. ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

وطالعت سيرة غاندي. الزعيم الهندي، فإذا هو يقول: إذا اشتدت عليّ الأزمات دعوت الإله فأجد التأييد، وأنظر أحياناً في الكتاب المقدس. قلت: هذا الضال يقول هذا الكلام على مذهب المشركين الذين يدعون الله في الشدائد ويعرفونه في الأزمات، فكيف لو ذاق طعم الإسلام.

العلاج الناجع

سكن الكاتب الأمريكي ـ مؤلف كتاب: رياح الإسلام تهب على الغرب. سكن مع المسلمين البدو في المغرب، فكانت إذا أصابتهم فاجعة أو مصيبة قالوا: قضاء وقدر، فقال: هذا أعظم علاج في الحياة ضد القلق والهم والحزن. ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

كيف لو كان مسلماً

طالعت مقتطفات من كتاب: (الإيمان الحي) لجيمي كارتر، الرئيس الأمريكي الأسبق، يقول فيه: إن أكثر الفترات التي أشعر فيها بالقرب من الله هي الأربع السنوات التي حكمت فيها أمريكا، لأنها سنوات المصاعب. قلت: هذا وهو نصراني، فكيف لو كان مسلماً، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

فما لهم لا يؤمنون

قرأت المقابلة التي أجريت مع ولي عهد بريطانيا تشارلز، فإذا هو يثني على الإسلام، ويطالب الغرب أن يفكروا بعقولهم في الدين الإسلامي. وهي كلمة عظيمة صادقة، فإن كل إنسان يحترم عقله لابد

أن يقبل هذا الدين ويعتنقه، لأنه دين الفطرة التي فطر الناس عليها، فهل من عاقل رشيد يفكر بعقله، فما لهم لا يؤمنون؟!

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾

هذه الآية من أعظم الرجاء للمؤمنين في رحمة الله عز وجل، فمادام أنه وعد الكفار إذا رجعوا إليه بالمغفرة، فكيف بالمسلم، لأن الكافر في حال كفره أعظم عدو لله وأشد محارب له سبحانه، ومع ذلك وعده بالمغفرة إذا انتهى من الذنب، وذنبه هذا ليس كذنب المسلم، بل ذنب الكفر بالله والتكذيب لرسله والإستهزاء بآياته ومحاربة أوليائه والصد عن سبيله، والاعراض عن دينه، ومع هذا كله وعده بمغفرة إذا أسلم وأناب. وفي الآية أن الإسلام يهدم ما قبله من الذنوب ويزيلها ويمحو أثرها مهما كانت ومهما عظمت، فلا أعظم ذنباً من تعفير الجبين للصنم، وتمريغ الجبهة للوثن، ومحادة الله عز وجل.

والمسلم يوم يقرأ هذه الآية يزداد تعلقه بالتوبة، ويعظم رجاؤه في ربه، ويحسن ظنه في مولاه، ولا يقعده سوء حاله عن التوبة، ولا كثرة ذنوبه عن الإنابة، لأن هذا يأس، وهو محرم على أهل الإيمان وهو قنوط منهي عنه على عباد الله. وإنما جعلت التوبة وحسنت ومدحت لتقدم ذنوب وجنايات، وإنما أحب الله التوابين لأنهم مع إدمانهم الخطايا وإلفهم السيئات كرهوا أنفسهم، وأطاعوا ربهم، وإنما عظم العفو منه لعظم الجناية، فإن الحليم إنما يُمدح على عظيم عفوه،

وإنما يجمل العفو إذا كبر الخطأ، وبقية العمر لا ثمن له، ففيه يرقع قميص العمل، ويغسل رداء العمر من أوضار الذنب، ويعاد بناء الصالحات، والذي هدمته أياد التسويف، وخربته معاول البطالة. فكم من ساعة أوجبت آلاف السنين في جوار رب العالمين، فما على من اقترف السيئات إلا دمعة في سحر، ومناجاة في خلوة مع تنكيس الرأس حياءً، وانكسار القلب إجلالاً، وقلق النفس حذراً. وإن تعاظمك ذنبك فاعلم أن النصارى قالوا في المتفرد بالكمال: ثالث ثلاثة. فقال لهم: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ﴾ وإذا كدت تقنط من رحمته فإن الطغاة الذين حرقوا المؤمنين بالنار عرضت عليهم التوبة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾.

فيامن ستر القبيح، وأظهر الجميل، وأعطى الكثير، ورضي بالقليل اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

الاعتراف بالاقتراف

من محاسن العبد المؤمن اعترافه لربه بذنبه، فقد مدح الله من اعترف فقال: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٢]وقد اعترف بالذنب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم. وفي صحيح مسلم أنه قال عليه الصلاة والسلام في دعاء الاستفتاح: «**اللهم إني ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً**».

فعليك بالاعتراف لربك بذنبك، فإن المقر بالخطأ حري أن يُتَجاوز عنه وأن يُسامح. اللهم فاغفر وتجاوز..

دع غداً حتى يأتي

يحفظ للصينيين كلمة نافعة في ترك توقع الحوادث والمصائب في المستقبل إذ قالوا: لا تعبر جسراً حتى تأتيه. والمعنى: أترك غداً بهمه وغمه حتى يأتي، فإنك إن أدركته أعانك الله عليه كما أعان على اليوم والأمس، وإن لم تدركه فكأنك استلفت همَّ المعدوم وعشت نكد المفقود. قال الشاعر:

إن ربـاً كفـاك مـا كـان بـالأمـس   سيكفيـك فـي غـدٍ مـا يكـون

وفي الحديث: «**إذا أصبحت فلا تنتظر المساء**» فكيف بمن ينتظر الغد وبعد الغد؟!

الوعــظ خطيــر

كثير من الناس يحب أن يعظ سواء عمل بما يقول أو لم يعمل، والوعظ له حقوق وآداب وله آفات، وكأن الواعظ الذي لا يعمل بوعظه يسب نفسه على رؤس الأشهاد، وكأنه يجمع حججاً عليه من الناس أمام الله غداً، ثم إن للوعظ آفات منها: التصنع للناس والتزين

للمخلوق، وطلب الشهرة، وحب الظهور، والتكالب على المدح، والفرح بكثرة الجمع، ونسيان الإخلاص، والتقصير في نوافل العبادة، ومناقضة القول للفعل، وكان كثير من السلف يخافون مغبة الوعظ، ويبكون على تقصيرهم، ويطلبون من يعظهم ويذكرهم بمولاهم، ويكفي قوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

في هذا دليل على وجوب الرضا بالمقسوم. والقناعة بما حصل من موهبة أو رزق، فإن من رضي بما عنده من نعم وشكر الله عليها ووجَّهها الوجهة الصحيحة نفعته نفعاً عظيماً، وكانت قوة له ومتاعاً إلى حين. ورأيت من قل حفظه من العلم ولكنه أظهر عليه صلاحاً وخشية واستقامة بخلاف قوم جمعوا حججاً كثيرة من النصوص وأكثروا الإطلاع، ولكنهم قصروا في العمل، وأخلوا بالتقوى فنزعت بركة العلم منهم، والمقصود أن يقنع العبد بما قسم الله له من صحة أو رزق أو ذكاء أو فهم، ولكن ليكن من الشاكرين لربه بقوله وفعله، حتى تكون هذه الموهبة كثيرة مباركة طيبة، فإنه لا قليل مع الإخلاص والتقوى والإستقامة ولا كثير مع المخالفة والرياء والإعراض.

وربما صحت الأجسام بالعلل

لا تكره من أمر الله شيئاً، فرب ضارة نافعة ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ ﴾ رب مرض خير لك من صحة، عرفك ربك وحط عنك خطيئة، ورفعك درجة، رب فقر خير لك من غنى، تواضعت فيه وانكسرت لخالقك وأقبلت على مولاك، رب سجن خير لك من سكنى قصر، اعتزلت فيه الشر، وسلمت من الإثم، واعتكفت على عبادة ربك، وأصلحت شأنك، رب موت ولد خير من حياته احتسبته عند الله، وأجرت علي المصاب، وذكرك الرحيل ولو عاش لربما عقك أو عصى مولاه أو كان سبباً في شقائك. رب هم خير لك من سرور، منع النفس من الجموح، وردها عن الطغيان، ومنعها من المعصية. رب معصية خير من طاعة، تبت من المعصية فأوجبت لك خوفاً وندماً وحذراً وخشية وانكساراً وفقراً وذلة واستغفاراً وإنابة، فهي بهذا خير من طاعة أوجبت لك تيهاً وعجباً وكبراً وشموخاً وازدراء بالناس واحتقاراً لهم، قال بعض السلف: رب معصية أدخلت صاحبها الجنة، ورب طاعة أدخلته النار.

الفـــــــرح

انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات

البدنية. وورد النهي عنه والأمر به، وورد منه الممدوح ومنه المذموم. ويأتي في المعاني والمحسوسات. فنُهيَ عنه في قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ لأن هذا فرح أشر وبطر. وأمر به: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ لأنه فرح طاعة برضوان الله ومغفرته وهدايته. ومدح الفرح في قوله تعالى: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وهو فرح طاعة. وذمّه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾، ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾. وأمر الله عباده أن يفرحوا بفضله ورحمته فقال: تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾، ومن فرح بالهداية والعلم والطاعة وفعل الطاعات مدح، ومن فرح بالدنيا وزينتها ولهوها وغرورها ولعبها ذم.

وقال الشاعر:

ومن كملت فيه النهى لايسره نعيم ولا يرتاع للحدثان

فائــــــدة

لايزيد المؤمن عمره إلا خيراً، بهذا جاء الحديث، وكلما طال عمر المؤمن زادت معرفته واتسع تصوره عن الخالق جل في علاه، وكثرت عبادته، وعظمت تجربته، وعرف حقارة الدنيا، واطلع على كثير من أسرار الحياة ومقاصد الدنيا، وحكم الشريعة، وثاب من خطاياه، وراجع رشده، وكفَّر عن سيئاته بحسنات، فليفرح من بقي من

المؤمنين ولو يوماً واحداً على قيد الحياة، فإنه غنيمة.

فائـــــــدة

من رغب في مدح الناس وخاف من ذمهم عاش قلقاً ممزقاً مرعوباً ترضيه الكلمة وتغضبه، وترفعه المقولة وتخفضه، يراقب الناس في الحركات والسكنات ماذا قالوا؟! وماذا يريدون؟! وما هو رأيهم؟! وما الذي يعجبهم وماذا يغضبهم؟! وهذا نهاية الكدر وغاية الشقاء، لكن من راقب ربه وخاف من ذنبه أفلح وسعد، ففعل مراضي مولاه واجتنب مساخطه، فسار على رسم الشرع وعلى جادة الدليل، حينها ترتاح روحه وتأنس نفسه وتهدأ خواطره، ويطمئن قلبه، ويعيش حياته في أمن وأمان، ورضى رحمان ومراغمة شيطان، والله المستعان.

تجربـــــة

لاحظت في الناس إنصرافاً مذهلاً عن الدين، فغالبهم غارقون في مباهج الحياة ومفاتنها، أطالع في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام فما هي إلا الكرة والفن والسينما والمال والسياسة، انظر إلى الشارع فإذا هم يلهثون وراء رغباتهم، الأسواق تضج بكل جديد ومغري، المجالس حديثها عن المال والمتعة والهواية فما عليك إلا بخاصة نفسك، فقد كدت أصاب بإحباط شديد مما رأيت من

الانصراف والإعراض والصدود وأنا منهم واستغفر الله تعالى.

فبذلك فليفرحوا

لا تفرح بالمنصب.. فإن ضريبته جهد، وعرق، وتنازل، وعناء، ومداراة.

لا تفرح بالمال.. فحلاله حساب، وحرامه عقاب.

لا تفرح بالأصحاب.. فهم إخوان الرخاء، أصدقاء العلانية، أعداء السر.

لا تفرح بالدور ولا القصور.. فإنها مسكن أيام ودار أحلام، وطيف عابر، وسراب بقيعة.

لكن افرح بتمريغ الجبين على الطين لرب العالمين، واسكب الدموع في خشوع إذا تذكرت المآب والرجوع. وتلاوة القرآن، والتلذذ بكلام الرحمن، والمسارعة للصف الأول في الوقت الأول. الشبع والسمن والقوة والجمال والمتعة والراحة.. متاع زائل، إذا لم تكن عوناً على الطاعة فهي أسباب للردى وطرق إلى الهلاك، وسلّم إلى الهاوية.

الإمام أحمد بن حنبل

إمام السُّنة، وبطلُ المحنة، وعلمُ الزهاد، وصاحبُ الإسناد، أرادوا صرفه عنه السُّنة فما انصرف، لأن أحمد ممنوع من الصرف:

فـأثبـت فـي مستنقـع الهـول رجلـه وقال لها من دون اخمصك الحشرُ
تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضرُ

رد الأغلاط فضربوه بالسياط، أرسل على الجهيمة شهباً، ادخلوه الكير فخرج ذهباً، أرداوا إسكاته، فصاح الجمهور، حبسوه فطارت دعوته، قيدوه فانطلق علمه، حاصروه فانتشرت مناقبه.

أحمد بن حنبل، وأحمد بن أبي دؤاد، هذا في واد وذاك في واد، وسوف يتجلى الأمر يوم التناد.

أحمد سني المذهب، صافي المطلب، رفيع المنكب، سلفي نجب، وأحمدهم نجم بدعه، وصاحب وقعة، وبعيد رجعة.

الإمامة عند أحمد: قولٌ وعمل، سنةٌ وجماعة، مغالبة للهوى، كسرٌ للنفس، اقتداءٌ بمن سلف، احترامٌ للنص، اطراحٌ للفضول، محافظةٌ على الفرائض، تزود بالنوافل، ترقبٌ للأجل تقصر للأمل.

أحمد بن حنبل: عملٌ في هدوء، واجتهاد في سكون، ولموعٌ في تواضع، وأنفةٌ في سكينة، وإباءٌ في رقة، جلد شفاف يكسر عصا المعتصم، قلب لا يتوكل على المتوكل، همة لا تثق بالواثق.

فم عفيف يقول لا في قوة، نفس راضية، ترفض بيع الضمير، بلوهُ بأنفسهم في بيته فأرق عيونهم في بيوتهم، اقتحموا منزله فهز منزلتهم، طاف به الحُجّاب فما أجاب. هددوه فما أجاب قط، ولسان الحال يقول: أو للبط تهددين بالشط.

أحمد بن حنبل: ذوبوه بالنار فجمد، وخوفوه بالسيف فصمد، يكفيه أنه اضطهد وجلد، أرادت أن تغلبه الدنيا فدانت له بالغلبة.

أسكتته الحكمة فأنطقه العلم.

بعد من الدنيا فدنا من الآخرة، الحق حصانهُ، الحجة سلطانه، الصدق برهانه، السنَّة عنوانه، أفرحُ ما يكون إذا انتهى خبزه، وأغيظ ما يكون إذا كثر كنزه، الدنيا عنده ثوب وعمامة وحذاء ورغيف. والآخرة سجدة ودمعة وفكرة وعبرة.

هدَّدَه المعتصم فاعتصم بالله، وأوثقه الواثق وقال: وافق، فقال: معاذ الله.

وناداه المتوكل إلى المآكل فقال: كلا.

سمُن فهمه، فهزل جسمه، عظم ثوابه، فبليت ثيابه، رثَّ منزله، فحسنتُ منزلته. العلم عنده نصٌّ، والمقصد الله، والأمنية رضاه، والقدوة محمد، والزاد زهد: دعها فإنهامأمورة. أبصر محاسن الزهد في دفتر الحسن، وقرأ سعادة الأولياء في لوح سعيد، ولقط ذرات التقشف من صحن أبي ذر، وأيس من الناس كأوس. وثار على

الجهمية كما فعل الثوري، وعبس في وجوه المبتدعة كمثل ابن عباس.

أحمد من المحبرة إلى المقبرة، من المحنة إلى المنحة. من التعذيب إلى التهذيب.

أرادوا ليخفـوا قبـره عـن عـدوه فطيب ثناء القبر دلَّ على القبر

أحمد: الصباحُ ورد، الضحي نافلة، الظهر تفكر، العصرُ استغفار، المغرب إنابة، العشاء محاسبُة، الليل بكاءُ، الفجرُ ابتهال.

حمل علي رأسه الحطب، فصعد منبر المسجد وخطب، وحصد الزرع بالأجرة في اليمن، فزرع سنابل القبول في قلوب أهل السنن، سال عرق جهده في العراق، وشم عبير ذكره في الشام، وقرىء حديثهُ في القيروان، صنع تابوت الهمة في صنعاء عند عبدالرزاق، نهل الأثر من ذات المعين، فهو أوثق رجلٍ عند يحيى بن معين.

حماية ثغر الشريعة رباطه، دعاء السحر سياطه، جبهته في الليل بساطه، الصلاح حسامه، التكبير سهامه، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى.

نضال أحمد بقلم النقل في وجه شبهات العقل، للمحافظة على سمة الإسلام من سموم الأصنام، كسرات الخبز أغنته عن كنوز كسرى.

أحمد: قلة لفظ، وقوة حفظ، غزارة علم، وجود فهم، صحة عبادة. جلالة زهادة، الوحي عنده هو المعيار، والسنة لديه هي المسار، وشيوخ البدعة هم مسجد الضرار، بناؤهم على شفى جرف

هار.

إن صحح حديثاً لم يصبه علة، وإن أعلَّ رجلاً وافقه حفاظ الملة، انصدع به جدار الضلال، وأصاب الصداعُ الشيوخ الضلال.

أزعجه ذكر الموت فما ضحك، وأذهله قرب الفراق فما فرح، إذا رأى الأولياء انبسط، وإذا شاهد المبتدعة انقبض، عبس للغنى وتبسم للفقر.

إن حضر غاب الجهل وأصحابه، وإن غاب حضر الزيغ وأربابه، كنزه وقته، هيبته صمته، جد في الآخرة فهزل بدنه، واستراح من الدنيا فقوي قلبه.

أجمل منظر لديه المحابر السود، والعمائم البيض، عاد المجد للملة بأحمد، فعاد النصر لحملتها والعودُ أحمدُ، سكت في الرخاء، فتكلَّم الجبناء، تكلم في الشدة فجل منه العظماء. سرُّ أصراره، الرفض، وعظمة رفضه الإصرار لغز إنجازه الإيجاز، وحل حيلته أكل الحلال، أصر على السنة، ورفض المساومة، وأجاد المهادنة، وانتصر في المقاومة. ورفض الرشوة فاستحق الوسام.

احتر بالغيرة فتمدد علمه، وبرد بالصبر فانكمش نهمه، هجر الشهرة فطار اسمه. خفق قلبه للآخرة فسطع نجمه. بشر بشراً بالشر، وتجهم في وجه جهم، وهزَّ بالآيات ابن الزيات.

جلدوه فدعا لهم، وأعطوه فاستعاذ منهم، وحبسوه فسامحهم.

ضحكوا له فبكى، سخروا منه فضحك، اقتربوا فابتعد، قاموا فقعد، دنا بالحكمة فشردوا بالبدعة، حبسوه حياً، وحملوه على الأكتاف ميتاً.

لا طفـونـي هـددتهـم هـددونـي بـالمنـايـا لا طفـت حتـى أحسـا
اركبـونـي نـزلـت اركـب عـزمـي انزلوني ركبت في الحق نفساً

قال نعم ثلاثاً. وقال لا ثلاثاً.

قالوا له: ألزم بيتك، قال: نعم،

وقالوا: واعفُ عن من ظلمك، قال: نعم.

قالوا: وسامح من ضربك، قال: نعم.

وقالوا له: وافقهم فيما قالوا، قال: لا.

قالوا: فاخرج عليهم، قال: لا.

قالوا: فاقبل اعطياتهم قال: لا.

هو بدرُ التمام، وعلم الأعلام، ومسك الختام، والرجلُ إمام، والسلام.

* * * *

كيف تواجه النقد الآثم

الرقعاء السخفاء سبّوا الخالق الرازق جل في علاه، وشتموا الواحد الأحد لا إله إلا هو، فماذا أتوقع أنا وأنت ونحن أهل الحيف والخطأ، إنك سوف تواجه في حياتك حرباً ضروساً لا هوادة فيها من النقد الآثم المر، ومن التحطيم المدروس المقصود، ومن الإهانة المتعمدة مادام أنك تعطي وتبني وتؤثر وتسطع وتلمع، ولن يسكت هؤلاء عنك حتى تتخذ نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتفرَّ من هؤلاء، أما وأنت بين أظهرهم فانتظر منهم ما يسوؤك ويُبْكِي عينك، ويدمي مقلتك، ويقض مضجعك.

حســــدوا الفتــــى إذا لــــم ينــــالــــوا سعيــــه

فــــالنــــاس أعــــداءٌ لــــه وخصــــوم

إن الجالس على الأرض لا يسقط، والناس لا يرفسون كلباً ميتاً، لكنهم يغضبون عليك لأنك فقتهم صلاحاً، أو علماً، أوأدباً، أو مالاً، فأنت عندهم مذنب لا توبة لك حتى تترك مواهبك ونعم الله عليك، وتنخلع من كل صفات الحمد، وتنسلخ من كل معاني النبل، وتبقى بليداً غبياً، صفراً محطماً، مكدوداً، هذا ما يريدون بالضبط!!

إذاً فاصمد لكلام هؤلاء ونقدهم وتشويههم وتحقيرهم «أثبت أحد»!، وكن كالصخرة الصامتة المهيبة تتكسر عليهاحبات البرد لتثبت

وجودها وقدرتها على البقاء. إنك إن أصغيت لكلام هؤلاء وتفاعلت به حققت أمنيتهم الغالية في تعكير حياتك وتكدير عمرك، ألا فاصفح الصفح الجميل، ألا فأعرض عنهم ولا تك في ضيق مما يمكرون. إن نقدهم السخيف ترجمة محترمة لك، وبقدر وزنك يكون النقد الآثم المفتعل.

إنك لن تستطيع أن تغلق أفواه هؤلاء ولن تستطيع أن تعتقل ألسنتهم لكنك تستطيع أن تدفن نقدهم وتجنيهم بتجافيك لهم، وإهمالك لشأنهم، وإطراحك لأقوالهم ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾.

بل تستطيع أن تصب في أفواههم الخردل بزيادة فضائلك وتربية محاسنك وتقويم إعوجاجك.

إن كنت تريد أن تكون مقبولاً عند الجميع محبوباً لدى الكل سليماً من العيوب عند العالم فقد طلبت مستحيلاً وأملت أملاً بعيداً.

قال حاتم:

وكلمة حاسدٍ من غير جرم سمعتُ فقلت مر فانفذيني

وعابوها عليَّ ولم تعبني ولم يند لها أبداً جبيني

* * * *

اصنع من الليمون شراباً حلواً

الذكي الأريب يحوّل الخسائر إلى أرباح، والجاهل الرعديد يجعل المصيبة مصيبتين.

طُرد الرسول ﷺ من مكة فأقام في المدينة، دولة ملأت سمع التاريخ وبصره.

سُجن أحمد بن حنبل وجلد، فصار إمام السنة، وحُبس ابن تيمية، فأخرج من حبسه علماً جماً، ووضع السرخسي في قعر بئر معطلة فأخرج عشرين مجلداً في الفقه، وأقعد ابن الأثير فصنّف (جامع الأصول) و (النهاية) هما من أشهر وأنفع كتب الحديث، ونفي ابن الجوزي من بغداد، فجوّد القراءات السبع، وأصابت حمى الموت مالك بن الريب، فأرسل للعالمين قصيدته الرائعة الذائعة التي تعدل دواوين شعراء الدولة العباسية، ومات أبناء أبي ذؤيب الهذلي فرثاهم بإلياذة أنصت لها الدهر، وذهل منها الجمهور، وصفّق لها التاريخ.

إذا داهمتك داهية فانظر في الجانب المشرق منها، وإذا ناولك أحدهم كوب ليمون فأضف إليه حفنة من سُكّر، وإذا أهدى لك ثعباناً فخذ جلده الثمين واترك باقيه، وإذا لدغتك عقرب فاعلم أنه مصل واقي ومناعة حصينة ضد سم الحيات.

تكيّف في ظرفك القاسي، لتخرج لنا منه زهراً ووردا وياسميناً،

﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ .

سَجَنَتْ فرنسا قبل ثورتها العارمة شاعرين مجيدين متفائلاً ومتشائماً فأخرجا رؤوسهما من نافذة السجن، فأما المتفائل فنظر نظرة في النجوم فضحك. وأما المتشائم فنظر إلى الطين في الشارع المجاور فبكىٰ. انظر إلى الوجه الآخر للمأساة، لأن الشر المحض ليس موجوداً بل هناك خير ومكسب وفتح وأجر.

بيتك بيتك

أكثر الناس اهتموا بالناس أكثر من إهلهم وأبناءهم، فتجد المربي يعكف على أبناء الناس تربية وتعليماً وتثقيفاً وقد نسي أبناءه، وتجد الواعظ من مسجد إلى مسجد، ومن حلقة إلى حلقة، وقد غفل عن بيته، وإنما الواجب أن تبدأ بالأقرب فالأقرب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ فيا أيها العاقل صاحب أبناءك وأجلس معهم الوقت الطويل وعلمهم وعش معهم وربهم، فإنه يقبح بالرجل تفقد الناس وقد أهمل نفسه وبيته ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ .

أفلا تعقلون

كم من الفواجع والمصائب عشناها ورأيناها ثم نسيناها، كان لي أخ شقيق طلب العلم إلى أن وصل الجامعة فأصابه مرض عضال،

فبترت يده اليسرى ثم لحق بربه بعد أشهر ـ غفر الله له ـ وكنت أظن أني لا أسلوا بعده بالحياة، ثم نسينا!! وأعرف صديقاً لي من قبيلتي كان في مكتمل القوة والصحة، أصابه مرض خطير مفاجىء أقعده، ثم لحق بربه وخلّف أهله وأسرته وبكوه، ثم اشتغلوا بالحياة، وكان لنا صديق في الجيش برتبة عالية أصيب فجأة بجلطة، فجعلت الدنيا في عينه سوداء وضاقت به الأرض بما رحبت، ولي صديق محب طالب علم له ابن بلغ السادسة عشرة خرج فجأة فصدم بسيارته وفارق الحياة، فوقع المصاب في سويداء القلب، ثم سلا أهله. وكم رأينا وكم عرفنا وكم سمعنا من المصائب والكوارث والأحداث، فلا تطمئن إلى الدنيا، وتهيأ بعمل صالح، ولا تفرح بمال ولا بمنصب ولا بجاه

ومن كلمت فيه النهى لا يسره نعيـم ولا يـرتـاع للحـدثـان

غــــرور

الدنيا حلم، متاعها غرور، وعودها كذب، أيامها لهو، لياليها غفلة، قصورها ودورها خيالات تضحك بها على الأغنياء من أبنائها.

في بطن الدنيا أكثر ممن على ظهرها. كُلٌّنْ مرتهن بسعيه. فإذا رأيت أحد أبنائها قوياً في جمعها، مثابراً على الكدح فيها، فرحاً بمالها، جذلاً بوصالها، مخدوعاً بخيالها، فارث لحاله، وابك على مستقبله.

تفكر في الآباء والأجداد ومن ذهب ومن رحل، ومن انتقل، كم من ذكي في التراب.. كم من ألمعي تحت الرمال.. كم من سيد متوج في ثلة هامدة.. كم من إمام جهبذ تحت الرغام ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

إذاً فما لك في حيرة واضطراب؟ وما لك في ذهول وشرود؟ هيا تهيأ لتلك الحفرة.. ومهّد لك فيها فراشاً وثيراً من العمل والإخلاص والصدق مع من لا تخفىٰ عليه خافية، فكأنك بالموت قد حضر، والفراق قد دنا والأحباب قد تفرّقوا، والبين قد حل ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾.

فائــــــــدة

قوله ﷺ: **«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»**.

هذه الوصية من أعظم الوصايا وأجل النصائح فإنها وصية من خَبَرَ الشرع، وعرف حقيقة الدنيا، فإن عدم التعلق بها أسهل على القلب وأروح للنفس، فهي أكبر المشاغل، وأعظم ما يلهى عن الله عز وجل، ثم إن التعلق بالدنيا صد عن الآخرة، وأعراض عن الله، وإتعاب للقلب، فإن أكثر الناس أسفاً على الدنيا أكثرهم تعلقاً بها، وتحرقاً عليها، وحباً فيها، وهياماً بها، فما أعظم مصائبهم فيها، وما أعظم رزاياهم، لأن الدنيا نفيسة عندهم، أثيرة لديهم، يخافون فيها طوارق الحدثين، ويرهبون من تغيرها بهم، يريدونها قارة دارّة، تذلل

لهم فيها الصعاب، وتحصل لهم فيها الرغاب، لأنهم ما عرفوا حقيقة الدنيا أصلاً، لأنهم أهل ظن لا يقين، وبدايات لا نهايات، لم يقرأوا تأريخ الدنيا على الحقيقة، ولم يحيطوا بوصفها علماً، وإلا من عرف الدنيا حق المعرفة رضي منها بالقليل، وتهيأ للرحيل، وخاف الجليل وعمل بالتنزيل، فما أفجعها من دار، وأصعبها من سكن، فإذا كان العبد فيها كالغريب قلَّ بها متاعة وأشياؤه، فهو منتظر القدوم، كالمسافر على الشاطىء يعد العدة لركوب سفينة الرحلة، فحق على كل ناصح لبيب أن يجعلهـــا ممـــراً لا مقـــراً، وأن يزود نفسه منها بالصالحات، لا يأسف على نقصها، ولا يتحسر على فوتها، رضي منها بالقليل، وأخذ منها الكفاية، فهو في ليله ونهاره دائب ناصب، يجمع الحسنات، ويمحو السيئات، حينها يكون أسعد الناس حظاً، وأعظمهم راحة، لأنه أراح نفسه من منغصات العيش، كما قال أحد الزهّاد: فرحت بعيشى لا بيت يخرب، ولا مقال يذهب، ولا ولد يموت، فيامن عرف ربَّه وما أعد لعباده في الآخرة اصرف نظرك عن هذه الدار، وحول بصرك عن هذا السكن، فإن الدنيا عمرها قصير، وزادها حقير، وسفرها طويل، إن أعطت أخذت، وإن أضحكت أبكت، وإن أسعدت أشقت، فالله المستعان.

لعـــب ولهـــو

لا ينتهي عجبي من أناس يسمّون مثقفين ليلهم ونهارهم في مناقشة القصيدة النثرية والقصيدة الرمزية، ومراحل تطور القصة القصيرة، وما أدري ما نفع هذا الكلام في الدنيا أو في الآخرة، وما أدري ما هو مردوده عليهم وعلى الأمة، إن لم يكن هذا لهو ولعب فما أدري ما هو؟!

خاطـــــرة

إنما جعل بين الصلوات الخمس أوقات وفصل بينها بأزمان لترتاح النفس، وتستعيد نشاطها وقوتها، ثم تقبل على العبادة بنهم ورغبة وشوق، وهذه عبرة للعبد في أموره، فينبغي أن لا يجهد نفسه، ويواصل العمل طيلة الوقت فتنقطع به، وتمل العبادة، وتكره الطاعة، بل ينبغي له أن يكون ماهراً في قيادة نفسه، لطيفاً معها، حتى يحيا حياةً طيبة مع طاعة مولاه، وكان بعض العباد يرتاح من الأوراد في بعض الوقت، ليتقوى على أوراده فتكون الراحة في حقه عبادة.

فائدة

معاندة السلطان من أشد شيء وأضره على العالم، فإن هذه المعاندة تمنع الناس من الانتفاع بعلمه، ويكون العالم مقيداً محصوراً عن نشر علمه، وبث فوائده، وهذا وأد خفي للعلم، ومن تعلم سياسة العلم نفع، والحكمة موهبة ربانية.

شتان بينهما

الألقاب العملية خير لك من الألقاب العلمية في الدنيا والآخرة، فإن قيل عنك صادق خير من قولهم حافظ، وإن قيل أمين خير من قولهم دكتور، وإن قيل متهجد خير من قولهم واسع الإطلاع، لأن العمل حقيقة، والعلم صورة وشتان بينهما.

هما صنفان

بعض العلماء نفعه للناس قليل مع كثرة علمه، إما بقلة صبره، أو لكبره وسوء خلقه، أو لحبه للتفرد والعزلة، وبعضهم نفع الله به الخلق مع قلة علمه بالنسبة لغيره، لحسن خلقه، وجميل تواضعه، وحسن عشرته، وحبه للخير، وقربه من قلوب الخلق، والأخلاق

والمواهب حظوظ.

قد علم كل أُناس مشربهم

بحثت عن العلماء فإذا قليلهم عالم عامل مخلص، وطوائف منهم وقعوا في الجدل والحسد والمباهاة وحب الدنيا.
بحثت عن الشباب فإذا غالبهم وراء الرياضة والفن والمغريات. بحثت عن التجار فإذا التعامل المحرم والربا والغش والتحايل وإهمال الدين.

أما العامة فغالبهم جهلة قعدت بهم هممهم عن طلب العلم والسؤال عن دينهم، وغالبهم وراء الدنيا والقيل والقال والفنون الشعبية. أما النساء فجلُّهُنَّ في غفلة من سوء عشرة، وتعرض لفتنة، وتضييع حق، فعفوك يارب.

شيخ الإسلام ابن تيمية

أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، أبوالعباس، إمام الندى والباس، جده قمر، وأبوه نجم، وهو شمس، ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

ابن تيمية: شيخُ الحافظين لميراث الهادي الأمين. وعلمُ

المجددين للدين، أَرْسَلَ على المبتدعة التدمرية: تدمر كل شيء بأمر ربها.

وأنزل حمى الويل في الحموية على المعطلة، بطحَ البطائحية بحجج كالقذائف. كل بطاحٍ من الناس له شهمٌ بطوح.

وانتصر على النصيرية، وكسر أنوفهم في جبل كسروان.

دخل على الأمة طيفُ الأشاعرة، وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً. فاستيقظ أبوالعباس لما نادته الملة، فقال: كلا والله، فدفع التأويل والشبهات بالآيات، والظن باليقين، وراغ عليهم ضرباً باليمين.

وسطعت حجته، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً. والناس في هذا العلم مذاهب شتى.

لم يتخذ زوجة وما أنجب ولداً، ولم يضيع عمره سدى، بل أرسل شهبه على الضلال، كل يجد له شهاباً رصداً، فلم يغادر منهم أحداً بل تركهم بَدَدَاً.

ابن تيمية علمٌ معقود، وسرادقٌ للعلم ممدود، والرجل محسود.

فاعذر عدَّوكَ فيما قد خُصصتَ به إن العُلىٰ حسنٌ في مثلها الحسد

أعيذك يا فرد البطولات، بكلمات الله التامات، فاهجر خصومك، وانشر علومك

ابن تيمية: أحاط بشرع الهادي المحيط، بحر البحور، ودرُّ النحور، ركب منبر الجلالة فنادى لسانُ التوفيق: طبت وطاب مسعاك.

أبحرت سفينة التوفيق إلى ساحل القبول، ومنادي الشريعة ينادي: باسم الله مجراها ومرساها، فاستوت على جودي الحقِّ، وقيل الحمد لله رب العالمين.

مجتهدٌ في التفسير كمجاهد، وذو ملكة في الاستنباط كمالك، وأحيا السنة في الأوطان، كيحيا القطان، ومسدد في الحديث كمسدد واعطى من علمه كعطاء، أمة في رجل، وجيل في فرد، دعا الظَلَمَة إلى السياسية الشرعية، والمعطلة إلى الملة المحمدية، والمعتزلة إلى الطريقة السنية، والأشاعرة إلى المحجة السلفية.

سكن في غرفة واحدة، فحلَّ في كل المهج، وأبي المنصب فحظي بمنصب تذكار في القلوب، سُجن وهو حي، فشيعه الناسُ وهو ميت.

إذا تكلم فالسلام على المتكلمين، وذا كَتَبَ أرضى الكرامَ الكاتبين، وإذا نطق صار بيتُ المنطقِ من طين.

ابن تيمية عجيب عند أهل الملل، غريبُ عند أهل النحل، جريء عند أرباب الدول، نزل له القبولُ في القلوب، وبالحق نزل.

سلَّ سيفه على الدهرية، واغمده في صدور القبورية، وضرجه بدماء النصيرية، كالمطر إن هل عمّ، وإن سال طم، وكالأسد إذا شك شم وإذا عدا رم، وكالبدر إذا سطع تم، وإذا ذهب التم.

أمَّ في المحراب، وعلم الكتاب، وسمع الجهاد فأجاب، ألغى الانحراف وكشف السراب.

خرج بالبتار علىٰ التتار، فأذاق جند هولاكو الهلاك، جدد للدين ما اندرس، ودُرس به من البغي ما تجدد، رفع للدين مناراً، وأوقد لأعدائه ناراً، فلم يبق منهم دياراً.

الزهدُ عنده: تركُ مالاْ ينفع في الآخرة. الورعُ: اجتنابُ ما قد يضَر. الخوف: ما حجزك عن المعاصي. الشجاعة: ما نُصر بها الحق. الوسطية: ما دل عليه الوحي. الحياة: مبدأ، الرفعة: سجدة، الذلة: التلصص بالعلم.

ملك أعداؤه أسباب الدنيا فماتوا وهم أحياء، فلا ذكر ولا أثر. لو اطلعت على كتبهم لوليت منها فراراً ولملئت منهم رعباً، ومَلك هو أسباب الآخرة فعاش وهو ميتٌ، بعلمه وسيرته، فلو قرأت كتبه لقلت الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن.

في الكتاتيب مجتهدٌ، وفي الكتاب مجاهد.

للفضائل أمامها، وللحوادث حسامُها، وللفتن زمامها، وللمعاني نظامها. وللفتاوي يمنها وشامُها، وللأدب بحتريُّها وتمامُها، وللتقوى كعبتها ومقامها.

إذا سال من يراعِهِ الحبر قلت هذا هو الحبر. الذي يشبه البحر، لأنه حر، حرَّكته حرارةُ الحق لمدارج الحرية.

فرق بالفرقان شراذم الضالين، واسكت بالجواب الصحيح أتباع المسيح، وهاج على الرافضة بالمنهاج، ودرء عن الدين بالدرء، وذبح

الشاتم بالصارم، حلَّ زمام أهل الحلول واصطلم بحد صارمه أرباب الاتحاد، عرض المخالفون بضاعتهم المزجاة، وصاحوا بكم نقول فأبطل بيعهم بصحيح المنقول، وصريح المعقول. ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦].

تُيِّمَ ابنُ تيمية بنور الرسالة، ويأبي الله إلا أن يتم نوره، ألقى عصا حجته على سَحَرَةِ زمانه، فإذا هي تلقف ما يأفكون، فويلٌ لهم مما يصفون.

ما تزوجَ وقد قاربَ السبعين، لأنه خطب الحور العين، بت بعلي عزمه رأس الشهوات مرحباً، وخاضَ بجنود إيمانه شقحباً.

يكسو بالنحو أقوال الكسائي، ويسيل من مزن أفكاره ما يُذهل المزني، ويردُّ بأشعاره تأويلات الأشعري، ويُفحم بردوده الماتريدي.

أعطى من البراهين ما قطع به شبهات واصل بن عطاء، وألهم عند الاحتجاج ما قطع به دابر الحلاج.

ابنُ تيمية، للملة ابن بار، يدور مع الدليل حيثُ دار، توقف الناس في مسائل العلم فتقدم، وتقدموا لأبواب الدنيا فتوقف، مقدم على المروءات، محجم عن المزريات.

إن طال الليل قصَّره بالقيام، وإن قصر النهارُ طوله بالصيام، يبرد حرارة الغيرة بالصبر، ويذيب قسوة القلب بالفكر، ويسيلُ جامد الدمع بالذكر.

ترك القصور للمقصرين، ورمى الحطام للسفلة الطغام.

ابنُ تيمية يوم كان يمرغ لربه أنفه في الطين، كان أقرانه على أبواب السلاطين، يوم كان يردُّ على أعداء السُّنة، كانوا يردون عليه. اشتغل بالله واشتغلوا به، ترك لهم الدنيا والدراهم والدنانير، فحسدوه على العلم والفهم والحكم.

جنتُه وبستانُه في صدره، وطاعة مولاه في عسره ويسره، طار ذكرهُ من طنجة إلى البنجاب. فسجنه الحجاب، فضرب بينهم بسورٍ له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهرهُ من قبله العذاب.

سجنهُ خلوة، تعظم فيه حسناتُه، وتحفظ فيه أوقاته، وإخراجُه من البلد سياحة وإيقافه عن الوعظ راحة، وقتله شهادة، لأنه جهز زاده، وسمن جواده، وهيأ عتاده.

له دفتر البطولة يكتب فيها ما شاء، وله كتاب العبقرية يملؤه بذلك الإنشاء. ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

يا أيها الحساد، الرجل قد ساد، وأجاد وأفاد. لأنه طويل النجاد، باسق العماد، جاهز العتاد، طيب الزاد.

يا أيها الأعداء، الإمام بلغ الجوزاء، وجاوز البلغاء، وخطب ود الخطباء، أنف أن يموت قبل أن يُرغم الكاذبين، فرغم أنف التأريخ إن لم يكتبه في الصادقين.



فائدة
أحرص على ما ينفعك

قوله ﷺ: «**احرص على ما ينفعك**» أعظم دليل على بذل الجهد في حصول المطلوب، وترك التخاذل والتكاسل بحجة القدر، فإن هذا دليل القاعدين الفاشلين، بل على العبد أن يحرص غاية الحرص في كسب ما ينفعه من الأقوال والأعمال والرزق الحلال، فيستفرغ الجهد في تحصيل المنفعة الدينية والدنيوية بأحسن السبل الشرعية، فإن الحـرص: تحـرك الإرادة، وانبعـاث العـزيمـة، واقتنـاص الفـرص المناسبة، والمسارعة الى قطف ثمار المنافع، وحصد سنابل الفوائد، وتقييد شارد المصالح، فلا يزال مراقباً للمناسبات، ملاحظاً للأوقات حتى يهجم ببصيرته على ما يصلح دينه ودنياه، والحرص على ما ينفع دليل على صدق النية، وقوة العزيمة، وسلامة الطبع واعتدال المزاج، وغزارة الفهم، لأن كل عاقل سوي يجتهد في جلب الخير لنفسه، ودفع الضر عنها.

وما يهمل مصالحه إلا غافل بليد، ولا يفرّط في مكاسبه إلا أبله رعديد، فإن الوحي جاء باستثارة الهمم، ومناداة العزائم، وتحريك الإرادات لتنبعث طالبة فاعلة مؤثرة تجني الخير وتجمع الفضائل وتحصل القيم، وحرص العبد على ما ينفعه أول أبواب الفضائل، لأنه من عمل النية ثم يتبعه الحركة الراشدة، والتوثب

الصادق، واليقظة التامة، فيسعى جاهداً في إصلاح نيته، وإحسان عمله، وتعمير مستقبله، وحيازة رزقه الحلال، والقيام بمن يمونه، وتهذيب نفسه، وتقويم إعوجاجه، ولا تلقى مفرطاً أضاع نصيبه من الخير إلا لتركه الحرص على نفع نفسه، ولا تجد محروماً، من السعادة إلا من أهمل إرادته، وعطل عزيمته، فأنفق عمره في الأماني الكاذبة، والخيالات الفاسدة، والوساوس الخادعة، حتى بدد العمر في سوق الغبن، ومزّق ثوب الأيام بكف التفريط، وأحرق شجرة الهمة بنار الخذلان، وحرص العبد على ما ينفعه واجب شرعي، وضرورة عقلية، بها يصل العبد إلى مصاف الناجحين، ومراقي الصاعدين في سلّم القبول، ومعارج التفوق، وبها يطوي بروج الفضائل، ويقطع مسارات الخيرات، فهو سبّاق لكل عمل نبيل، وثاب لكل فعل جميل، مسارع لكل مقصد جليل، في قلبه نور الهمة منقدح، وفي نفسه زند الحرص الصادق محترق، فهنيئاً له سمّوه وتقدمه وتميزه.

تجربــــــة

قرأت مئات من كتب الفكر ودخلت مثلما خرجت، كلام بارد في الغالب، وإنشاء ولا دليل ولا تحليل، بل هي أقرب بمنهج علماء الكلام، تشابهت قلوبهم.

مثل حكمة

في مثل عند الألمان يقول: السعيد من ينسىٰ ما لا سبيل إلى تغييره. فالشيء الذي وقع وانتهى ليس هناك أجمل من تناسيه وطرحه من الذهن، وعدم ذكره والتحدث عنه، فهذه من السعادة، ورباطة الجأش.

خاطــــــرة

لاتثق بمدح الناس ولا تخشى بذمهم، فكل يوم لهم مذهب، يرضون لأغراضهم ويغضبون لها، فعامل أنت واحداً أحداً فرداً صمداً، واترك غيره، لأنه سوف يقبل لك بقلوبهم على رغم أنوفهم.

خاطــــــرة

لا تنخدع بكثرة الإخوان والأصدقاء وقت الرخاء، فإنهم ذباب طمع، ولن تجد منهم وقت الأزمة إلا قليلاً، فخالطهم بالمعروف ولا تثق إلا بالله.

فائـــــدة

من أنفع شروح الحديث كتاب (التمهيد) لابن عبدالبر، ففيه من الأصالة والإعتناء بأقوال المتقدمين وحسن السبك، وقوة الترجيح ما يفوق الوصف، وهو عندي من أعظم الشروح إن لم يكن أعظمها.

وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً

زرت بعض كبار الأدباء المشار إليهم بالبنان، فرأيته مستغرق التفكير في كلمة غريبة وحشية، يبحث عن أصل تركيبها، واسم واد من الأودية اندثر، وقد قارب هذا الأديب الكبير الثمانين، فعجبت كيف صرف عمره في هذا الفضول الذي أشغله عن كتاب الله والعلم النافع والعمل الصالح، وعلمت أن السداد والاختيار توفيق من الله تعالى.

مع أبي الدرداء

قال أبوالدرداء: إني لأضحك لأجم روحي، وهذا حق للنفس أن تسرح في المباح برهة ليعود لها نشاطها ونشوتها وتكون أقدر على

العبادة والعمل، فإن الجد المتصل والعمل الدائم يورث الملل والسآمة فتذوب النفس ويخمد إشراقها، ويضعف أداؤها، والعاقل يتلطف بنفسه وبجسمه ليصل إلى مقصوده، ويقطع طريق سفره في راحة.

فائـــــــدة

من الخطأ الذي وقعنا فيه صرف جل الوقت في القراءة والإطلاع، وأحياناً تكون هذه القراءة متعة وفضول، ويترك بسببها حق لمسلم، كصلة رحم أو زيارة مريض، أو تصدق على فقير، أو إعطاء سائل، أو كشف كربة، أو مساعدة محتاج ونحو ذلك، وهذه الأمور هي طرق الجنة، وهذا هو المقصود من العلم، فحبذا أن يهتم بالعمل وثمرة العلم، ولا يقف عند صورته فقط، ولينظر إلى حياة الصحابة فهي أعظم شاهد على نفع العلم والمقصود منه.

عبـــــــرة

لو ملكت كنوز الدنيا وأنت لا تملك الإيمان والعمل الصالح فاعلم أنك في شقاء.

كان في عصرنا تاجر كبير، يعرفه غالب الناس بثراءه الفاحش، وكان معرضاً عن الله عز وجل، لاهياً غافلاً لعّاباً، أصيب بسرطان في دماغه فما ترك طبيباً حتى استشاره، وصرف أموالاً طائلة في العلاج،

وما ترك وسيلة للدواء إلا سعى فيها، ولكن هيهات فقد قضى نحبه، وفارق الدنيا بلا عمل ولا مال. ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

السجـــــن

السجن بيت الوحدة، وأخو القبر من الرضاع، شماتة للحاسد، ومناحة للصديق، يطوى العمر فيه طي السجل للكتب، تقف فيه عقارب الساعة فكأن اليوم شهر، والشهر سنة، وكأن الشمس شدت بيد، بل في السجن يركد الخاطر ركود حائطي السجن، وتذوب النفس، وتلين العريكة وتنقطع الآمال. في الحبس تُذاق حياة البرزخ كل شيء قديم لا جديد إلا وجه السجان إذا استلم نوبته، ولا أخبار إلا رؤى المنام، ولا براهين إلا أماني وإن هُمْ إلا يظنون، يقول أحد المسجونين:

إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة فرحنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفـرح بـالـرؤيـا فجـل حـديثنـا إذا ما تحدثنا الحديث عن الرؤيا

السجن يستحث الشيب ويجلب الهرم، ويساوم على النفس في سوق الموت، السجين لاحي فيدعى، ولا ميت فينعي، ولا مريض فيعاد، ولا صحيح فيزار.

ولكن الحبس أيضاً مدرسة للصبر، ومجلبة للأجر، وكتاتيب للتجارب، فيه تغرر الفكرة، وتدر العبرة، وتقلم أظفار الشهوات،

وتباد خضراء المعاصي.

في السجن تعرف الحياة كما هي، وتنزل النفس منزلتها، فتجتث فيه شجرة الكبر، وتحرق فيه أسمال الرياء، وتظهر فيه زهادة المال، وحقارة المنصب وتفاهة الجاه، وضآلة الناس، الحبس كير يذهب خبث الحديد، وكي للروح بميسم القدرة يحرق غدد الغرور، وفي الحبس تتسابق الدموع الصادقة لتروى خدود اللوعة، وأجفان الانتظار، ولسان الحال يقول: ذهب الظمأ وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله.

وقفات تدبر

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ في هذه الآية عموم وخصوص، فالدعوة أعم من الهداية، والدعوة إقامة حجة وإيضاح برهان وتعريف بالملة، والهداية لطف منه سبحانه واختيار واجتباء واصطفاء، يدعى الجميع إلى جنة عرضها السموات والأرض، ويخاطب الكل بهذا الوحي، وينادي الناس كافة بهذه الرسالة، ثم لا يستجيب إلا من سبقت له الحسنى وتقدمت له السعادة، وكتبت له النجاة، لا حجة لمن ضل بعد هذا البيان، فليس على ربهم حجة بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب ووصول هذا البلاغ المبين، وليس للمهتدين مِنَّةٌ على ربهم بل لله المنة وحده.

والداعي في الآية هو الله وحده، لأن كل رسول إنما دعا في

حياته أو دعا أتباعه بعد وفاته ولو طالت أزمانهم. أما الداعي إلى الهدى في كل زمان ومكان فهو الله جل في علاه.

وفي الآية إشارة إلى أن دعوته سبحانه وتعالى للناس إنماهي إلى خير ينتظرهم وسعادة أَمامَهم، وهي دار السلام، وهي المسلمة من الهموم والغموم والشرور والمكدرات.

وفيه أن من اهتدى فإنما اهتدى بإذن ربه، ومشيئة مولاه وتوفيق خالقه ليس إلا، وأن هدايته سبحانه للناس ليس لأنسابهم أو أحسابهم أو قبائلهم أو صورهم أو أموالهم وإنما لشيء علمه الله منهم ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾.

فائـــــــدة

إذا أردت أن تحفظ أحاديث الأذكار والأدعية فاحفظها برواتها من الصحابة، واجعل لكل ذكر مشهور أو دعاء معروف صحابياً رواه، حتى إذا ذكرت الصحابي ذكرت الدعاء.

فأفضل دعاء رواه أبوبكر الصديق: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً..**» وأفضل دعاء رواه أبوذر: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»، وحذيفة روى الحث على كثرة الاستغفار، وسيد الاستغفار رواه شداد ابن أوس، وأبوهريرة له تهليل مائة، وهكذا بقية الدعاء.

وكانت طريقة كثير من العلماء حفظ الأحاديث على المسانيد والله أعلم.

فائـــــدة

من أعظم المصائب ومن أجل الرزايا ترك العمل بالعلم، والإزدياد من حجج الله والتكثر من البراهين والأدلة لتعظم صفقة الخسارة وتكبر المصيبة، وإلا فما معنى ترك العمل والحرص على العلم ولا يغتر مغتر بسهولة محفوظة وكثرة معلوماته مع تعطله من العمل، إن هذا من المكر المبطن والوأد الخفي لنور العلم وبركته ونفعه، ونعوذ بالله من نقض الميثاق.

الإمام البخاري

وصل ما انقطع من مجد العجم، ورفع الموضوع من الهمم، وأرسل أحاديث المكارم، وأعضل شبهات كلِّ ظالم، لو كان العلمُ بالثريَّا لناله رجال من فارس. والدليل محمد بن إسماعيل.

حدثنا فضلهُ عن علمه، قال فأخبرنا عقله عن فهمه، أن صحيحه بزَّ الصحاح، وحديثه أتحف الأرواح في آذان الأخيار على الفلاح، وفي أسماع الأشرار آح آح، فهو سلوة العلماء، ونزهة الفضلاء، يزيدكُ وجهه عبراً، إذا أمعنته نظراً، سقى من نبع النبوة أكباد البنوة، فذهب الظمأ وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله. البخاري لم يخلف درهماً ولا ديناراً، ولا قصراً ولا داراً، وإنما خلف تركة نبوية،

ونفحة من الهدى زكية، تدمرالوثنية والزرادشتية والمزدكية.

منهج البخاري تجويد الكيف، ونفي الزيف، وبيانُ الحيف وجمعُ الصحيح، وترتيبُ المليح، والإجهازُ على القبيح.

صحيحُ البخاري سارت به الركبانُ في المضارب، وطاف المشارق والمغارب، أصبح حديثاً في كل ناد، وصوتاً في كلِّ واد، وعم خيرهُ الحاضر والباد. بوبَّ الفنون، وتفنن في الأبواب، جود الإسناد، وأسند الأحاديث الجياد، ألف فأتحف، وجاء صحيحه تماماً على الذي أحسن، استنبط الدراية من الرواية ووثق الرواية لأهل الدراية.

أحاديثُه تملؤك نوراً، حافظها ينقلبُ إلى أهله مسروراً. كم كاذب كشف زيفه، كم دجالٍ أطفأ طيفه، حُسام للشريعة فُلَّتْ به كتائبُ الوضَّاعين، ورمح للملة دُقَّتْ به أعناقُ الزَّائغين. إذا رآه المبطلون فكأنهم حمرٌ مستنفرة، فرت من قسورة. طوّق بصحيحه الأعناق وعانق بهمته الآفاق.

إن ألغز أعجز، وإن شرح أوجز.

ما أسعد إذا أسند، وقال: حدثنا مسددُ بن مسرهد، المال عنده ينقص ولا يزيد، والبرُّ لديه يزيد ولا ينقص، والإيمانُ عنده يزيدُ وينقص، مريضه في التعليق كصحيح بعضهم في التوثيق، أسرج أسانيده وأدرج وأثلج بمتونه ودبج.

يُبوب أحياناً من الحديث فيكونُ أوضح من النهار، ويشير تارة

إلى المعنى فيكون أحدَّ من سلة المنشار، إن خاف أن يتسلق الأغبياء سُلم المعاني أغمضها، وإن خشي أن تُخفى ألفاظُه على الأذكياء أظهرها. عز منال كتابه على كسالىٰ الطلاب، والذهن البارد يصيح:

عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب.

دنت فوائد صحيحه من القاصدين، فنادوا: هل من مزيد، ينشطُ فيبسط، يقتصر فيختصر، إن طال المتن قطعه، وإن انفصم السند وصله. إن أراد البلاغة دبج الألفاظ. وإن أراد المعاني أشار بالألحاظ.

هجر الواهي، وجفا الضعيف، وتركَ الشاذ، اشتد ساعدُ سنده، فأطلق من المعاني ما قيده، وبين من الكلام ما أجمل، وخصص من العبارات ما عمم.

فلق هام البدعة بحسام السنة فانفلق وأطلق زمام الحديث في الدنيا فانطلق.

ملأ الأفكار بالآثار، وأتحف الأخيار، إن شك في حديث علقه في سقف الانتظار، وإن تيقن صحة متن داوىٰ به البصائر والأبصار، إن سمعت تبويبه قلت: حسبك الآن، وإن أنصت لرقائقه ناديت: قفا نبك يا إخوان، وإن قرأت براهينه صرخت: الآن حصحص الحق وبان.

رجاله جاوزوا القنطرة، فكل واحد منهم إن تأمنه بقنطار ما أخَّره.

وأحاديثه قبلتها الأمة، وزكَّاها الجهابذة، وشرحها الأساطين وحفظها النوابغ، وسارت بها الركبان.

وخير جليس في الأنام كتاب

من علامات الخير وأدلة النبل وحسن الطالع محبة كتب العلم والمعرفة، وعلى الخصوص الكتاب المبارك كتاب الله عز وجل، ففيه سر سعادة الإنسان، وحياته، ونوره، وهداه، ثم الكتب النافعة التي تجلو الرَّان عن القلب، وتزيل الغشاوة عن الضمير، وتفتح الآفاق، وتكسر الأغلال، وتنسف أركان الجهل. قال القاضي الجرجاني:

ما تطعّمت لذة العيش حتى صرت للبيت والكتاب جليساً
ليس شيء عندي أعز من العلم فما أبتغي سواه أنيساً
إنما الذلُّ في مخالطة النا س فدعهم وعِش عزيزاً رئيساً

إن الجلسة مع الكتاب هي اللذة في منتهاها، والعزة في أجمل صورها، إنها صيانة العرض مع الكتاب من خدوش المخالطة، وقد نصحتك لو كنت تقبل النصح.

فأكثر من لزوم البيت، ومحادثة الكتب، ومطالعة الصحف، والتأمل في بطون الأسفار، وتذكر وصيَّته ﷺ لعقبة بن عامر. «**كف عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك**».

قال العلامة الفقيه اللُّغوي الشاعر أحمد بن فارس صاحب الكتب الذائعة الماتعة في النحو واللغة:

وقالوا كيف حالك؟ قلت خير تقضَّىٰ حاجة وتفوت حاج
إذا ازدحمت هموم الصدر قلنا عسى يوماً يكونُ لها انفراج

نـديمـي هـرَّتـي وأنيـس نفسـي قــراطيســي ومعشــوق السِّــراجُ

إن محادثة الكتب الساعات الطويلة تزرع دمعاً كبيراً متألقاً، تتفجر منه أنهار الحكمة، ويتشقق فيخرج منه ماء البيان، وتهبط منه كنوز الألمعية، وقبسات العبقرية، فالكتب بوابة الديانة، ودروازة التثقيف الأصيل، للعقل السويِّ الواعي.

أعزّ مكاناً في الرجا سَرج سابح وخيـر جليـس فـي الأنـام كتـابُ

الكتاب حيث لا غيبة ولا رياء ولا حسد ولا كبر. الكتاب حيث لا ملل ولا ضجر ولا سآمة ولا تبرّم. الكتاب حيث الحكمة الساطعة، والموعظة البارعة، والخطاب الفصيح، والنهج السديد، والطّرفة العذبة، والخبر المستطرف، والتجربة الحية.

كان العلماء يَضِنون ببيع الكتب، ولا يرخصون ثمنها، فهي عندهم أغلى من القصور والدور والذهب والفضة والسلاح والمزارع. هذا أبوالحسن الفالي يعضه الفقر فيضطر لبيع كتاب الجمهرة لابن دريد بخط أبي الحسن الفالي الجميل فيشتريها منه الشريف المرتضى بستين ديناراً، ويجد في آخرها أبياتاً لبائعها أبي الحسن يقول فيها:

أنست بها عشرين حولاً وبعتها لقد طال وجدي بعدها وحنيني

مـا كـان ظنـي أننـي سـأبيعهـا ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكــن لضعــف وافتقــار وصبيــة صغـار عليهـم تستهـل شـؤونـي

فقلت ولم أملك سوابق عبرتي مقـالـة مكـوي الفـؤاد حـزيـن

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك كــرائـم مــن ربٍّ بهــن ضنيــنِ

فلما قرأ الأبيات أرجع النسخة إليه وترك الدنانير.

إن من همة الطالب حرصه على كتابه، وصرفه لماله في العلم، لأن المال خادم والعلم مخدوم، وأبوالحسن الفالي صاحب الأبيات المتقدمة محدث أديب شاعرتوفي سنة ٤٤٨هـ وله أشعار جميلة لها صلة بالهمة العالية والعلم وأهله، منها:

لمـا تبـدلـت المجـالـس أوجهـاً　　غيرالذين عهدت من علمائها
ورأيتهـا محفـوفـة بسـوى الألـىٰ　　كـانـوا ولاة صـدورهـا وفنـائهـا
أنشـدت بيتـاً سـائـراً متقـدمـاً　　والعين قد شرقت بجاري مائها
أمـا الخيـام فـإنهـا كخيـامهـم　　وأرىٰ نسـاء الحي غيـر نسـائهـا

ولك أن تفهم آخر بيت على أن الخلف يشابهون السلف في الأجسام والجلوس والقيام ولكن الحقائق تختلف. هناك همم تنطح الثريَّا، حفظٌ للزمان، خشيةٌ للرحمن، شحٌ بالأوقات، تسابق في الخيرات. وهنا همم باردة، ونفوس فاترة، وأوقات ضائعة. ومما يستحسن أيضاً لأبي الحسن الفالي قوله:

تصـدر للتـدريـس كـل مهـوس　　بليـد تسمـىٰ بـالفقيـه المـدرس
فحـق لأهـل العلـم أن يتمثلـوا　　ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها　　كلاها وحتى سامها كل مفلس

إن الله لا ينظر إلى صورنا وأموالنا، ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا. إن العالم لا يعرف بزيّه من عمامة وجبة، وبشت وعكّاز، ولكن بعلمه وفهمه وصدقه وزهده، وخشيته، لقد كانت الرزايا عند

علماء السّلف هي ما مسَّ الدين، أو العلم، أو الدنيا، فعلينا السلام ورحمة الله وبركاته.

إن تقديس المنهج المتمثل في العلم النافع والعمل الصالح فرض عين على كل مسلم ومسلمة، يحترم نفسه، ويخاف ربَّه، ويحب رسولهﷺ.

إن التلبّث في الأوطان، والرِّضا بالجهل، ومسايرة الطبع والخوف من ركوب الأخطار، ومعافسة الأسفار في طلب جليل الأمور، كل هذا من ضآلة الهمة وحقارة النفس.

وهذا أبوتمام يطالبك بالترحال في طلب الفضائل إذ يقول:

وإن مقام المرء في الحيِّ مفسدٌ لـديبـاجتيـه فـاغتـرب تتجـدّدِ
فـإنِّـي رأيـت الشمـس زيـدت محبـة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدِ

إن المقدام لا تحجزه عن مرامه حواجز، ولا تقطعه عن مقاصده قواطع، إنه حثيث في سيره، متذرع بصبره، متّقد بهمته، متوكل على ربِّه، وما أشبهه بقول الشاعر:

ومشتت العزمات لا يأوي إلىٰ سكـــن ولا أهـــل ولا جيـــرانِ
ألـف النـوىٰ حتـى كـأن رحيلـه للبيـــن رحلتـــه إلـــى الأوطـــان

هؤلاء الصفوة المباركة من المحدثين الأخيار الواحد منهم ليس له دار يأوي إليها، مرة بمصر، فالشام، فالحجاز، فاليمن، وأخرى بالعراق، فمرو فخراسان، فأصبهان:

يوم بحزوىٰ ويوم بالعقيق ويوم بـــالعـــذيـــب ويـــوم بـــالخليصـــاء

إن طُلَّاب الآخرة يرون المجد الدنيوي زائفاً. فالجاه عندهم والرئاسة والتصدر لا يساوي قطميراً، لأنهم لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. وأحد العلماء من المحدّثين كان يملي على طلابه الحديث، فتفكر في جلال هذه النعمة، وعظمة هذا المقام، ورفعة هذا المحلّ فأنشد:

إني إذا احتوشتني ألف محبرة　　يكتبن: حدثني طوراً وأخبرني

نـادت بحضـرتـي الأقـلام معلنـة　　هذي المفاخر لا قعبان من لبن

أول ضريبة السير إلى الله عز وجل مخالفة النفس ونحر الهوى صبيحة عيد الانتصار عليه، والارتفاع عن خدع الشيطان، والأمر ليس سهلاً كما نتصوره بل هو شاق عسير ومن يسرّه الله لليسرى هانت عليه المشقة وتذرّع بالصبر.

من أعظم صفات العبودية

من أعظم صفات العبودية المسكنة، والتواضع وخفض الجناح، وهذا يحصل بمعرفة عيب النفس وتقصيرها وذنبها ومعرفة نعمة الله عز وجل.

وإن تعجب فعجب

عجبت لبعض طلبة العلم يجمع الكتب وينسخ ويصور ويتلهف على كل كتاب ليس عنده، وهو لم يضبط شيئاً من العلم، وقراءته قليلة، وإدراكه ضعيف، لكنه مغرم بالجمع فقط.

خاطــــرة

من لم يتألم لم يعرف طعم الراحة، ومن لم يجُعْ ما عرف ذوق الشبع، ومن لم يمرض لا يدري بنعمة الصحة، ومن لم يسجن لا يدرك روعة الحرية والانطلاق، والمصائب عبر.

تجربــــة

لا تحتقر رأي أحد مهما كان، فإنني استفدت من أناس ليس عندهم علم كثير، ولا يشار إليهم بالبنانّ، وليسوا في أماكن مرموقة، ولكن عندهم من سداد الرأي ما يفوق كبار الناس، ولله في خلقه أسرار.

أعمارهم تمضي سبهللا

رأيت بعض المقابلات مع المعمرين الذين تجاوزوا مائة عام، فإذا غالب أعمارهم ذهبت سدى، فلا ذكر للعلم ولا للعبادة ولا للعمل الصالح إنما أخبار عن حياتهم وأعمالهم ودنياهم فحسب.

تجـــــــربـــة

لا يتذكّر الموت أحد في الغالب إلا إذا خلا بنفسه وابتعد عن الناس وصخبهم وكلامهم، فصار وحده، فاستجمع فكره، وتدبّر أمره، وتهيأ لمعاده، أما وهو يكلم هذا ويجلس مع هذا، ويزور ذاك فأنّى له التفكُّر في الرحيل من هذه الدُّنيا.

أم يحسدون الناس
على ما أتاهم الله من فضله

الحسد كالأكلة الملحة تنخر العظم نخراً، إن الحسد مرض مزمن يعيث في الجسم فساداً، وقد قيل: لا راحة لحسود فهو ظالم في ثوب مظلوم، وعدو في جلباب صديق، وقد قالوا: لله در الحسد ماأعدله، بدأ بصاحبه فقتله.

إنني أنهى نفسي ونفسك عن الحسد رحمة بي وبك، قبل أن نرحم الآخرين؛ لأننا بحسدنا لهم نطعم الهم لحومنا، ونسقي الغم دمائنا ونوزع نوم جفوننا على الآخرين.

إن الحاسد يشعل فرناً ساخناً ثم يقتحم فيه. التنغيص والكدر والهم الحاضر أمراض يولّدها الحسد، لتقضي على الراحة والحياة الطيبة الجميلة.

بلية الحاسد أنه خاصم القضاء، واتهم الباري في العدل، وأساء الأدب مع الشرع، وخالف صاحب المنهج.

يا للحسد من مرض لا يُؤجر عليه صاحبه، ومن بلاء لا يُثاب عليه المبتلى به، وسوف يبقىٰ هذا الحاسد في حرقة دائمة حتى يموت أو تذهب نعم الناس عنهم. كلٌّ يُصالح إلاَّ الحاسد فالصلح معه أن تتخلّى عن نعم الله، وتتنازل عن مواهبك، وتلغي خصائصك، ومناقبك، فإن فعلت ذلك فلعله يرضىٰ على مضض، نعوذ بالله من شر حاسد إذا حسد، فإنه يصبح كالثعبان الأسود السَّام لا يقر قراره حتى يفرغ سمه في جسم بريء.

فأنهاك أَنهاك عن الحسد واستعذ بالله من الحاسد فإنه لك بالمرصاد.

ابــن حـــــزم

جمدَ في الفروعِ وحقُّه أن يسيل، وسال في الأصولِ وحقُّه أن يجمد، رمىٰ الأئمة بالمنجنيق، فتعرضت كتبُه للحريق، خاصمَ أَهلَ المشرق فانتقم منه أَهلُ المغرب.

خرج من الغنى في طلب العلم إلى الفقر، ودخل في باب الهمة إلى بيت الرياسة.

بدا في الفهم فجفا، هجرَ القياسَ فهجرهُ الناس، له في الحديث باع، وكال في الأَثرِ بالصاع ألفَ المجلَّى ونادى: أنا ابن جلا، وصنف المحلى وتولّى منه ما تولى.

اتسع دماغُه بالتحصيل، وضاق عطفه عن التأصيل، غضب من زمانه، ونثر الغبار على أقرانِه، وأطلق السهامَ من لسانِه، وفك زمام حصانِه.

هو مع عصره كما قيل:

أتــى الـزمــانَ بنــوهُ فــي شبيبتــه ... فســرهــم وأتينــاه علــى هــرمِ

هو عند نفسِه يَفهمُ وهم لا يفهمون، وهو يعرف وهم لا يعرفون.

تتبعَ الأَئمة على آثارهم قصصاً، والبياض إذا كثر أصبح برصا.

ابنُ حزم شمس لكنها طلعت من المغرب، ونجمٌ ولكنّه بزغَ في

النهار.

قلنا له يا إمام كُفَّ الملامَ عن الأَئمةِ الأعلام. فقال: من تابَ وأنابَ فلا عتاب.

ابنُ حزم سيلٌ إن هدأ نفع، وإن اندفع هدم واقتلع، حوارُه حار، إذا جادل جالد، يبيع في لحظة عربونَ المودة، ويشتري في ساعة مجابَهة الجماعة.

ولكنه يعود إلى صحة إسلام، وجمال خصال، وحسن منبت.

لاْ عنده قبل نعم، وكلاّ لديه قبل أجل، له غيرة دينية، وحرارة إيمانية، يغلي منهما دماغُه، هد جهودَ اليهود، وانتصر على أنصار النصارى، إن سكت عنه الغضب أخذ الألواح، وإن ثارت ثائرته نادى: السلاحَ السلاح.

هو مهندٌ سار ذكرهُ من الأندلسِ إلى الهند، أغرقوا كتبه في البحر فخرجت أفكارُه إلى البر، وأحرقوا كتبه في البادية، فانتشر صيتُه في الحاضرة، أصحابُه يرونَه بحراً ذا ثبج، والأحنافُ ذا هَوَجْ، والمالكيةُ مالحاً يُمجّ، والشافعيةُ سَمِجْ، والمحدِّثون: مستقيم فيه عِوَج.

وهو عالمُ مهما حدث، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث.

أنَت قد جاوزتَ تلك القنطَرة   فاترك الحاسد يلقى قدره

وهو سَدّ في وجوهِ الكفار، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا.

فلا تبطل جهاده، فقد فاقت عشراتُه آحاده.

ابن حزم، عزمٌ، وحزمٌ، وجزمٌ.

ألقِ من كتبهِ السبابْ فهي لُباب، واطرح من مؤلفاته الشتيمه، لتكن لها قيمة، أمعن النظر واقرأ بحذر، ولا تشوّش على من حَضَر.

لسانُه في الحجَاج، كسيفِ الحجاج، خصومُه كرام، فعسى أنْ لا يُلام، أفضى إلى ما قدَّم وقدم إلى الملك الأكرم.

وقفـــات تـــدبـــر

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤] فيه وعيد شديد وتهديد أكيد لكل من تسول له نفسه بالتطاول على قداسة المنهج وحرمة الدِّين وحجاب حدود الله، وسياج محرماته، وأخبر أن هناك رصد ينتظر أهل السوء، وكمين مهيء لهم لا يفلتون منه، وأن جزاءه في الطريق وعقابهم وشيك، وأنه لو تأخر عنهم النكال فإنما هو لحكمة أرادها الله عز وجل، وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إشعار برعاية الله لرسوله ﷺ، ولكل عبد صالح، فربك وحاميك وناصرك بالمرصاد لأعدائك، وما ألطف كلمة المرصاد، ففيها من الخفاء على هؤلاء المفسدين ما يجعلهم في أمن الغفلة حتى يحل بهم الهلاك، ويفجأهم الأخذ ويباغتهم البطش، فالمرصاد نهاية حتمية لهؤلاء، ومصرع مأساوي ينتظرهم، وإذا كان الله بالمرصاد فأين المذهَب؟ وإلى أين

الفرار؟ وكيف النجاة؟ وماذا يفعل هؤلاء؟؟

قال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾
وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾

أما الآية الأولى فمعناها: النهي عن مدح النفس، والثناء عليها، والإعجاب بماعند العبد، والافتخار بما لديه من مواهب لأن هذا يؤدِّي إلى الكبر والازدراء بالآخرين، وغمط الناس والسخرية بهم.

وأما الآية الثانية فمعناها: نسبة النعمة الحاصلة على العبد إلى الله عز وجل لا إلى النفس، والاعتراف بهذا، وذكر ذلك على وجه الشكر، والامتنان لله عز وجل، وعدم جحدها وكتمانها وسترها، إلا إذا خاف من عين أو حاسد، قال تعالى: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا . . ﴾ [النحل: ٨٣]. وقال: ﴿ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا . . ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

ضعف في البصيرة

أعرف طالب علم إذا تحدَّث في المسجد للعامة ساق الحديث بسنده من أوله إلى آخره، فيقول: قال البخاري: حدَّثنا فلان، فيوردهم رجلاً رجلاً. وهذا من قلة الرأي، وضعف البصيرة، لأَن الحديث صحيح قطعاً، فلا معنى لذكر السند، ولأَن العامة لا يهمهم السند، ثم إن هذا

يورث العجب، وهو داء خطير، وكان عبدالغني المقدسي المحدِّث يقرأ من الكتاب لئلا تعجبه نفسه.

فائـــــدة

خير الوعظ والتدريس ما كان سهلاً واضحاً يفهمه العامة، وينتفع به الخاصة، وهذا نهج القرآن والسنة، أَما مخاطبة نخبة من الناس بكلام خاص فهذا له نفعه في حدوده وزمانه ومكانه فحسب، وقد يحتاج إليه، وتبقى البركة والنفع الأعم في مخاطبة الجمهور.

فائـــدة

الولي لا يحب الشهرة، لأنه إذا عرف ربه كفاه هذا، فمعاملته مع مولاه سبحانه، ثم إنه يعرف أن الناس لا ينفعون ولا يضرون وأن الدنيا فترة قصيرة، تفنى ويفنى أهلها، وإنما أحب الشهرة من فرغ من حلاوة الطاعة.

فائـــدة: إن لصاحب الحق مقالاً

قوله ﷺ: «**إن لصاحب الحق مقالاً**» فيه قيام الحجة لمن له حق وكون البرهان معه، وأنه أولى بالحديث والإيراد لأَن لديه بيّنة،

فصاحب الحق قوي الجانب صلب الأركان، إذْ هو ناطق بصدق فتجده جريئاً لا يتلعثم، شجاعاً لا يخاف، مقداماً لا يتأخّر، الحق أنطقه، الصدق قوّاه، البيّنة ساندته، وإن كان هذا الحديث في معنى الخاص فإنه يعم، فأعظم أهل الحقوق هم الداعون إلى سبيل الله، الآمرون بشرعه، الناهون عن مخالفتهِ، الذّابون عن محارمه، المدافعون عن حدوده، فتجد في كلامهم من الصدق والوضوح والقوة والعدل ما يخلب الألباب ويدهش العقول، وتجد في كلام أهل الباطل والزور من التخاذل والسقوط والاضطراب ما يعرف به باطلهم، فما أفصح صاحب الحق، وما أقوىٰ صورته، وأصلب عوده، وما أضعف صاحب الباطل وأفشل موقفه وأخيب مسعاه، إن الحق عليه نور يكسو صاحبه بجلباب الصدق والهيبة والصيانة، وإن الباطل عليه ظلمة يحجب صاحبه بقناع الذلّة والخيبة والصغار، وفي الحديث: أن صدق اللهجة وقوة الحجة قرينة على صحة الدعوىٰ ومصداقية المقال. والله أعلم.

عمر بن عبدالعزيز

الخليفة الزاهدُ المجاهد العابدُ مجدد القرن الأول.

تولّى الخلافة فرد المظالم، وكف المعتدي وهو راغم، أعاد العدل كما كان، وردّ الأمة إلى ما كانت عليه سالف الزمان.

أقبلت إليه الدنيا فكلح، تعرض له الذهب فجنح، ناداه الإغراء فأبى، دعاهُ الجاهُ فما عبى.

عمر بن عبدالعزيز: ملك في ثوب زاهد، وسلطان في جلباب عابد، ملك الدنيا فصار فقيراً، وتذكر الآخرة فأصبح كسيرا ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ١٢].

عمر بن عبدالعزيز: الحسم لفترة الضياع، والنهاية لمرحلة اللامبالاة.

مثل النذير العريان، لقوم غافلين لاهين سادرين، نفخ الروح في أمة عندها فطرة، ولديها رسالة، ومعها كتاب، فكأن الناس لأول مرة يستيقظون وينتبهون.

عمر بن عبدالعزيز: كأذان بلال في آذان الرجال، عمر: استيقاظ لا نوم بعده، وجد لا خمول معه، طرد لشياطين الترف، إبعاد لأساطين الخرافة، إحراق لأوراق اللعبة، تمزيق لملفات الظلم.

عمر بن عبدالعزيز: التجديد في أصالة، الترشيد في علم، البناء في هدوء، القضاء على الأعراف بالشرع، وعلى التقليد بالاتباع، وعلى الفوضوية بالنظام: كفل له الدستور إزهاق الباطل ودحض الحقوق، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود.

عمر بن عبدالعزيز: جاء في فترة الخلافة الراشدة، وانقطاع من الصفوة المباركة، وانفصام من حبال الحق.

فأذكى جذوة الجيل بمراسيه، وأشعل نار الغيرة بمواقفه، فعادت للأُمة صولتها، وجولتها، ورجع للناس مجدهم المسلوب، وحقهم

المنهوب.

عمر بن عبدالعزيز: حُكم بلا رشوة، وصرامة بلا ظلم، وفصل بلا محاباة.

أمِنت به السبل، وخمدت بعدله الفتن، نامت بسياسته الثورات، شجع العلماء فجلسوا في المساجد يعلمون ويفقهون.

علم الشجعان الجهاد، فرابطوا في الثغر، يكافحون ويناضلون.

وألهب همم الشباب فتوجهوا للعلم، يحفظون ويحصلون.

عمر بن عبدالعزيز: الإجهاز على حياة البذخ، بطلائع التقشف، والتصميم على تجريد لفائف الترف بيد العقل، يعمل قبل أن يقول، يتقدم قبل أن يتكلم.

عمر: خليفة ولكنه واعظ، وسلطان ولكنه عالم، وملك غير أنه زاهد، هو خطيب الجمعة إذا برز المنبر، وحف الجمع، وهو إمام الصلاة إن أقيمت، وهو المفتي إذا أعضلت المسائل، واشتبهت الأمور.

يسمر مع العلماء، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال.

ويسهر مع الفقهاء، فلا غيبة ولا وشية ولا قيل وقال.

ويأكل مع الفقراء، فلا كبر ولا عجب ولا اختيال.

عمر بن عبدالعزيز: علمته مشيخة الحديث، احترام النقل، وتوقير الصحابة، والتأدب مع الرعيل الأول.

وعلمته الملة، خشية الباري، والتهيؤ للرحيل، وتجويد الزاد.

وعلمه العقل، التعالي على النقائص، وجمع الفال، وتهذيب الخلال.

أخذ من أبي بكر الخشية، ومن عمر العدل، ومن عثمان البذل، ومن علي العلم، ذهب عن السلف وربى الخلف، وحفظ الجادة.

عمر بن عبدالعزيز: يملك من السند إلى طنجة، غير أن بيته من طين، ومركبه بغلة، ولباسه بدراهم معدودة، وطعامه خبز وزيت.

عظمة عمر في بساطته، لأنه حطم أغلال نفسه الأمارة، فسلمت للشرع، وأذعنت للفطرة، وتابعت المعصوم، وجبلت على الخير.

وعبقرية عمر في سموه على الحطام، وهو الذي وجده سهلاً ميسوراً، يلوح له صباح مساء، ومع هذا جافاه، وهجره، وقلاه.

عمر زاهد، لأنه وجد الدنيا ليس الزاهد من فقدها، لأن ذاك بالاختيار، وهذا بالاضطرار، وعمر عادل، لأنه حكم الضمير على النفس، والشرع على الناس، بدأ بالقريب؛ فأطاعه البعيد.

كان يتصدق بوقته على الناس وجه النهار، ويعود آخره، كان يبكي حتى تكاد أضلاعه تختلف، ويحزن حتى يكاد الحزن يذيبه: يوم يتذكر عظم الأمانة، وجلال المسئولية، وثقل المغرم، وصعوبة الموقف غداً.

اللهم ارفع كتابه في عليين، ووسع مدخله في الخالدين.

غـــربة أبـــي ذر

دمعة الزهد فوق خدك خرسا ووجيـب الفـؤاد يحـدث جـرسـا
أنت من أنت يا محب وماذا في حناياك هل تحملت مسا
ما لهذي الدموع مالك صب حالكم مأتم وقد كان عرسا
شامة الزهد في محياك سارت قصة تطمس الحكايات طمسا
قـال: أزمعـت هجـرةً بيقينـي قد مللت المقام وازددت بؤسا
وأمـة الصحـراء تـروي حـديثـاً يتـوالـى يفيـض روحـاً وأنسـا
تشتكـي بعـده وتهـدي إليـه زفـرات الحنيـن جنّـا وإنسـا
هجرت نومها وأسهرها الحب فيـا جنـدب تـرى أيـن أمسـي
جـاءهـا يقطـع الـرمـال وحيـداً يركب الليل يصحب الذئب خمسا
كلمـا حـل قفـرةً سـار منهـا يتـوارى يحبـس ممشـاه حبسـا
قال: يا أرض يا رمال خذيني كفنينـي إنـي عشقتـك رمسـا
دولتـي جعبتـي وكنـزي يقينـي فإذا ما وصلت فالأكل ينسىٰ
طاردتني الدنيا فطرت برجلي واتخـذت البـلاد رحـلا وحلسـا
عشت فرداً والناس مليون حولي وأراهـا الـذئـاب غلسـاً وطلسـا
خولوني مالاً فقلت: دعوني أنا ما لي أن لا أرى المال نحسا
لا طفـونـي هـددتهـم هـددونـي بـالمنـايـا لا طفـت حتـى أحسـا
أركبوني نزلت أركب عزمي أنزلوني ركبت في الحق نفسا
اطـرد المـوت مقـدمـاً فيـولـي والمنـا اجتـاحهـا وهـي نعسـا

قد بكت غربتي الرمال وقالت: يا أبا ذر لا تخف وتأسّا
قلت: لا خوف لم أزل في شباب من يقيني ما مت حتى أوسّا
أنا عاهدت صاحبي وخليلي وتلقنت من أماليه درساً
لوحوا بالكنوز راموا محالاً وأروني تلك الدنانير ملساً
لا أريد المتاع قد صنت نفسي فدعوا عرضكم فرأسي أقسى
كلها لا أريد فكوا عناني أطلقوني أسير في الأرض شمسا
واتركوني أذوب في كل قلب يغرس الحب في حناياه غرسا
أجتلي كل روضة بدموعي وأبث للأزهار في الروض همسا
هذه خيمتي وهذا مكاني ونشيدي الرياح لحناً وجرساً
خفت الصوت في التراب وماتت عزماتٌ كالفخر تنبس نبسا
واختفت سيرة طوتها الليالي وتوارت ذؤابة الزهد حبسا
استرح يا فؤاد يا نفس قرّي واكتبي قصتي بسبعين طرسا
أين ميراثه لينعم فيه عاشق المال أين مالك أرسا
بردة أبلت الليالي سداها وتركت العصا وخلفت ترسا

* * * *

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

الرياض ٣/ ١/ ١٤١٩هـ



فهرس الموضوعات

